

المرأة
بين
شريعة الإسلام والحضارة الغربية



ترجمة : سيد رئيس أحمد الندوى

مراجعة : د / ظفر الإسلام خان



المـرأة

بـين

شريعة الإسلام والحضارة الغربية

الطبعة الأولى

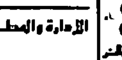
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

الإدارة: ٧ ش السراي - أول النيل ت . فاكس: ٩٨٧٩٢٤

الفرع: حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

الإدارة والمطابع: المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت: ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٣٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة: أمام كلية الطب ت. ٣٤٧٤٢٣ ص . ب: ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

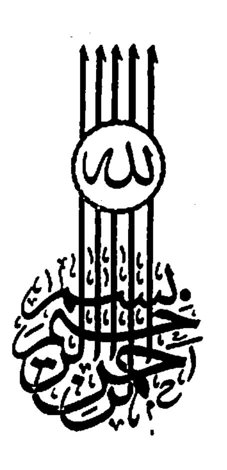
وحيد الدين خان
(المفكر الهندى الكبير)

المـــرأة
بـين
شريعة الإسلام والحضارة الغربية

ترجمـة : سيد رئيس أحمد الندوى
مراجعة : د / ظفـر الإســلام خـان

دار الصحوة

دار الوفـاء



المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية

كلمة المراجع

نتشرف اليوم بتقديم كتاب جديد للمكتبة العربية من مؤلفات الأستاذ وحيد الدين خان الذى عرفه القارىء العربى من خلال **الإسلام يتحدى** وغيره من الكتب النفسية التى نقل بعضها إلى العربية .

وهذا الكتاب ، الذى بين أيدينا ، هو ترجمة الطبعة الثانية المنقحة لكتاب **خاتون إسلام** التى صدرت بالأردية سنة ١٩٨٨ . وكانت الطبعة الأولى من الكتاب قد صدرت سنة ١٩٨٦ عن مكتبة الرسالة بدلهى الجديدة . وقد أضفنا إلى الكتاب بعض الفصول والفقرات والمعلومات التى رأى المؤلف إضافتها بعد صدور الطبعة الثانية ، ومنها فصل تعدد الزوجات .

والكتاب استجابة لانتقادات حادة وجهتها الأوساط العلمانية فى الهند فى منتصف الثمانينيات ضد الشريعة الإسلامية (وخصوصا ضد مركز المرأة فى الإسلام) وذلك بعد رفض مسلمى الهند أى تغيير فيها فى أعقاب صدور حكم من المحكمة العليا بإلزام زوج مطلقة مسلمة بإعطائها نفقة « الإعالة » حتى بعد انتهاء العدة . وستجدون تفاصيلها فى طيات الكتاب .

وقد قام بالترجمة من الأردية زميلى الأستاذ سيد رئيس أحمد الندوى وهو من خريجى قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وله خبرة طويلة فى هذا المجال . كما قمتُ بترجمة النصوص الإنجليزية التى أوردها المؤلف – وهى كثيرة – إلى جانب مراجعة الكتاب بدقة على النص الأردى . وكذلك قمنا ، حسب المستطاع ، بتخريج النصوص التى أشار إليها المؤلف .

والله ولى التوفيق وهو المستعان .

٢٧ يوليو ١٩٩١ .

د .ظفر الإسلام خان
مدير معهد الدراسات الإسلامية
والعربية بدلهى الجديدة

** ** **

تمهيد

قام المستشرق البريطانى إدوارد وليام لين (١٨٠١ - ١٨٧٦) بترجمة معانى أجزاء مختارة من القرآن الكريم ، صدرت أولى طبعاتها فى لندن عام ١٨٤٣ ، وهو يقول فى مقدمتها بصدد تعريفه بتعاليم الإسلام : « إن الجانب المهلك للإسلام حطه من قيمة المرأة »[١]

وذاعت هذه المقولة حتى أخذ الناس يتداولونها بكل بساطة . وحتى بعد مرور قرن ونصف قرن لم تتغير نظرة الناس حول هذا الأمر . وقد ردد شَنْدراشُوْد (Y.V. Chandra Chud) كبير قضاة الهند هذه المقولة فى قراره فى قضية محمد أحمد / شاه بانو ، الخاصة بالطلاق والنفقة ، سنة ١٩٨٥ ، بدون أدنى تفكير فى محتوى هذه المقولة وكأنها حقيقة لا جدال حولها .

إن وصف وجهة نظر الإسلام عن المرأة بأنها حط من قيمتها تشويه متعمد للحقيقة . فالإسلام لا يقول عن المرأة : أنها أقل شأنا من الرجل ، بل جُلّ ما يقوله هو : إنها تختلف عن الرجل . فالقضية هنا تقتصر على أوجه التباين بينهما ، وهى لا تتعلق بتحديد من هو الأفضل بينهما .

ولو قال أحد الأطباء لمريض ما إن العين هى أكثر أعضاء جسدك دقة ، وينبغى ألا تعاملها كما تعامل ظفرك مثلا ، وعليك أن تكون أكثر حرصا على عينيك . . فكلامه هذا لا يعنى أنه ينتقص من العيون إزاء الأظفار ، وإنما هو يصف تباين العين عن الظفر .

إن قوانين الإسلام عن المرأة والرجل تنبع من حقيقة مبدئية هى أنهما جنسان منفصلان ، وتوجد بينهما فروق معينة ومحددة من الناحية التكوينية ، ولأجل ذلك لا ينبغى أن يكون لهما إطار عمل واحد ومشترك فى محيط الأسرة والمجتمع .

---

(١) Edward William Lane, Selections From Kuran (London 1982) P.XC.

فتباينهما على مستوى التكوين الأحيائى (البيولوجى) يحتم التباين على مستوى العمل والنشاط كذلك .

وظلت هذه هى وجهة نظر كافة الأديان السماوية ، على مدى آلاف السنين عن المرأة . ولم يثر شك حول هذا منذ آلاف السنين حتى العصر الحاضر . إلا أن حركة تحرير المرأة فى العصر الحديث طرحت للمرأة الأولى أمام العالم فكرة التماثل التام بين المرأة والرجل ، وطالبت بضرورة منحهما فرصا متساوية للعمل فى كافة المجالات .

لقد نشأت هذه الحركة فى بدايتها ببريطانيا خلال القرن الثامن عشر ، ومن ثم انتشرت إلى أوربا وأمريكا . وأصدرت مارى وولستون كرافت (Mary Wollstonecraft) كتابا عام ١٧٩٢ تحت عنوان : **تبريز عن حقوق المرأة** وخلاصته « أنه يجب أن تحصل النساء على نفس معاملة الرجال فى مجالات التعليم وفرص العمل والسياسة ويجب أن يطبق على كليهما معايير أخلاقية واحدة »[1] .

وقد تلقف أنصار تحرير المرأة هذه الدعوة بالتطبيل والتزمير حتى ترددت أصداؤها من أقصى المعمورة إلى أقصاها ، وساهم فيها الرجال والنساء على حد سواء ، حتى أصبح التحدث بعدم المساواة بين الرجل والمرأة من معالم التخلف اليوم . وكان هذا الفكر قد ساد كافة أرجاء العالم مع بداية القرن العشرين . فتم وضع قوانين ملائمة ، وجرى إفساح سائر المجالات للمرأة كالرجل تماما ، إلـــخ . .

إلا أن هذه التجربة لقيت إخفاقا تاما من الناحية العلمية ، فحتى بعد كفاح دام حوالى قرنين لم تتحقق للمرأة المساواة التامة مع الرجل . وظلت المرأة متخلفة إلى الآن فى كافة مرافق الحياة ، تماما كما كانت قبل بدء حركة تحريرها ، ولم يتمخض عن هذه الحركة عمليا سوى أن المرأة غادرت بيتها ، وأصبح بالإمكان

---

(١) دائرة المعارف البريطانية (ط . ١٩٨٤) ١٠ / ٧٣٣ .

مشاهدتها وهى تتجول مع الرجل فى كل مكان . لقد فقدت المرأة أنوثتها ، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى الغاية التى فقدت من أجلها أنوثتها ، أى المساواة مع الرجل فى كافة المجالات .

هذا الإخفاق التام لحركة المرأة حمل الناس على بحث القضية من جديد . وبدأت حولها دراسات علمية جادة فى مختلف أنحاء العالم . وانتهت هذه الدراسات بالتأكيد على أن هناك تباينا تكوينيا بين كل من المرأة والرجل . وهذا التباين التكوينى هو العامل الأساسى الذى لا يمكّن المرأة من المساواة مع الرجل فى كافة مرافق الحياة . وكانت الفلسفات الزائفة قد شككت فى وجهة النظر الدينية عن المرأة ، إلا أن الحقائق العلمية عادت لتؤكد على صحتها من جديد .

والسؤال الآن : لماذا يواصل بعض الناس ترديد آراء عفا عليها الزمن ، بعد أن تبين أن موقف الدين إزاء المرأة هو عين الصواب ؟ ولماذا يظل الإسلام متهما بأنه ينتقص من قيمة المرأة ؟ .

ويدعى س .م . جوشى (٨٢ عاما) ، أحد رواد حركة الاستقلال فى الهند ، فى حديث أدلى به الى صحيفة **تايمز أوف إنديا**[١] : « إن قوانين الشريعة الإسلامية و« تشريعات مانو » (الهندوسية) ، اللتين تتبعهما الطائفتان منذ قرون ، كلتاهما ، وعلى درجة سواء ، رجعية اجتماعيا » .

هذه الآراء التى يجرى تداولها اليوم ، على نطاق واسع ، تدعونا إلى البحث عن أسبابها ودوافعها بدلا من الانفعال إزاءها . والواقع أن هناك سببا واحدا لا غير ، وهو أن النظرية الجديدة حول تباين المرأة عن الرجل لا تزال مجرد حقيقة علمية ، وهى لم تتحول بعد إلى ثورة فكرية . ومن المعهود فى عالمنا أن أية فكرة – مهما كانت مدعمة بالحجج والبراهين – لا تحصل على القبول العام إلا بعد رفعها إلى مستوى الثورة الفكرية .

وكان كل نبى من أنبياء الله يؤكد على عقيدة التوحيد بالأدلة والبراهين ، ومع

---

(١) عدد ٦ أبريل ١٩٨٦

ذلك لم يتم القضاء على الشرك نهائيا ، لتسود عقيدة التوحيد بوجه عام . ولم تتحقق هذه المهمة الثانية إلا بعد أن قام الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه – بنصر من عند الله – بالسمو بعقيدة التوحيد إلى مستوى الثورة الفكرية .

والعصر الحاضر كذلك يتطلب إحداث ثورة فكرية . وقد وفّر العلم الحديث الأسس الاستدلالية لصالحها . والمطلوب من أبناء الإسلام دفع هذه الحركة إلى الأمام ، والقيام بالجهد اللازم لتحويلها إلى ثورة فكرية عالمية . إن هدفنا من هذا الكتاب هو حمل الناس على النهوض للبدء بهذا الكفاح التاريخي .

وحيد الدين خان

١٩ سبتمبر ١٩٨٦

** ** **

مدخل إلى قضية المرأة

ألف السير جيمز جينز (١٨٧٧ - ١٩٤٦) كتابا بعنوان **الكون اللغز** The Mysterious Universe وهو أصدق تعبير عن الوضع الراهن للكون . فالواقع أن الكون كله لغز إزاء عقلنا المحدود . ويستطيع الإنسان أن يضع الأقيسة والنظريات فقط حول الكون ، باستخدام عقله ، وليس بوسعه أن يستوعبه تمام الاستيعاب .

وهذا الغموض الذى يكتنف الكون أدى فى العصر القديم إلى ظهور ما يسمى الآن بالأساطير . وقد اختلق الإنسان معتقدات مزعومة بمحض القياس والظن . وظلت دائرة هذه القياسات تتسع حتى سادت البشرية بأكملها .

وفى كل عصر هناك نظام لمعتقدات الإنسان يحدد مسار تفكيره وعمله . وكان نظام المعتقدات فى العصر القديم قائما على الأساطير والخرافات . وحدث التحول فى هذا النظام للمرة الأولى فى القرن السابع الميلادى فبدأ الاهتمام بالحقائق بدل الأوهام . وجاء هذا التحول الثورى بتأثير الإسلام .

وكانت الأوهام والأساطير قد ظهرت لتساعد على تفسير الكون . كيف خلق الإله السماوات والأرض والنبات والحيوان والإنسان ؟ ما هو الأصل الإلهى للمؤسسات الإنسانية والنظام العالمى ؟ وما هى القوانين الربانية للنجاح والفشل ؟ لقد ظهرت الأساطير لتعليل وتوضيح أسئلة أساسية كهذه . وعلى سبيل المثال انجذاب كل من المرأة والرجل نحو الآخر ، وظهور مؤسسة الزواج كنتيجته الطبيعية . . . لقد جرى تفسير هذه الظاهرة بحكاية مختلقة تقول بأن الرجل كان المخلوق الأوحد فى أول الأمر ، ثم انقسم إلى جزئين : أى رجل وامرأة . ويميل كل منهما نحو الآخر لتحقيق تلك الوحدة الأزلية مرة أخرى . وأرسطو فانس يردد هذه النظرية فى شرحه لأرسطو ، كما تناولتها التوراة أيضا فى أصحاح التكوين مرددا الحكاية المعروفة القائلة بأن حواء خلقت من أحد ضلوع آدم . وكما جاء

فى سفر التكوين (٢ : ٢٣ - ٢٤) فبما أن المرأة استخرجت من الرجل لذلك يهجر الرجل أبويه لكى يتحد مع زوجته ليكونا معا جسدا واحدا مرة أخرى[١] .

بعض الأمثلة

نورد هنا مثالين يوضحان أمرين معا : أولا : الفرق بين « الأسطورة » و« العلم » . ثانيا : أن الإسلام هو الذى قام أساسا - ولأول مرة فى التاريخ البشرى - بالقضاء على عصر الأساطير والخرافات ، ودشّن عهدا جديدا للبشرية .

من بين الأحداث التى تشهدها كرتنا الأرضية كسوف الشمس وخسوف القمر . وقد تم التوصل فى العصر الحديث إلى ماوراء هاتين الظاهرتين من عوامل فلكية . ولكن إنسان العصر القديم كان يجهل هذه الحقيقة ، ولذلك اختلق نظريات غاية فى الغرابة بناء على قياسات افتراضية ، فعلى سبيل المثال كان أهالى الصين القديم يعتقدون حدوث الكسوف بفعل تنّين سماوى . وكلما حدث الكسوف ظن الصينيون أن تنينا هائلا يقوم بابتلاع قرص الشمس ، ومن ثَمَّ أخذوا يُحدثون أقصى قدر من الضوضاء لترويع التنين . وكانوا دائما ينجحون فى إنقاذ الشمس ![٢] والمعروف علميا اليوم أن الكسوف يبدأ وينتهى فى مواعيد محددة ، إلا أن الجموع الصينية كانت تعتقد عند نهاية كل كسوف بأنه قد انتهى بفعل ما أحدثوه من الضجيج ، ليعودوا إلى عادتهم بمزيد من الثقة عند حدوث الكسوف التالى .

لقد ظهر الإسلام خلال هذه الحقبة ذاتها ، إلا أنه اتخذ بشأن الكسوف موقفا مغايرا للاعتقاد السائد آنذاك ، وموقفه يطابق تماما الكشوف العلمية الحديثة .

كان أحد أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويسمى إبراهيم ، قد توفى وهو

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، ١٢ /٩١٩ - ٩٢٠ .

(٢) Ian Nicolson,. Astronomy,. 1978.

طفل لم يتجاوز عاما ونصف العام من عمره ، وذلك فى شهر شوال من السنة العاشرة للهجرة . وحدث كسوف للشمس يوم وفاته . وكانت الشعوب فى قديم الزمان تحمل معتقدات غريبة عن الكسوف ، من بينها أن الكسوف والخسوف يحدثان بسبب وفاة رجل عظيم . وبما أن الكسوف فى ذلك العام وقع يوم توفى إبراهيم ابن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فبدأ بعض الناس فى المدينة يقولون : إنه حدث بسبب وفاته ، فجمع الرسول الناس وأوضح لهم الحقيقة . وقد جاء فى الصحيحين :

« فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلّوا وتصدّقوا »[1] .

ومما قاله الرسول الكريم كذلك :

هذه الآيات التى يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوف الله بها عبادَه ، فإذا رأيتم شيئا من ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره[2] .

لقد قام الإسلام ، ولأول مرة فى التاريخ البشرى ، بالقضاء على مثل هذه الأوهام والأساطير الباطلة .

وتذكر المصادر الإسلامية حادثا وقع فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه فى مصر على الوجه التالى :

روى ابن لهيعة عن قيس بن حجاج عمن حدثه قال : لما أُفتتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص – حين دخل بؤنة من أشهُرِ العجم – فقالوا : أيها الأمير لنيلنا هذا سُنَّة لا يجرى إلاّ بها . قال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كانت اثنتا عشرة ليلة حلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها

---

(١) صحيح البخارى ، أبواب الكسوف ، باب الصدقة فى الكسوف فتح البارى شرح صحيح البخارى (ط . دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ب .ت) ٢ /٤٢٤) .

(٢) صحيح البخارى ، أبواب الكسوف ، باب الذكر فى الكسوف (فتح البارى ٢/٤٣٧–٤٣٨) .

وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا مما لا يكون فى الإسلام . إن الإسلام يهدم ما قبله . قال : فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى والنيل لا يجرى قليلاً ولا كثيرا حتى همّوا بالجلاء . فكتب عمرو الى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب اليه : إنك قد أصبتَ بالذى فعلتَ ، وقد بعثتُ اليك بطاقةً داخل كتابى فألقِها فى النيل . فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر . أما بعد : فإنك إن كنت إنما تجرى من قبلك ومن أمرك فلا تجرِ ، فلا حاجة لنا فيك . وإن كنت تجرى بأمر الله الواحد القهار ، وهو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك » . قال : فألقى البطاقة فى النيل ، فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة . وقد قطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم[1] .

ضرورة علمية

أدى شيوع الأساطير والخرافات فى العصر القديم إلى تبنّى الإنسان وجهات نظر غير واقعية حول كافة الأمور ، إلا أن قضية المرأة تضمنت عاملا إضافيا . .

ويمكن القول : ان حاجات المجتمع الإنسانى المختلفة توزع وتتم بصورة إجمالية على ساحتين :

أولا : الأعمال المطلوب إنجازها داخل البيت .

ثانيا : الأعمال المتعلقة بخارج البيت .

ويعتبر البيت الأساس الأول للمجتمع الإنسانى ، وهنا يجد المرء سويعات

---

(١) ابن كثير ، **البداية والنهاية** (ط . دار الفكر العربى ، بيروت ، إعادة الطبعة الأولى لسنة ١٣٥١ /١٩٣٢) ٧ /١١١ .

الراحة ، وهنا يتربى الجيل القادم لأية أمة . والبيت وحدة من الوحدات التى تشكل المجتمع . والمجتمع البشرى ينعدم بانعدام البيت . وكما أن وضع اللبنات بعضها فوق بعض بأسلوب سليم يؤدى بالضرورة إلى إقامة بناء سليم ، كذلك إصلاح البيت يمهد الطريق الى إصلاح المجتمع كله .

إلا أن طبيعة هذين النوعين من الأعمال يختلف بعضها عن البعض . فأعمال البيت ليست خشنة ، وتصلح لها الكفاءات العاطفية ، بينما الأعمال المتعلقة بخارج البيت تحتاج الى كفاءات فعالة وإلى امتلاك الإنسان جسدا أصلب وأعصابا أقوى . ويحتاج استمرار وتقدم الحضارة الإنسانية إلى النوعين من الكفاءات ، لذلك شاءت القدرة الإلهية أن يكون الرجل والمرأة نوعين منفصلين . وأودعت فى المرأة كفاءات عاطفية أكثر ؛ لتقوم بإدارة أعمال البيت ، كما أودعت فى الرجل كفاءات ذات فعالية أكثر ؛ ليتولى هو بدوره مسئولية الأعمال المتعلقة بخارج البيت .

وبمراعاة هذه الحكمة فى تنظيم شئون الحياة ، وتوزيع الأعمال على كل نوع لما خُلِق من أجله سيبقى مسار نظام الحياة سليما ومتوازنا ، وبانعدام هذه الحكمة سيفقد نظام الحياة توازنه وسيتجه نحو الدمار .

ولم تستوعب أغلب شعوب العالم القديم هذه الحكمة . فقد شاهدت أن الرجل يتولى المرافق المعيشية ، ويتكفل بالدفاع عن الشعب عند المواجهة والحرب . وبما أن الرجل كان يتولى مسئولية إنجاز كافة الأعمال الشاقة ، فقد شاع الاعتقاد فى تلك المجتمعات بأن الرجل كائن أعلى والمرأة كائن أدنى . لقد شاءت القدرة الإلهية أن يكون التباين بين المرأة والرجل لدواعى الحاجة الطبيعية أما تلك المجتمعات فرأت أن هذا التباين هو لأجل تحديد أولوية جنس على الآخر . ولذلك نجد أن كافة المجتمعات القديمة كانت تنتقص من قيمة المرأة إزاء الرجل ، وكانت تعاملها بازدراء إزاءه .

أوهام عن المرأة

ونتيجة للانتقاص من شأن المرأة إزاء الرجل اُعتبرت المرأة تافهة فى نظر

المجتمع ، فلم تكن تستحق وراثة أملاك الأسرة ، ولم تكن متساوية فى نظر القانون مع الرجال فى الحقوق ، وأصبحت بمثابة العبيد من الناحية العملية . . حتى وجدت لدى بعض القبائل الجاهلية عادة وأد البنات بعد ولادتهن مباشرة .

والمعهود عن الإنسان أنه يختلق القصص حول « أولوية » وتقديس ما يعتبره فى درجة أعلى . ولو قرر عقله عن شيء ما أنه فى درجة أدنى فسيبدأ باختراع الحكايات ليخيل اليه أن ما يعتبره تافها هو كذلك فى واقع الأمر .

وقضية المرأة لا تختلف عن هذا فى شيء . وكانت غالبية الشعوب فى العصور القديمة تتداول حكايات غريبة لم تكن فى واقع الأمر إلا أساطير مختلقة لا أصل لها ، إلا أن الناس أصبحوا يعتقدونها حقيقة واقعة لشيوعها فى المجتمعات القديمة . فالحكايات التى تنتقص من شأن المرأة وتدعو إلى ازدرائها ذاعت فى كل أرجاء العالم ولدى كل الشعوب . ونشير هنا الى حكايتين معروفتين :

من الحكايات المختلقة ما تداولها قدماء اليونان وعن طريقهم شاعت فى الشعوب الأوربية الأخرى ، وهى تتعلق عن « المرأة الأولى » ، أى أول امرأة ظهرت على وجه الأرض . وعن هذه المرأة اخترعت قصص وحكايات تداولتها اللغات والاداب العالمية حتى أصبح الناس يؤمنون بها وكأنها حقيقة واقعة .

تلك « المرأة الأولى » كانت تعرف باسم « باندورا » (Pandora) وهى كلمة يونانية معناها « مانح كل شيء » ، إلا أنها استخدمت للدلالة على أمر سيئ ، أى مانح كل أنواع الشرور . والحكاية المختلقة تقول : إن « الإله » بروميثيوس (Prometheus) سرق النار من السماء وأعطاها لسكان الأرض مما أغضب كبير الآلهة زيوس (Zeus) فقرر أن يخلق امرأة سماها « باندورا » ، ليحرم سكان الأرض من النعم . وأنزلت تلك المرأة الى منطقة كان يستوطنها آنذاك إيبميثيوس (Epimetheus) فتأثر بجمالها واتخذها زوجا له لتعيش معه . وكانت هذه المرأة تملك صندوقا يعرف بـ « صندوق باندورا » (Pandoras Box) . وذات يوم بعد سكناها بالأرض قامت بفتح الصندوق الذى كان يمتلىء بالشرور

من كل نوع ، وبمجرد فتحها لغطائه خرجت الشرور وانتشرت على وجه الأرض . ومنذ ذلك اليوم لم تخل الأرض من الشر يوما .

وشاعت بين اليهود والنصارى حكاية أخرى مثلها ، مع اختلاف طفيف ، عن السيدة الأولى « حواء » . وقد أضيفت هذه الحكاية الى التوراة على النحو الآتى :

وأخذ الرب الإلهُ آدمَ ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها . وأوصى الرب الإله آدمَ قائلا : من جميع شجرة الجنة تأكل أكلا ، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت . وقال الرب الإله : ليس جيدا أن يكون آدم وحده فأصنعُ له معينا نظيره . وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها . وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية . وأما لنفسه فلم يجد معينا نظيره فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما . وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأةً وأحضرها الى آدم . فقال آدم : هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى . هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أُخذت . لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا . وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان .

وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله . فقالت للمرأة : أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة . فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل . وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا .

فقالت الحية للمرأة : لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر . فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها معها فأكل . فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان . فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر .

وسمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار . فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة . فنادى الرب الإله آدم وقال له : أين أنت . فقال : سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت . فقال من أعلمك أنك عريان . هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها . فقال آدم : المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت . فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذى فعلتِ . فقالت المرأة : الحية غرّتنى فأكلتُ . فقال الرب الإله للحية : لأنكِ فعلتِ هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه . وقال للمرأة : تكثيرا أُكثر أتعاب حبلك ، بالوجع تلدين أولادًا ، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك . وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا : لا تأكل منها : ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التى أُخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود[1] .

---

(١) سفر التكوين ، الأصحاحان ٢ - ٣ .

وتعلمنا هذه القصة أن الرجل الأول (آدم) كان يعيش فى نعيم الجنة ، وأن المرأة الأولى (حواء) هى السبب فى إجلائهما عن الجنة . لقد قام الأفعى (الشيطان) بإغواء حواء التى بدورها أغوت آدم . وهكذا ارتكب الإنسان « الخطيئة الأولى » التى تحمل تبعاتها الجنس البشرى بكامله .

هذه الحكاية لا أساس لها من الصحة ، بكل تأكيد ، إلا أنها أصبحت مشهورة ، وذاع صيتها ليس بين اليهود والنصارى وحدهم ، بل ولدى كافة شعوب العالم بطريقة أو بأخرى حتى وصلت إلى كافة الفئات من البشر من جراء الانصهار فى لغات وآداب كثيرة .

وكما أن القرآن قام بتصحيح ما تتضمنه التوراة من روايات كثيرة محرفة ، فهو يصحح أيضا ما جاءت به التوراة فى هذا الصدد . ولنتمعن فى معانى الآيات التالية :

﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووریَ عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاَّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاَّهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[1] .

ونلاحظ أن هذه الآيات تستخدم صيغة المثنى فى كل مناسبة ، فقد تم تحميل كافة التبعات على آدم وحواء كليهما . وهذا يوضح أن الشيطان قام بإغوائهما معا ، وأنهما انقادا له معا ، فذاقا من ثمرة الشجرة الممنوعين عنها معا . وكانت

---

(١) الأعراف : ٢٠ - ٢٣ .

النتيجة أنهما لقيا معا مصيرا واحدا . والله سبحانه تعالى يلقى عليهما اللوم سواء بسواء ، ويوجه إليهما الخطاب بأسلوب واحد .

قضية العزوبة

كانت كافة الأديان قبل الإسلام ، تقريبا ، تعتبر العزوف عن الزواج مثلا أعلى للعفة . وذلك لنفس الأسباب التى أشرنا اليها ، وهى ازدراء هذه الأديان للمرأة واعتبارها مصدرا للخطيئة ، مما أدى إلى شيوع الاعتقاد بين الناس بأن الرجل الذى فى حياته امرأة هو أدنى مرتبة . وعلى العكس من هذا فإن الشخص الذى يعيش حياة العزوبة يسمو فى نظرهم ويصل إلى مرتبة القداسة . وتقول **دائرة المعارف البريطانية** : « لقد تواجدت العزوبة بشكل أو آخر فى التاريخ الدينى البشرى على مر العصور . وقد ظهرت تقريبا فى كافة الأديان الكبرى فى العالم »[1] . وتوضح دائرة المعارف هذه ، فى مقالها بعنوان « العزوبة » مدى تأثر الأديان بهذا السلوك الغريب ، فتقول : إن فكرة العزوبة تهدف بصفة خاصة إلى إضفاء القداسة على رجال الدين . فرجل الدين ينبغى أن يكون مكتفيا ذاتيا فى محيطه الروحى ، بينما إقامة العلاقات مع المرأة تدل على اعتماده على مصدر خارجى لاستكمال شخصيته . وتوضح دراسة الأديان البدائية بأن إقامة العلاقات الزوجية كانت محظورة على رجال الدين ، لاعتقادها بأن مثل هذه العلاقة تحول دون التطهير الروحى للجسد البشرى . والآداب الدينية التى ظهرت فى العصور اللاحقة ركزت بشدة على أن حياة العزوبة ترفع من المستوى الخلقى والروحى للإنسان ، ولذلك ينبغى لمن يتطلع الى السمو الخلقى والروحى الامتناع عن الزواج ، وعدم ممارسة الجنس مع الزوجة إن كان قد تزوج فعلا . واعتبر العمل الجنسى عدوا حقيقيا للدين . والسمو الروحى بالنسبة للمرأة أن تبقى بدون زواج طوال حياتها ، وتموت وهى عزبة . وكان المثل الأعلى للمعلم الروحى من الفلاسفة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ٣ /١٠٤٠ .

ورجال الدين فى ديانة روما القديمة أن يعيش حياة العزوبة . والديانة « الجينية » (Jainism) الهندية تدعو الى الامتناع حتى عن مجرد إلقاء النظرة على المرأة ونجد وضعا مماثلا للمرأة فى البوذية وديانات أخرى[1] .

كان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أول شخصية معروفة فى التاريخ البشرى قامت بنفى هذه الآراء قولا وعملا . فأخبرنا بأن العزوف عن الزواج لا يدل على القداسة ، وإنما القداسة أن يعيش المرء بين أهله وأولاده ، وأن يظل ملتزما بحدود الله وأوامره ، وأن المرأة ليست مصدرا للشر للحياة بل هى مصدر خير لها .

ولم يكتف الرسول بالزواج ، بل كان يحث أصحابه على الزواج باستمرار ولكى يبطل الفكرة الشائعة عن قداسة العزوبة قال : « حبّب إلىّ من الدنيا النساء والطيب » . .[2] ولو لم يركز الرسول صلى الله عليه وسلم على قضية الزواج لظل الناس متمسكين بالتقاليد الموروثة ، لأن إنشاء العلاقة مع المرأة كان يعتبر خطيئة بالنسبة لشخصية دينية فى عصر ما قبل الإسلام .

لقد أثبتت الدراسات الحديثة أن فكرة العزوبة غير طبيعية إطلاقا ، وأنها مخالفة للواقع . وفى مقابل ذلك فإن نظرة الإسلام إلى الزواج هى الفطرة بعينها ، وهى تطابق الواقع تماما . لقد ثبت الآن أن الغدد الجنسية فى جسد الإنسان لا تساعد على الوظيفة الجنسية فحسب ، وإنما تلعب دوراً أهم من ذلك بكثير ، وهو مضاعفة أنشطة الإنسان الفسيولوجية والعقلية والروحية . لذلك نرى أن أى مخنث لم يصبح فيلسوفا أو عالما أو حتى مجرما كبيرا . وتقوم الأعضاء التناسلية بوظائف فى غاية الأهمية فى حياة الإنسان[3] .

لقد اُعتبر الزواج بالمرأة من المساوىء فى إطار « الدين » فى الأزمنة القديمة ،

---

(١) المصدر السابق ، ١٦ /٥٩٩ .

(٢) سنن النسائى ، كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء (ط . المكتبة العلمية ، بيروت ، ب .ت)٧ /٦١ .

(٣) Alexis Carrel, Man The Unknown (London 1984) P.91.

أما الإسلام فيشجع على إقامة رابطة الزواج مع المرأة . والأبحاث العلمية الحديثة تدل على أن النظرة الأولى كانت للطبيعة ، بينما نظرة الإسلام هى الطبيعة فى حد ذاتها . وهذا يدل على أن تعاليم الإسلام تتمتع بالواقعية المطلقة .

نظام الطبيعة

صنع التماثيل بنحت الحجارة وغيرها من المواد فن موغل فى القدم . والمعروف أن الإنسان الحى والتمثال يتماثلان الى حد بعيد فى ظاهر الأمر . وبناءً على هذا التماثل الظاهرى لو ظن شخص ما أن مشكلة الإنسان مماثلة لقضية التمثال ، ويبدأ بدراسة الإنسان على أساس فن النحت ، فماذا ستكون النتيجة ؟ التمثال المنحوت لا يحتاج إلى طعام ولا شراب ، فمثل هذا الدارس سيفترض أن لا حاجة للإنسان إلى الطعام والشراب . والتمثال يمكن أن يبقى مغلقا داخل غرفة لشهور أو سنوات ، فسيقوم هذا الباحث بحبس الإنسان فى غرفة مظلمة دون أن يثور شيء من قلقه ، حتى ولو ظل محبوسا لسنوات عديدة .

وضعت خطة فى عهد الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر لنقل معبد أبى سمبل من مكانه . وكانت تماثيلها البالغ ارتفاعها عشرين مترا قائمة على سطح جبل . وفى الفترة ما بين ١٩٦٤ - ١٩٦٦ تم تنفيذ خطة نقل المعبد بقطع التماثيل الضخمة إلى قطع صغيرة بواسطة منشارات آلية خاصة ؛ لتتم إعادة تجميعها فى مقر المعبد الجديد . وبالنظر الى ما حدث لمعبد أبى سمبل سيكون بوسع الباحث المذكور أن يقطع جسد الإنسان بالمنشار لتنفيذ بعض مشاريعه .

ولحسن الحظ لا يوجد فى العالم باحث من هذا النوع ، على ما يبدو ، إلا أن هناك فرعا عصريا للعلم ، وهو « علم الإنسان » (أنثربولوجيا) يقوم بإعداد باحثين على غرار ما ذكرناه آنفا . هؤلاء افترضوا الإنسان تمثالا حجريا ، وبدأوا يتعاملون معه على ذلك الأساس . لقد ظهر علم الإنسان فى مستهل القرن التاسع عشر بهدف دراسة نشأة المجتمعات البشرية على ضوء مصادر المعلومات

الخارجية . فتم تجميع المعلومات عن أحوال الإنسان ومعتقداته وتقاليده وأساليب حياته ، لتتبلور على ضوئها آراؤهم عن الإنسان .

وكان من الطبيعى أن يدخل « الدين » فى نطاق أبحاثهم . فجمعوا المعلومات حول الديانات المتواجدة بين مختلف الجماعات والقبائل ، وحصروا كل تقليد ذى علاقة بالدين فى أى مكان .

ونتيجةُ هذا الأسلوب من البحث والدراسة تحول « الدين » إلى « ظاهرة اجتماعية » ، وبدأوا ينظرون اليه بأنه يتكون بفعل الأساطير والتقاليد والأحوال الاجتماعية . فالدين ، الذى كان فى واقع الأمر أمرا إلهيا ، أصبح عرفا إنسانيا بسبب منهج البحث الذى سار عليه علم الإنسان .

وأكبر الأضرار الناجمة عن هذا المنهج أن الدين فقد مصداقيته فى العصر الحاضر ، وتحول إلى شيء مهمل . وكان الدين – باعتباره أمرا إلهيا – يتمتع فى حد ذاته بالمصداقية التى تدعو إلى الإيمان به على أساس الاعتقاد المسبق بأن كل مايصدر عنه يطابق الواقع ، ويجب الاعتراف بصحته . وخلافا لذلك لو أُعتبر الدين « ظاهرة اجتماعية » فحسب ، فسيفقد مصداقيته ، ويصبح أمرا وضعته تقاليد مجموعة من البشر الجاهلين ، وليس نابعا من الذات الإلهية التى تحيط بعلمها كافة الأمور . ولم يكن ذلك إلا كمن يُسقِط من درجة علم الكيمياء الجديد الى درجة علم الكيمياء القديم ، وأن يعتبر علم الفلك مرادفا لعلم التنجيم .

والواقع أن هذا الأسلوب لدراسة « الدين » خاطيء تماما ، لأنه يحول جزءا حقيقيا إلى جزء غير حقيقى ، ويهبط بأمر إلهى إلى مستوى أمر بشرى .

ولفهم حقيقة الدين ينبغى التمعن فى الآية القرآنية التالية :

﴿ أفغير دين الله يغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعاً وكرها وإليه يرجعون ﴾[1] .

---

(١) آل عمران : ٨٣

هذه الاية تقرر أن الدين هو دين الله الجارى فى جميع أنحاء الكون بالفعل . فالله تعالى يحب أن يلتزم الإنسان بنفس الدين (أو القانون) الذى فرضه على بقية الكون . وهذا القانون الكونى هو ما سمى بالدين .

قانون التوازن

إن الدين (أو القانون الإلهى) الذى نفذه الله فى بقية الكون يعبر القرآن عنه بـ« الميزان » :

﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألاّ تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾[1]

فالكون ليس شيئا واحدا بل هو مجموع عدة أشياء . وكافة الأشياء التى تحتويها هذه المجموعة متحركة غير ثابتة ، وذلك ابتداءً من الذرة إلى النظام الشمسى والمجرات . . وكان لابد من تحديد دائرة عمل كل واحد منها ، وإقامة التوازن والمواءمة بينها بدقة ، ليقوم كل جزء بأداء وظيفته على الوجه الأكمل . وقد أودع الله توازنا دقيقا فى كافة الأشياء لدى خلقها ، وهذا ما يسمى بـ« قانون الطبيعة » .

والعالَم الإنسانى ، كذلك ، مجموعة أفراد كثيرين . كل فرد فيه يتحرك . ويتطلب هذا الوضع تعيين حدود كل شخص ، وإقامة التوازن بين مختلف الأفراد ، الذى يضمن لكل فرد أن يستكمل ذاته بدون أن يثير مشكلة للاخرين ، وأن يواصل سيره بدون أن يحدث صداما غير ضرورى مع الآخرين .

هذا هو قانون التوازن الذى تم الكشف عنه للإنسان عن طريق الأنبياء . وقد جاء فى القرآن :

---

(١) الرحمن : ٧ – ٩ .

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . . ﴾[1] .

ويعنى هذا أن الله تعالى أنزل بواسطة رسله ميزانا مكتوبا ، ووفر كافة الأدلة فى صالحه ، ليؤمن الناس بصدقه وأحقيته ، ويصوغوا حياتهم على أساس ذلك الميزان (أى قانون العدل الإلهى) . إن قانون التوازن الخاص ببقية الكائنات مودع فى داخلها ، بينما هذا القانون فى متناول الإنسان فى صورة كتاب يتمتع بوجود خارجى .

أضرار الانحراف عن القانون الإلهى

إن الانحراف عن ميزان الله (قانون العدل الإلهى) هو عين الفساد . ولذلك يؤكد القرآن على الإنسان ألا يمس التوازن الذى أقامه الله تعالى فى هذه الأرض عن طريق قوانينه الإصلاحية ، وإلا ظهر الفساد فى الأرض : **﴿ .. ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها . . ﴾**[2]

والمسافة بين الأرض والشمس مثال التوزان الكونى . فالأرض تقع على بعد تسعين مليون ميل عن الشمس . هذه المسافة تم تحديدها بتوازن دقيق . ويمكن تقدير أهميتها أنه لو تم إنقاص هذه المسافة الى النصف ، أى لو أصبحت الشمس على بعد ٤٥ مليون ميل من كرتنا الأرضية لتضاعفت درجة الحرارة على وجه الأرض ولاحترقت كافة الموجودات ولانعدمت إمكانات الحياة على سطحها .

والأمر كذلك بالنسبة لحجم الكرة الأرضية . إن قطرها فى الوقت الحالى يبلغ خمسة وعشرين ألف ميل تقريبا . ولو تناقص هذا القطر بمقدار النصف ، لانتقصت قوة جاذبيتها ، لدرجة أن وقوفنا على سطح الأرض سيصبح مستحيلا . ومن ناحية أخرى لو اتسع حجم الكرة الأرضية بمقدار الضعف – أى لو أصبح

---

(١) الحديد : ٢٥

(٢) الأعراف : ٨٥ .

حجمها خمسين ألف ميل – لتضاعفت قوة الجاذبية لدرجة أن نمو كافة الأشياء النامية سيتوقف ، ولتحول البشر إلى حجم الفئران ، ولصارت الفئران كالنمل .

ومن الأمثلة الغريبة على التوازن البديع القائم على وجه الأرض تلك الكائنات الصغيرة التى تسمى بالحشرات ، فهى على عكس الإنسان لا تملك الرئة وهى تتنفس عن طريق القنوات الداخلية التى لا تواكب نمو أجساد هذه الحشرات . ولأجل هذا لا تنمو حشرة ما أكثر من بوصات عديدة ، ولم توجد حشرة بأحجام كبيرة لهذا السبب . وبفضل هذا النظام أمكن الحيلولة دون انتشار الحشرات وسيادتها على العالم . ولو لم يكن هناك هذا المانع الطبيعى لاستحال بقاء الإنسان على وجه الأرض فى وجه زحف الحشرات الكبرى من كل الأنواع . ولنتصور إنسانا يقاوم زنبورا بحجم الأسد أو عنكبوتا ضخما ![١] .

والبعض يعترض على هذا النظام الكونى . . . فيقول مؤلف غربى : ما الحاجة إلى قوة الجاذبية الزائدة عن الحاجة على وجه الأرض ، ليصعب على الإنسان نقل عشر كيلوغرامات من الوزن بيديه . ولو كانت للأرض قوة جاذبية أقل لأمكن لنا حمل عشر كيلوغرامات من الوزن والسير به بدون أدنى صعوبة . إلا أن هذا الاعتراض لا يدل إلا على بلاهة صاحبه . فالواقع أن بيوتنا تقف صلبة على وجه الأرض كالصخر بفعل قوة الجاذبية هذه التى لو انتقصت لتطايرت المبانى كبيوت مصنوعة من ورق ، ولا ستحال قيام الحضارة على وجه الأرض .

ومن حسن حظ البشر أنهم لا يملكون القدرة على التحكم فى هذا النظام الكونى ، وإلا لقام أحد الأشخاص بإنقاص قوة جاذبية الأرض ليستحيل استقرار الجنس البشرى عليها ، ولقام آخر ليعدّل من المسافة ما بين الأرض والشمس لتنجم عنه برودة تبلغ إلى حد الصقيع على الكرة الأرضية ، أو ترتفع درجة حرارتها الى مايشبه الفرن . وكذلك لو ادعى أحد أن نظام قناة التنفس الحالى لدى الحشرات هو ظلم فى حق هذه المخلوقات ، لذلك ينبغى تنمية هذه القنوات

---

(١) Alexis Carrel, Op.cit., pp 79-80.

التنفسية مع نمو أجسام الحشرات ، فماذا كان وضع الكرة الأرضية بعد ذلك ؟ لامتلأت الأرض بحشرات هائلة كالجواميس والأفيال .

لم يتمكن الإنسان من إحداث مثل هذه التغييرات فى النظام الكونى لعجزه عن إشاعة مثل هذه الفوضى فى بقية الكون . اما لأنه يملك حرية التصرف فى عالمه البشرى فقد عاث فى الأرض فسادا حتى ظهر الوضع الذى يعبر عنه القرآن بقوله : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس** ﴾[1] .

قضية العلاقة بين الرجل والمرأة

ولنأخذ هنا قضية العلاقة بين الرجل والمرأة . لقد وضعت العلاقة بين الرجل والمرأة فى القانون الإلهى عملا بمبدأ توزيع ميادين العمل ، أى أن يقوم الرجل بإنجاز الأعمال المتعلقة بخارج البيت ، وأن تتولى المرأة شئون البيت الداخلية . وحين يقول القرآن : ﴿ **الرجال قوامون على النساء . .** ﴾[2] فليس معنى ذلك أن يحكم الرجال على النساء ، وإنما تقرر هذه الآية القرآنية أنه فى إطار نظام الأسرة يتحمل الرجل مسئوليات كافة الأمور التى تتطلب الكفاءات المبدعة ، كالكسب والدفاع عن الأسرة وإدارة الشئون الخارجية وتولى مسئولية حكم المجتمع . وتم تكليف الرجل بقيام هذه الأعمال ؛ لأنه يلائم الوضع الطبيعى الذى يتمتع به . إن كلمة « قوّام » تبين الحكمة الإلهية فى توزيع العمل ، وهى لا تحدد أولوية جنس على الآخر .

وفى مقابل هذا تتطلب إدارة النظام الداخلى للبيت كفاءات انفعالية ، وهى ماتتمتع به المرأة بقدر أكبر ، فأنيطت بها المسئوليات المتعلقة بشئون البيت الداخلية .

وقد تواصل نظام الحياة البشرى آلاف السنين على أساس هذا التوزيع لعمل

---

(١) الروم : ٤١

(٢) النساء : ٣٤

الجنسين . وبدأ هذا النظام يتفكك لأول مرة بسبب الأوضاع الناتجة عن الثورة الصناعية فى أوروبا .

وكان التكسب يقتصر فى العصور الغابرة على الصيد والزراعة والرحلات التجارية فى البر والبحر . وبما أن الرجل كان أقدر على القيام بمثل هذه الأعمال الشاقة لأجل كسب العيش ، فكان لابد – من الناحية العملية – من أن يقوم هو بإنجازها ، وأن تتولى المرأة الشئون الداخلية للبيت .

واستحدثت الثورة الصناعية فى أوروبا أعمالا جديدة كثيرة بوسع المرأة القيام بها بطريقة أو بأخرى . وبما أن نظام الحجاب لم يكن معمولا به فى أوروبا فأخذت النساء يتسلمن مواقع العمل فى المكاتب والمصانع . وبدأ الوضع الناجم عن الاعتماد على الرجل وحده دون المرأة ، لأجل كسب العيش ، يتلاشى تدريجيا . وبوصول المرأة إلى مرحلة الاكتفاء الذاتى فى مجال كسب العيش جاءتها فكرة الخروج عن دائرة نفوذ الرجال ، وتكوين حياة حرة ومستقلة . هكذا نشأت الحركة التى عرفت فيما بعد بحركة تحرر المرأة . وبسبب ارتباط هذه الحركة بالثورة الصناعية نجدها تظهر لأول مرة فى الأقطار الأوروبية التى شهدت الثورة الصناعية . وظهرت حركة تحرر المرأة أول ما ظهرت فى إنجلترا . وأول كتاب مهم عن هذه الحركة صدر فى لندن بعنوان : **تبرير عن حقوق المرأة** من تأليف مارى ولستون كرافت كما سبق . ولم تبدأ حركة تحرر المرأة فى القارة الأمريكية إلا متأخرة أى فى القرن التاسع عشر ، لأنها شهدت الثورة الصناعية فى وقت متأخر . وظلت حركة تحرر المرأة تتقدم إلى الأمام مع تقدم الثورة الصناعية ، حتى وصلت كمالها فى القرن العشرين .

وتتلخص دعاوى المنادين بتحرر المرأة فى أن التباين بين المرأة والرجل فى المجتمعات القديمة لم يكن ناتجا عن عوامل طبيعية ، بل ان هذه العوامل كانت نابعة من ظروف المجتمع . وتدعى هذه الحركة أنه بوسع المرأة إنجاز جميع الأعمال التى يقوم ، أو يمكن أن يقوم بها الرجل ، إلا أن الأوضاع الاجتماعية القديمة لم تفسح المجال أمام المرأة لإبراز شخصيتها ، وأنه يمكن لها أن تعمل جنبا الى جنب الرجل لو أزيلت هذه الضغوط الاجتماعية ، وهى لن تبقى متخلفة عن الرجل .

وقد مضى على بدء هذه الحركة أكثر من قرنين ، وهى قد نجحت فى تحقيق أهدافها فى الدول « المتقدمة » حيث تم القضاء على الأحوال الاجتماعية التى كانت تعرقل – فى نظر المنادين بتحرر المرأة – حصولها على وضع اجتماعى مماثل للرجل . فقد وضعت تشريعات لتحقيق المساواة بين الرجل والمرأة فى جميع دول العالم . ولم تبق هناك أية عقبات – قانونية أو عرفية – تحول دون انطلاقة المرأة . ومع ذلك ظلت المرأة متخلفة عن الرجل ، ولم تحقق المساواة مع الرجل فى أى مجال . وفيما يلى خلاصة ما قالته دائرة المعارف البريطانية[1] عن وضع المرأة فى المجتمع الحديث :

تتركز النساء العاملات خارج بيوتهن فى وظائف ذات أقل المرتبات ، وأدنى المراتب . وتحصل النساء على مرتبات أقل من الرجال حتى لو كن يقمن بنفس أعمالهم . وكان مرتب النساء المتوسط فى الولايات المتحدة يبلغ ٦٠ فى المائة من مرتبات الرجال سنة ١٩٨٢ . ويصل هذا المتوسط فى اليابان إلى ٥٥ فى المائة من مرتبات الرجال . أما من الناحية السياسية فالنساء محرومات بشدة من التمثيل فى الحكومات الوطنية والمحلية وفى الأحزاب السياسية .

لقد زالت اليوم جميع القيود الاجتماعية القديمة ، وسن قانون المساواة بين الرجل والمرأة فى كل دول العالم . وبالرغم من ذلك تعانى المرأة الحديثة بوضع أدنى إزاء الرجل ، وهى لم تحصل على درجة مساوية للرجل فى أى من مجالات الحياة . وتوضح هذه الحالة أن تباين وضع المرأة عن الرجل لم يكن بسبب تلك العوامل التى تذرع بها دعاة تحرر المرأة ، لأنه لو كانت تلك هى الأسباب الحقيقية لحصلت المرأة على المساواة الكاملة مع الرجل فى منتصف القرن العشرين ، وذلك ما لم يتحقق حتى الآن . . وهذا يحتم البحث عن سبب آخر . .

وقد اكتشف العلم الحديث هذا السبب الآخر . وهو أن الفروق بين الجنسين ليست ناتجة عن عوامل اجتماعية ، وإنما بسبب تباينهما فى التكوين الاحيائى

---

(١) ١٠ /٧٣٢ .

(البيولوجى) حتى فيما قبل الولادة . فالأسباب الحقيقية تكمن فى التكوين البيولوجى ، وليست فى الأحوال الاجتماعية . وقد أجريت بحوث علمية كثيرة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وهى تقرر بحزم أن هناك فروقا جوهرية من الناحية البيولوجية بين الجنسين . وسيبقى التباين فى وضعهما الاجتماعى ما بقيت هذه الفروق البيولوجية .

عوامل التباين بين الرجل والمرأة .

بقيت المرأة تابعة للرجل فى جميع عهود التاريخ . ومازال هذا الوضع قائما حتى فى الدول الغربية المتقدمة . ويدعى أنصار تحرر المرأة أن هذا التباين ليس بسبب طبيعى وإنما يعود إلى الأوضاع الاجتماعية التى أفرزت فروقا بصورة اصطناعية ، إلا أن الأبحاث التى أجريت أخيرا تبطل هذا الزعم . .

يؤكد الباحث الأمريكى ستيفن غولدبرغ Steven Goldberg فى كتابه **حتمية النظام الأبوى** **The Inevitability Of Patriarchy** المنشور سنة ١٩٧٧ على أن تباين الرجل عن المرأة فى المجتمع ليس بسبب ضغوط اجتماعية فى واقع الأمر ، بل الفروق الطبيعية الأساسية بين الجنسين هى الأسباب الحقيقية . وقد تعرض هذا الباحث إلى سبّ وشتم من قبل دعاة حركة تحرر المرأة بالولايات المتحدة ، ومن الأوصاف التى خلعت عليه « الخنزير الفاشى » ، و« المرء السادى » .

وفى مقابلة مع مندوب صحيفة **ديلى إكسبريس** اللندنية بعد صدور كتابه قال غولد برغ : « إن السيدات المناصرات لحركة مساواة المرأة يبغضننى ، ولكننى على يقين بأن سيادة الذكر بصفة عامة فى كافة المجتمعات لم تكن وليدة الظروف الاجتماعية فحسب » .

والأسلوب الأقرب إلى الواقع لتعليل هذا التباين هو اعتباره نتيجة طبيعية لهورمونات الذكورة التى تؤثر على الجنين الذكر وهو لا يزال فى رحم الأم .

ولذلك نجد أن صغار الذكور يميلون إلى العنف أكثر من صغيرات الإناث . ويظهر هذا التباين حتى قبل أن تؤثر فيهم العوامل الاجتماعية . إن قضية أنصار مساواة المرأة ليست مقنعة تماما من الناحية العلمية البحتة . فلو كانت سيادة الرجل ترجع إلى الظروف الاجتماعية بدل المزايا التكوينية الطبيعية لتكوين مجتمع بشرى فى مكان أو زمان ما فى العالم تتمتع فيه المرأة بالسيادة . وذلك ما لم يسبق حدوثه فى أى عصر من عصور التاريخ . ولم يحدث هذا حتى فى المجتمعات الاشتراكية التى تعتبر نفسها فى طليعة المنادين بالمساواة بين الجنسين . ويشير غولدبرغ إلى أنه لا توجد سيدة واحدة بين ٦٢ وزيرا فى مجلس الوزراء السوفييتى الواسع النفوذ (سنة ١٩٧٧) . وهو ينقل عن الدكتورة مارغريت ميد (باحثة علم الإنسان التى قضت جلّ حياتها فى دراسة المجتمعات البشرية ، وكانت على صلة وثيقة بحركة تحرر المرأة) قولها : « إن كافة الادعاءات عن وجود مجتمعات كانت تتمتع المرأة فيها بالسيادة باطلة ، ولا أساس لها من الصحة . ففى كل عهود التاريخ كان الرجل يتمتع بالسيادة فى الشئون العامة ، وكان يمتلك السلطة المطلقة للبت فى شئون البيت » .

ويعقب الأستاذ غولدبرغ قائلا : هذا لا يعنى أن الرجل أفضل من المرأة ، بل إنه يعنى فقط أن الرجل يختلف عن المرأة . إن مخ الرجل يؤدى وظيفته بأسلوب يختلف عن أسلوب مخ المرأة . وقد لوحظ هذا التباين من خلال تجارب أجريت فى المختبرات على الذكور والإناث من الفئران بحقنها بمادة تيستوستيرون Testoterone المسئولة عن تكوين خصائص مخ الطفل الذكر . ويمكن استثناء بعض النساء من هذه القاعدة ، ولكنهن أقلية صغيرة لا يحسب لها حساب . وخلاصة القول فى رأى الأستاذ غولدبرغ ان الرجل والمرأة يختلفان بعضهما عن بعض منذ كونهما أجنّةً فى بطون الأمهات ، وهما مختلفان حتى فى أسلوب استخدامهما لقواهما العقلية . وهذا التباين ينجم عن نوعية الفروق البيولوجية (الحياتية) وليس بسبب الأحوال الاجتماعية[1] .

---

(١) ملخص تحقيق صحفى نشرته جريدة ديلى إيكسبريس اللندنية بتاريخ ٤ يوليو ١٩٧٧ .

ويعقب الدكتور اليكسيس كاريل (١٨٧٣ - ١٩٤٤) الحائز على جائزة نوبل ، الذى قام ببحث هذه القضية فى ضوء علم الأحياء بدقة وشمول ، بعد سرد التفاصيل العلمية :

الفروق التى توجد بين الرجل والمرأة لا ترجع فقط إلى الاختلاف فى هيئة الأعضاء التناسلية ، ووجود الرحم ، وعوارض الحمل ، أو أسلوب التعليم ، بل هى تعود إلى طبيعة أكثر أساسية . فالتباين بينهما ناتج عن تكون الأنسجة نفسها ، وعن تشرب النظام الجسمانى كله بمواد كيماوية معينة تخرج من المبيض . وقد أدى الجهل بهذه الحقائق الأساسية بأنصار حركة تحرر المرأة إلى الاعتقاد بضرورة التماثل فى التعليم ، والسلطة ، والمسئولية بين الجنسين ، مع أن الحقيقة هى أن المرأة تختلف عن الرجل اختلافا عميقا . فكل خلية من خلاياها تحمل بصمات الأنوثة . ونفس الأمر ينطبق على أعضاء جسدها أيضا ، بل وفوق ذلك ينطبق هذا الأمر على نظامها العصبى نفسه . إن القوانين الفسيولوجية (أى الخاصة بوظائف الأعضاء) صلبة كالقوانين التى تتحكم فى حركة النجوم . ولا يمكن تبديلها برغبات البشر ، فعلينا أن نقبلها كما هى . وينبغى على النساء تنمية قدراتهن انسجاما مع الإطار الذى وفرته لهن الطبيعة بدون محاولة تقليد الرجال . إن مساهمتهن فى تقدم الحضارة البشرية أكبر بكثير من الرجال ، وينبغى ألا يتخلين عن أدوارهن المتميزة[١] .

ويقول الكاتب والصحفى الهندى المعروف خوشوانت سينغ :

---

(١) Alexis Carrel, OP. cit., p. 91 .

إننى من أشد المؤيدين لمنح النساء فرصا متساوية ، إلا أننى تراودنى الشكوك باستمرار إزاء قدرتهن الإبداعية . ما السبب وراء ظهور عدد قليل من الكاتبات والشاعرات والملحنات والرسامات المتفوقات ؟ لماذا تحتل المرأة دائما المرتبة الثانية فى مقابل الرجل حتى فى المهن التى تعتبر من اختصاصات المرأة كالطهى وتصميم الأزياء . وعلى سبيل المثال : كل أشهر الطهاة ومصممى الأزياء هم من الرجال . لقد كنت أقبل حتى الآن بوجهة نظر علماء الاجتماع بأن التقاليد الاجتماعية والبيئة تشكلان عقبة فى سبيل تقدم المرأة ، إلا أن التعليل الاجتماعى لم يقنعنى تماما . ومازلت أعتقد أن هناك عوامل أخرى ، غير البيئة وانعدام الفرص ، تلعب دورها فى تحقيق تخلف النساء عن الرجال .

والدكتور آيزنك ، الذى اخترع امتحان اختبار الذكاء البشرى وأعرب عن رأية بأن سلالات السود والسمر أقل ذكاءً من البيض ، قد أعلن مؤخرا بأن هذا ينطبق على المرأة أيضا . فجيناتهن مسئولة عن تكوينهن . والأنوثة فى رأية تتحدد وتتقرر منذ فترة الحمل تماما كما يبرمج العقل الآلى . وخلافا لادعاءات علماء الاجتماع ليست التقاليد ، أو البيئة هى التى تدفع الطفلة إلى اللعب بالعرائس بينما أخوها يمدّ يده إلى دمية الجندى ، بل الأمر يعود إلى تكوينها البيولوجى .

وحتى عندما يكون الجنين داخل الرحم فإن تجويف حوض الأنثى يكون أكبر من تجويف حوض الذكر . وكلما كان تجويف الحوض أكبر كانت أنوثة صاحبها أكبر فى رأى البروفيسور آيزنك . والرجال ذوو تجويف أكبر للحوض يميلون إلى الأنوثة والسلبية وحتى إلى الشذوذ الجنسى ، أما الإناث ذوات تجويف أصغر للحوض فيملن الى الرجولة والنزعة العدوانية وحتى الى

الشذوذ الجنسى . ومقارنة هذا الأمر بملاحظة عيّنات متفرقة من معارفك سيؤكد لك بعض نظريات البروفيسور آيزنك . وقد سبق للبروفيسور أن استعدى مؤيدى المساواة العنصرية ، والآن خرجت عليه النسوة اللواتى ينادين بحرية المرأة[1] .

المرأة المضطهدة

الحضارة الحديثة – من خلال سعيها للمساواة بين الذكر والأنثى – قد أوقعت المرأة فى حالة دائمة من عدم المساواة . وتحتل المرأة درجة أدنى من الرجال فى كافة مواقع الحياة التى تعمل بها فى الغرب . وهى ، بالإضافة إلى هذا ، تقوم بدفع الثمن المضاعف لعدم مساواتها من خلال تعرضها لاعتداءات الرجل فى كل مكان . وفيما يلى تقرير عن أوضاع المرأة الأمريكية العاملة :

إنها كالتجارب التى تمر بها المرء فى أتوبيسات دهلى . فهى تتمثل فى إيماءات داعرة ، ولغة جارحة ، واعتداءات جسدية . هكذا هى مواقع العمل الأمريكية بالنسبة للنساء العاملات ، تماما كما تكون وسائل النقل العام بالنسبة إلى المرأة فى العاصمة الهندية . وقد عانت ميشيل فينسون ، العاملة بأحد البنوك ، من الاعتداءات الجسدية ومحاولة الاعتداء الجنسى على يد سدنى تايلور نائب رئيس البنك . واستمر الأمر لأربع سنوات إلى أن قرعت هذه المرأة باب المحكمة بمساعدة إحدى المنظمات النسائية . ورفضت المحكمة الابتدائية قضيتها قائلة : إنها ظلت ساكنة لأربع سنوات ولم تلجأ إلى استخدام الأسلوب المقرر لرفع الشكاوى فى البنك . وقالت المحكمة : إن العلاقة بين الشخصين كانت طوعية . أما المحكمة العالية فرفضت كل ما توصلت إليه المحكمة الابتدائية . ثم وصلت القضية إلى المحكمة العليا .

---

(١) Illustrated Weekly Of India, April 2, 1978 .

وقالت المحكمة العليا للولايات المتحدة فى حكمها بأن المضايقة الجنسية اعتداء مباشر على حق المرأة فى العمل ، فهى تؤدى إلى ظهور بيئة معادية واستغلالية حيث تضطر المرأة الى ترك الوظيفة أو هى لا تتمكن من القيام بوظيفتها بكامل طاقاتها . وقالت المحكمة انه – وإن لم يكن مثل هذه المطالبات الجنسية غير المطلوبة ذا علاقة مباشرة بمنافع الوظيفة – إلا أنه يخرق القوانين المدنية الأمريكية ضد التمييز الجنسى فى مواقع العمل .

وقالت المنظمات النسائية الكثيرة ، التى شاركت فى هذه القضية باعتبارها « صديقة المحكمة » ، فى تقريرها للمحكمة : إن المضايقة الجنسية للمرأة العاملة مرض مستوطن . وأضاف التقرير قائلا : إن نحو نصف الأمريكيات العاملات قد تعرضن إلى هذا النوع من المضايقة فى مواقع العمل خلال السنوات الخمس الماضية .

وهذا لا يحدث فقط للمرأة فى المصانع أو فى مواقع عمل الكادحين ، بل يقع كذلك فى المكاتب الأمريكية بالمبانى الشاهقة ، فالجو هنا ليس لطيفا للنساء العاملات كأمينات مكاتب وموظفات استقبال ومحاميات وغيرهن من المهنيات ، على عكس ما يظهر من هذا الجو المكيف والسجاجيد الفاخرة والديكور اللطيف . ونحو ٤٢ فى المائة من العاملات فى مكاتب الحكومة الفدرالية يتعرضن للمضايقة فى مواقع أعمالهن طبقا لتقرير لجنة لتقصى الحقائق التى أنشأها مجلس حماية الكفاءات الرسمية Official Merits Protecion Board وقال ستون فى المائة من عضوات الاتحاد الأمريكى لموظفى الدولة والأرياف والبلديات : إن المضايقة الجنسية مشكلة معتادة بالنسبة إليهن . وكانت

الشكاوى حول هذا النوع من المضايقة قد وصلت إلى ٧٠ فى المائة من مجموع الشكاوى خلال سنوات ١٩٨١ - ١٩٨٥ طبقا لأرقام لجنة مساواة الفرص فى الوظائف التى أنشئت لمراقبة الممارسات الوظيفية .

وتتنوع هذه الشكاوى ، من العنف الجسدى - كالاغتصاب والاعتداء - إلى المضايقات الخفية كالدفع ، واللمس ، والمطالب الجنسية المستمرة ، والتعليقات الجنسية الجارحة ، والحديث المستمر عن الانتقام الجنسى واللغة الفظّة .

ويقوم المتعدى بحركاته عموما بسرعة ، وبعيدا عن أنظار الشهود ، وهو يثق عموما بأن الخوف والشعور بالحرج ، وحتى بالضعف أحيانا ، سيحمل الضحية على عدم رفع الشكوى . وحتى عندما تتقدم الضحية بالشكوى فبإمكان المعتدى أن يلجأ إلى كل أنواع الدفاع التى يمكنه اللجوء إليها فى مثل هذا المجال الغامض من الاتجاهات الاجتماعية . وعندما يكون من الصعب للغاية لضحية الاغتصاب أن تثبت الاعتداء الذى تعرضت له ، يمكننا أن نتخيل الصعوبة التى يواجهها ضحايا أنواع أقل درامية من العنف فى إثبات قضاياها .

ولو كان المعتدى رئيس الضحية ، فى مثل هذه الحالات ، فستجد المرأة التى تقاوم مثل هذه الاعتداءات أو تشكو ضدها أنها قد أعطيت أعباء أكبر فى العمل . وستجد أن التقارير السرية لتقييم عملها مليئة بملاحظات جارحة ، كما أنها ستتلقى توبيخات لا داعى لها ، وستواجه عداء سافرا . والغالبية تفضل ترك العمل على اللجوء الى المحاكم . وعندما يبدو أنه ليس بإمكان الضحية أن تختار أيا من هذين البديلين فهى تستسلم بصمت[1] .

---

(١) جريدة إنديان إكسبريس ، عدد ٣ أغسطس ١٩٨٦ .

وتعانى النساء الأمريكيات العاملات من هذه الأوضاع السيئة رغم التشريعات القاضية بالتساوى بين الرجل والمرأة . وهناك قوانين بعدم التعرض للنساء العاملات ، ومع ذلك تبقى المرأة مضطهَدة فى المكاتب الأمريكية . ومشكلتها تكمن فى أن سبق لها أن هجرت زوجها وأبويها ، وإلى أين تتجه إذا تخلت عن مكتبها الذى تعمل فيه . ولخلت المكاتب الغربية من النساء العاملات لو لم تكن لديهن هذه المشكلة .

إن أوضاع المرأة العاملة فى المكاتب الغربية ليست وليدة مصادفة ، ولا يمكن القضاء عليها بأى تشريع . فالوضع أكثر تعقيدا من أن يحل بإجراءات قانونية . فلو تم إدخال العصفورة والثور ، لأجل تحقيق المساواة بينهما ، إلى حلبة المصارعة وديست العصفورة تحت حوافر الثور ، فكيف يمكن رفع هذا « الظلم » عن طريق القانون ؟ وهل يمكن وضع قانون بألا تصاب العصفورة بأى أذى فى حالة اصطدامها مع الثور ؟

والواقع أن القدرة الإلهية هى التى جعلت من الرجل جنسا يتمتع بالقوة ، والمرأة جنسا يتصف بالنعومة ، وذلك بسبب نوعية الأعمال التى شاءت القدرة الإلهية أن يقوم كل منهما بإنجازها . وإدخال أى تعديل فى إطار توزيع الأعمال بينهما يعتبر إجراءً مضادا للطبيعة . ولا يمكن حلّ المشكلات الناجمة عنه إلا بالعودة الى الوضع الطبيعى . ولن تنتهى هذه المصاعب ما دام الوضع المناوىء للطبيعة قائما .

إن مكان الزهور المناسب والمرموق هى المزهرية ، وهى تذبل وتضيع لو ديست تحت قدم الطاولة . وهذا يماثل حالة الرجل والمرأة تماما . فوضع المرأة كالأخت والزوجة والأم فى البيت يوفر لها الكرامة . ولكنها ستواجه نفس المصير الذى لقيته المرأة الغربية لو دُفِع بها إلى خارج البيت لتقف « جنبا الى جنب » الرجل . إن كون المرأة الجنس الناعم داخل البيت يجعلها ملكة البيت . أما كونها الجنس الناعم خارج البيت فيعرضها للاضطهاد وسوء المعاملة .

لعنة الإيدز

ما يعرف الآن بمرض الايدز هو أحدث مثال على النتائج الوخيمة التى تتمخض عنها الأعمال المضادة للفطرة . إن مرض الايدز هو العقاب الإلهى لانتهاك قانون الفطرة . وقد ثبت أن العادات السيئة ، وخصوصا الشذوذ الجنسى ، من الأسباب الرئيسية لانتشار هذا المرض . وتقول تقارير طبية ان أكثر فئات البشر تعرضا لمخاطر عدوى مرض الايدز هم المصابون بالشذوذ الجنسى من الرجال والنساء ، والذين يتناولون المخدرات عن طريق الحقن فى العضلات ، والنازعون إلى الانحلال الجنسى بصورة عامة . وتؤكد الحقائق على أن هذا المرض يتفشى بين المصابين بالشذوذ الجنسى .

وكلمة « ايدز Aids » اختصار للحروف الأولى من Acquired Immune Deficiency Syndrome ومعناها « نقص المناعة المكتسَبة » ، وهو من الأمراض المعدية الغربية . وخطورة انتشاره تتبع الملاريا مباشرة . ويقال : إن نصف الوفيات فى التاريخ البشرى كله كانت نتيجة انتشار وباء الملاريا . ولعل ظهور مرض الايدز فى العصر الحاضر أخطر فى بعض النواحى من الملاريا .

ويتسلل فيروس هذا المرض إلى جسد الإنسان دون أن يشعر به أول الأمر ، أو حتى بدون أن يدرى أنه أصيب بمرض خطير . وهو يقضى قضاءً كليا على نظام مقاومة الأمراض فى الجسد الإنسانى . ولم يكتشف ، بعد أى علاج لهذا المرض الذى يجرى مجرى الدم ، وينتشر فى كل أنحاء الجسد .

ويمكن وصف وضع الشخص المصاب بمرض الايدز كجسد خاوٍ من الداخل . فلو أصيب بجرح لا يندمل ، ولو أصابته حمى لا يجديه أى دواء ، حتى الحقن تفقد مفعولها ، ودمه لا يستجيب لأى نوع من أنواع المعالجة أو التغذية . ويفقد المريض وزنه باستمرار إلى أن يصاب بالهزال الشديد ، كما يفقد شهيته لتناول الطعام ، وهو يشعر بآلام شديدة فى المفاصل ، ولا يقدر على القيام بأى عمل ، ويعيش طوال الوقت كئيبا وحزينا .

لقد أصبح المصابون بمرض الايدز منبوذين فى مجتمعاتهم . . فهداياهم لا تقبل بسبب المخاوف عن وجود فيروسات هذا المرض الخطير فيها . وتتهرب منهم بنات الهوى وعمال الفنادق خلال رحلاتهم السياحية ، ويتخلى عنهم الأصدقاء والصديقات . .

وقد أصدرت وزارة الصحة الأمريكية أوامر مشددة إلى الأطباء للفحص الدقيق لزجاجات الدم من مصارف الدم الأمريكية قبل إعطائها للمرضى . وجاء هذا الأمر بعد اكتشاف أن آلافا من الأمريكيين التقطوا عدوى « الايدز » لدى إسعافهم خلال العمليات الجراحية بكميات الدم من مصارف الدم الأمريكية . وفى عامى ١٩٨٥ – ١٩٨٦ ارتفع عدد هذا النوع من المصابين بمرض الايدز فى أمريكا إلى ٥٠ ألف شخص . . ولم يتعرض هؤلاء لهذا المرض مباشرة ، بل التقطوا العدوى بسبب الاتصال بمرضى الايدز .

وطبقا لأرقام سنة ١٩٨٦ ، قد تفشى فى الولايات المتحدة مرض الايدز الخطير وأمراض أخرى متفرعة عنه على نطاق أوسع بكثير مما نراه فى البيانات الرسمية . وجاء فى تقرير نشرته صحيفة **وول ستريت جورنال** الأمريكية أن عدد الأمريكيين المصابين بالايدز بلغ آنذاك حوالى ٢١ ألفا ، ونصفهم لا أمل فى شفائهم . وهناك ما بين مائة ألف ومائتى ألف يعانون من حالات مرضية ناجمة عن مختلف الأمراض المتفرعة عن الايدز ، ومن بين هذه الأمراض **Lymphadenovathy, Thrombocytopemia, Condidiasis, Hairy Leukoplakia, Hodgkins** والإسهال والحمى والجنون وأمراض عصبية[1] .

وطبقا لخبراء شاركوا فى مؤتمر حول الايدز بباريس فى أواخر يونيو ١٩٨٦ ستكون هناك ثلثمائة ألف حالة جديدة للإصابة بالايدز سنة ١٩٩١ وحدها لو انتشر الفيروس فى أنحاء العالم على غرار انتشاره فى الولايات المتحدة . وتقول التقديرات : إن الولايات المتحدة ستشهد ٧٤،٠٠٠ حالة جديدة فى السنة

---

(١) **تايمز أوف إنديا** ، ١ يونيو ١٩٨٦ . (ولم نترجم أسماء بعض الأمراض لعدم وجود مرادف دقيق لها حسب علمنا – المترجم) .

نفسها . وقد قدروا أنه بمجيء تلك السنة سيكون ربع مليون أمريكى قد أصيبوا بهذا وأن ١٧٩,٠٠٠ من المصابين سيكونون قد ماتوا . ومن المتوقع أن تكاليف علاج مرضى الايدز بالمستشفيات الأمريكية ستبلغ ثمانية بلايين دولار سنة ١٩٩١ . وتعتبر فرنسا فى الوقت الحالى أسوأ بلد أوروبى تأثرا بمرض الايدز فقد تم اكتشاف ٧٠٠ حالة للإصابة بالايدز خلال الربع الأول من سنة ١٩٨٦ . وتأتى بعدها ألمانيا الغربية حيث أصيب ٤٥٧ شخصا ثم بريطانيا التى أصيب بها ٣٤٠ شخصا ، ثم إيطاليا حيث بلغت الإصابة ٢١٩ شخصا فى المدة نفسها[١] .

أما كيف يصاب المرء بمرض الايدز ؟ فقد أظهرت الأبحاث أنه يرجع إلى الانحلال الجنسى عامة ، والشذوذ الجنسى بصفة خاصة ، والذى يعم فى الوقت الحاضر بين الشباب « المتحرر » فى الغرب ، حتى أصبحوا يمارسون الشذوذ الجنسى علانية . وقد عوقبوا على هذا العمل غير الطبيعى بإصابتهم بمرض خطير أدى إلى نشوء التنافر فيما بينهم .

ومن نتائج هذه الأبحاث أيضا أن هناك نوعا من القرود فى الغابات الإفريقية يعرف بـ« القرد الأخضر « Green Monkey يصاب بمرض شبيه بمرض الايدز . وهذا النوع من القرود وحده من بين سائر الحيوانات يمارس الشذوذ الجنسى تماما كالجيل الجديد « المتحرر » فى الغرب الذى أصيب هو الآخر بمرض يطلق عليه الطب الحديث اسم « الايدز » . ولعل الله جل وعلا أبقى على سلالة القرد الأخضر ؛ ليكون درسا وعبرة للإنسان ؛ ليردعه عن ممارسة الشذوذ الجنسى ، إلا أن تحرر الإنسان اللامحدود حال دون أن يتعلم منه أى درس .

والايدز يكتسح سان فرانسيسكو التى تعرف الآن بعاصمة الشذوذ الجنسى فى العالم وذلك طبقا لإحصائيات طبية أمريكية . ويتضح من الحالات الخمسمائة والعشرين الجديدة للإصابة بالايدز ، التى سجلت فى النصف الأول من سنة ١٩٨٦ بهذه المدينة ، أن اثنين من ثلاثة من المصابين (أى ٦٧ فى المائة) حالات

---

(١) المصدر السابق ، ٥ يوليو ١٩٨٦ .

فتاكة بينما كانت الإصابات الفتاكة تبلغ ٥٨ فى المائة فى السنة الماضية[1] .

ومنذ أن تبين أن السبب الأساسى للايدز يرجع إلى الشذوذ الجنسى بدأ الشباب المنحرف من الجنسين يتهرب من ممارسة هذا الفعل الشنيع كفراره من الطاعون . والمناطق التى كانت تعج فيما مضى بالشواذ أصبحت مقفرة الآن .

وتقول دائرة المعارف البريطانية فى مقالها عن الشذوذ الجنسى : إن هذا العمل الفاضح كان معروفا فى الدول الغربية منذ زمن بعيد ، إلا أن الدراسة العلمية حول الشذوذ لم تبدأ إلا بعد الحرب العالمية الثانية . وقام البروفيسور كينزى A.C. Kinsey بجمع الإحصاءات فى الولايات المتحدة للفترة ما بين ١٩٤٨ - ١٩٥٣ . وتشير بحوثه إلى أن ٣٧ فى المائة من الرجال و ١٣ فى المائة من النساء قاموا بممارسة الشذوذ الجنسى خلال هذه الفترة . وتوجد أوضاع مماثلة فى الدول الغربية الأخرى[2] .

ولا توجد فى الدول الغربية تشريعات تحرم الشذوذ الجنسى إلا إذا كان الطرف الثانى قاصرا أو تعرض للاعتداء . وفيما مضى كان يطلق فى الغرب على الشاذ جنسيا وصف « سدومى »[3] أى « اللوطى » . أما الآن فقد اخترعوا له وصف Gay أى « المرح » أو المبتهج . فالعمل الفاضح الذى تعرض من أجله قوم لوط للعقاب الإلهى أصبح يعرف الآن بأنه نوع من أنواع « المرح » والابتهاج !

لقد أصبح الشذوذ الجنسى مسموحا به قانونا فى بريطانيا منذ عام ١٩٦٧م . ثم ارتقوا إلى درجة اعتباره مؤسسة مشروعة كالزواج . وقد أعطت الدنمارك للشاذين والشاذات جنسيا نفس حقوق الوراثة التى يتمتع بها المتزوجون

---

(١) المصدر السابق ، ٤ يوليو ١٩٨٦ .

(٢) للاطلاع على تفاصيل أخرى من نتائج الأبحاث الطبية حول مرض الايدز راجع مجلة تايم الأمريكية ، عدد ٣ نوفمبر ١٩٨٦ .

(٣) نسبة إلى بلدة « سدوم » فى فلسطين القديمة ، التى عرف أهلها بحبهم للواط والرذيلة (المراجع) .

والمتزوجات قانونا . وقد وافق البرلمان الدنماركي في أواخر مايو ١٩٨٦ على إعطاء حقوق الوراثة للشاذين والشاذات جنسيا الذين يقيمون الدليل على أنهم يعيشون معا[1] .

والشذوذ الجنسي من المساوىء التي نجمت عن شيوع فكرة « التحرر » المطلق في العصر الحاضر . وكان العرف السائد منذ قديم الزمان يتطلب عقد الزواج بين رجل وامرأة لأجل إقامة العلاقات الجنسية الشرعية بينهما . وفي العصر الحاضر فقدت رابطة الزواج أهميتها في الغرب في بداية الأمر ، ثم أدى التحرر إلى القول بأن الجنس ينبغي ألا يقتصر على العلاقة مع الجنس الآخر ، وإنما بوسع الذكر أن يمارس الجنس مع مثيله والأنثى مع مثيلتها . وأصبح الشذوذ الجنسي يوصف بـ« التفضيل الجنسي » Sex Preference. إلا أن النتائج قد أثبتت بسرعة أن الانحراف عن الطبيعة يؤدي إلى الفساد دائما . والواقع أنه لا مناص للبشر في هذا العالم من اتباع نظام الفطرة والطبيعة ، الذي جاء به الأنبياء ، وأي انحراف عن هذا الطريق لن ينقذ الإنسان من مصيره الأسود المحتوم .

وقد دفع الغرب ثمنا مضاعفا لانحرافه عن طريق الفطرة . فقد دُفِع بالمرأة – وهي الجنس الناعم – الى الحلول محل الجنس الخشن – أي الرجل – وبالتالي حُطَّ من قيمتها وأهميتها بصورة دائمة . وقد حصلت المرأة في الولايات المتحدة على « المساواة الكاملة » مع الرجل من ناحية القانون ، إلا أن هذه المساواة القانونية النظرية لم ترتق ، بعد ، إلى درجة المساواة العملية الحقيقية . وعلى حد تعبير إيلين غودمان Ellen Goodman : « مازالت المرأة الأمريكية تتطلع الى الوصول الى درجة المساواة مع الرجل الأمريكي »[2] .

وما قالته الباحثة الأمريكية الدكتورة لويز مونتغومري Louise F. Montgomery عن وضع المرأة في مجال الصحافة في الولايات المتحدة ينطبق

---

(١) تايمز أوف إنديا ، ١ يونيو ١٩٨٦ .

(٢) مجلة تايم الأمريكية ، عدد ٦ يوليو ١٩٧٨ ص٤٥ .

تماما على أوضاعها فى جميع مجالات الحياة : « لاتزال المرأة الأمريكية فى المستويات الدنيا من المناصب القيادية فى الصحف الأمريكية . والقادة الذين يؤثرون الأمريكيين حتى فى مجال أخبار التليفزيون هم من الرجال »[1] .

والخسارة الفادحة الأخرى التى منيت بها الدول المتقدمة فى قضية المرأة – من جراء انحرافها عن طريق الفطرة – هى أن المجتمع كله أصيب بآفة الانحلال الجنسى مما نجمت عنه مشكلات لا حصر لها .

* * *

(١) جريدة هندوستان تايمز (دهلى الجديدة) ، ٢٣ أغسطس ١٩٨٦ .

المرأة والمجتمع

المرأة فى المجتمعات القديمة

يمكن وصف أوضاع المرأة فى كافة مجتمعات العالم القديم بأنها كانت تتمتع بمرتبة أدنى من الرجل . وتقول **دائرة المعارف البريطانية**[1] :

> كان وضع المرأة [فى أثينا] قد تدهور لدرجة أنها أصبحت بمثابة أمَةٍ تلد الأولاد لسيدها . وكان يتم حجر الزوجات داخل بيوتهن ولم يكن يحصلن على قدر من التعليم ، كما لم تكن لهن أية حقوق ، ولم يكن أزواجهن يعتبرونهن أفضل من أثاث البيت .

وتمضى **دائرة المعارف البريطانية** تقول :

> كان الوضع القانونى للمرأة فى روما القديمة هو وضع المحكومية الكاملة للرجل ، فكانت خاضعة أولا لسلطة أبيها أو أخيها ، ثم لسلطة زوجها الذى كان يتمتع بسلطات الأبوة عليها . وكان القانون يعتبر المرأة معتوهة .

ولم تبادر المسيحية إلى اتخاذ أية خطوة لتحسين أوضاع المرأة . فعلى كل المستويات ، وحتى فى مجال الواجبات الدينية ، عوملت المرأة على أساس أنها كائن أدنى . ويقول بولس الرسول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس : « لهذا ينبغى للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها ، من أجل الملائكة »[2] .

والدافع وراء إساءة التصرف مع المرأة فى قديم الزمان هو عين الدافع إلى سوء المعاملة مع الإنسان القديم ، أى المعتقدات الخرافية . فالإنسان فى العصر القديم اختلفت معتقدات لا عقلانية فى كل مجال من مجالات الحياة . وهذه المعتقدات

---

(١) ١٩ /٩٠٩ .

(٢) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ، الأصحاح ١١ ، الفقرة ١٠ .

الباطلة اتخذت أشكال « الديانات » لدى الإنسان فى العصور القديمة ، وأشاعت الفوضى والفساد فى كافة الأعمال البشرية . وعلى سبيل المثال : نشأت لدى قدماء اليونان فكرة غريبة عن المرأة تقول : بأن عدد أسنانها أقل من أسنان الرجل . وقد هزأ برتراند راسل بهذه الفكرة قائلا : « كان أرسطو يظن أن عدد أسنان المرأة أقل من أسنان الرجل . وقد تزوج مرتين دون أن يخطر بباله أن يقوم بفحص فم أى من الزوجتين ليتأكد من صحة ادعائه »[١] .

وكذلك تبنت المسيحية معتقدا خاطئا يقول : إن المرأة مسئولة عن إخراج آدم من الجنة . وكما تقول **دائرة المعارف البريطانية** : « الديانة المسيحية تنظر إلى المرأة كمُغْوِية ، ومسئولة عن خروج آدم من الجنة ، وكائن بشرى من الدرجة الثانية »[٢] .

مكانة المرأة فى الإسلام

كانوا يعتقدون فى العالم القديم ، نتيجة الأوهام والإيمان بالخرافات ، أن المرأة أدنى من الرجل . ومما تعرضت له المرأة نتيجة هذه الفكرة حرمانها من الوراثة . فلم تكن تحصل على نصيبها من ممتلكات العائلة . وقد جدد الإسلام ، لأول مرة فى التاريخ البشرى ، حقها المعلوم فى الميراث . ويقول ج .م . روبرتز :

> كان مجيء الإسلام ثورة من نواح متعددة ، فقد أبقى على المرأة فى وضع أدنى ولكنه أعطاها الحقوق القانونية فى الممتلكات ، وهى الحقوق التى لم تحصل عليها المرأة فى كثير من البلاد الأوروبية حتى القرن التاسع عشر . وكانت هناك حقوق حتى للعبيد . ولم يكن فى مجتمع المؤمنين طوائف اجتماعية ولا مكانات موروثة . وكانت هذ الثورة نابعة من دين ، كدين اليهود ، لم يكن يميز بين مختلف

---

(١) Bertrand Russell, The Impact Of Science On Society, 1976, p. 17.

(٢) ١٩ /٩٠٩ .

جوانب الحياة بل كان يحتضنها كلها »[1] .

وأكد القاضى راجندراساشار رئيس المحكمة العليا السابق بدلهى على هذا الشيء فى معرض انتقاده لوضع المرأة فى الحضارة الهندية القديمة حين قال :

> إنه من الناحية التاريخية كان الإسلام متحررا جدا وتقدميا فى إعطاء المرأة حقوق الملكية . والحقيقة هى أنه لم يكن للمرأة الهندوسية من حقوق فى الملكية حتى سنة ١٩٥٦ حين ووفق على مشروع قانون الأحوال الشخصية الهندوسية ، بينما أعطى الإسلام هذه الحقوق للمرأة المسلمة قبل ١٤٠٠ سنة[2] .

هذه ليست قضية مَنْ سَبَقَ الآخر . . بل الحقيقة هى أن الإسلام هو أول من فتح الطريق أمام المرأة ؛ لتنال حقوقها كاملة . فلم تكن غالبية المجتمعات القديمة تمنح المرأة أية حقوق محدودة . ومن أبرز جوانب الثورة التى قام بها الإسلام فى التاريخ البشرى حصول المرأة على درجة المساواة وتعيين حقوقها بدقة .

ولم يكن الإسلام مجرد فكرة فلسفية ، بل قام بفتح أغلب أجزاء المعمورة انذاك وحكمها . وظلت حضارة الإسلام هى السائدة فى العالم على مدى ألف سنة تالية . وقد أثّر هذا فى كافة المجتمعات مما أدى إلى إعادة النظر فى حقوق المرأة فى جميع أنحاء العالم ، وتم الاعتراف على وجه العموم بضرورة منح المرأة حقوقها كالرجل تماما . وحتى الباحثون المعاصرون ، الذين يشيدون بمزايا الإسلام برحابة صدر ، يرددون أن المرأة تحظى بمرتبة أدنى من الرجل فى الإسلام . إلا أن هذا الادعاء ينفي نفسه بنفسه . فمنذ العهد القديم إلى العصر الحاضر أُعتبرت الوراثة من أهم القضايا الاجتماعية . وربما كانت قضية الوراثة مقياسا لتحديد مراتب الأفراد فى أي مجتمع . فإقرار الإسلام بإشراك المرأة فى وراثة العقارات

---

(١) J.M. Roberts, The Pelican History Of The World (Now York 1984) p. 334.

(٢) جريدة **ستيتسمان** (دلهى الجديدة) ٢٦ أبريل ١٩٨٦ .

والممتلكات ، رغم العرف السائد آنذاك ، يدل بوضوح على أنه لا يتوخى منح المرأة مرتبة أدنى . . لأنه لو كانت المرأة تحظى بمرتبة أدنى فى الإسلام لحُرِمت من نصيبها فى الميراث طبقا لما كان يعتقد آنذاك أنه الصواب .

والعقل الغربى أعاد نفس الخطأ الذى ارتكبه الإنسان القديم فى هذا الصدد ، أى التوصل إلى رأى ما بدون بحث وتدقيق . فكان الإنسان القديم يؤمن بمعتقدات لا عقلانية أنتجت أوضاعا عملية فاسدة بالنسبة إلى المرأة . كذلك الغرب الحديث يتبنى آراء زائفة أساءت إلى قضية المرأة .

المرأة فى الحضارة الحديثة

يتلخص لب مشكلة الإنسان الغربى الجديد فى أنه اتخذ من فكر « المساواة » بين الرجل والمرأة عقيدة بدون أساس . وهو يرى فى ضوء هذه العقيدة أنه يجب أن تقف المرأة جنبا إلى جنب الرجل فى كل مواقع الحياة وشُعَبِها . وبما أن الإسلام يحدد للمرأة والرجل مجالات عمل مختلفة فافترض الإنسان الغربى أن الإسلام قد حط من وضع المرأة . وعلى العكس من هذا ، ينادى الغرب بإعطاء المرأة مكانة متساوية مع الرجل فى كل شعب الحياة . وبناءً على هذا أقام الإنسان الغربى رأيا بأنه قد أعطى للمرأة مركزا أرفع مما أعطاه الإسلام .

ولكن الوضع العملى يختلف عن هذا تماما ، فالمرأة فى المجتمع الغربى « المتقدم جدا » تحظى ، من ناحية ، بوضع عملى مماثل لوضعها فى المجتمع القديم . فمازال التمييز قائما فى توزيع الأعمال بين الرجل والمرأة فى الغرب ، ومجالات عمل المرأة تختلف عن مجالات عمل الرجل حتى فى الغرب . وسنقدم فى الفصل القادم شرحا وافيا لعدم تمتع المرأة بالمساواة الشاملة – من الناحية العملية – مع الرجل فى أى مجال من مجالات الحياة فى الغرب . وهكذا فإن دعاوى المفكرين الغربيين فى هذا الصدد لا تعدو أن تكون مجرد فكرة غير عملية .

لقد جاء الإسلام قبل ١٤ قرنا بحركة لـ « تحرير المرأة » تهدف إلى تخليصها

من أسر القيود المصطنعة ، وتمكينها من الحصول على الوضع الذى تستحقه فى حقيقة الأمر (وعلى سبيل المثال : إقرار حق وراثتها فى العقارات والممتلكات كبقية العائلة) . وقد رفعت هذه الحركة الإسلامية لتحرير المرأة من شأن الأنثى دون أن تخلق للمجتمع مشكلة جديدة . ولم تتجاوز تجربة الإسلام هذه حدودها الفطرية لأنها أجريت على ضوء الوحى الإلهى . وفى مقابل ذلك لم تلتزم تجربة الغرب الحديث حدودها لأنها تمت على ضوء العقل البشرى وحده (أو بالأحرى بدافع العاطفة) ، فخلقت مشكلات اجتماعية عديدة .

مساواة غير طبيعية

زعم المستشرق البريطانى إدوارد وليام لين فى ترجمته لمعانى أجزاء مختارة من القرآن الكريم – كما سبق أن أشرنا اليه – أن الجانب « المهلك » للإسلام يتمثل فى انتقاصه من قيمة المرأة . وقد رددوا هذا الرأى مرارا منذئذ . ولا يردده ألد أعداء الإسلام وحدهم ، بل وحتى باحثون غربيون يتسمون بالاعتدال لدى تناولهم قضايا الإسلام – من أمثال ج .م . روبرتز – يشيرون اليه كحقيقة لا تقبل الجدال .

وقد أوضحنا فى مناسبات عديدة فى هذا الكتاب ، أن هذا الاتهام لا أساس له من الصحة على الإطلاق . فالواقع هو أن الإسلام – خلافا لهذا الاتهام تماما – قد رفع من شأن المرأة ومكانتها . والأقرب إلى الصواب أن نقول : إن هناك حضارتين فقط فى التاريخ البشرى قامتا بالانتقاص من قيمة المرأة وهما : حضارة الشرك القديمة ، والحضارة الإلحادية الحديثة . وقد انتقصت الحضارة الأولى من قيمة المرأة من الناحيتين النظرية والعملية معا ، بينما انتقصتها الحضارة الثانية من الناحية العملية وحدها .

وكانت حضارة الشرك القديمة قائمة على الأساطير والخرافات ، واختلقت آراء لا أساس لها من الصحة حول مختلف الأشياء والظواهر ... ثم أخضعت كافة

شئون الحياة لتلك الأوهام . وتوهم الإنسان القديم عظمة بعض الأشياء (كالشمس والقمر مثلًا) ، فبدأ يتعبدها . كما توهم « تفاهة » أشياء أخرى فأخذ يزدرى بها . وكانت المرأة ضمن هذه القائمة للأشياء « التافهة » . . لقد اعتمدوا على الأوهام فى تفسير بعض ظواهر المرأة وخصائصها مثل العادة الشهرية لديها وعدم تمكنها من المشاركة فى الحروب ، فقالوا : إن المرأة عنصر « حقير » ، وبالتالى ينبغى أن تعامل أدنى من الرجل .

وقد أعلنت الحضارة الغربية الحديثة - فى ظاهر الأمر - إعلاء شأن المرأة نظريا ، وقالت : إن المرأة والرجل يتمتعان بأوضاع مماثلة ، وأنه بوسع المرأة إنجاز كل عمل يقوم به الرجل ، وبالتالى يجب على المرأة أن تخرج من بيتها لتحتل مكانتها بجانب الرجل فى كل مواقع الحياة . ومن الشعارات التى أطلقها دعاة هذه الفكرة : « أيتها المرأة : لا تصنعى القهوة بل اصنعى القرارات » .

ونظرة الحضارة الحديثة هذه تجاه المرأة تبدو فى ظاهرها وكأنها ترفع من شأن المرأة ، بينما الحقيقة هى أنها - من الناحية العملية - قد انتقصت من قيمتها . والواقع أنه بالرغم من دعاوى « المساواة » الخلابة فإن المرأة الغربية تتمتع بدرجة أدنى من الرجل فى جميع شعب الحياة الحديثة ، كما سنوضحه فى الفصل القادم .

ولكن ما السبب فى ذلك ؟ يتمثل السبب باختصار فى فكرة « المساواة » الخاطئة . فالمساواة بين الرجال حقيقة لا جدال حولها . ولكن هذه الفكرة ستفقد معناها تماما لو أخذناها على أنها تعنى أن بإمكان كل رجل أن يقوم بما يقوم به غيره من الرجال فى كل مجال .

وماذا ستكون النتيجة لو كان مفهوم المساواة بين الرجال لدى بعض الناس أن من حق كل رجل أن يقوم بالعمل فى كل مجال ؟ فالدعاة الى هذا النوع من « المساواة » غير الطبيعية سيدفعون أينشتين[1] إلى نادٍ للملاكمة ، وسيطلبون منه

---

(١) أينشتين (م . ١٩٥٥) هو عالم الفيزياء والرياضيات الأمريكى الذى وضع نظرية « النسبية » (المراجع) .

مشاركة الملاكمين فى « عملهم » . . مثل هذه « المساواة » لن ينجم عنها إلا عدم المساواة . وأينشتين الذى يتصدر فى عالم العلم والمعرفة سيبدو لاعبا حقيرا فى حلبة الملاكمة .

وهذا يدل على أن « المساواة » لا تعنى المساواة فى الأعمال والوظائف وإنما فى الأوضاع ، والمساواة فى نظر القانون . فالمساواة بين البشر لا تعنى أن يقوم أى شخص بأداء أى عمل ووظيفة يقوم بها آخرون ، بل هى تعنى فقط أن يعامل كل فرد بالتقدير ، والاحترام ، والمعاملة على قدم المساواة مع غيره من البشر .

والخطأ الذى ارتكبه الغرب فى قضية الرجل والمرأة هو أنه حاول إقامة « المساواة » غير الطبيعية الآنفة الذكر بين الجنسين ، مما نتج عنه حتما ظهور أبرز عدم مساواة بين الرجل والمرأة على مدى التاريخ البشرى كله .

الرجل والمرأة جنسان منفصلان ، خُلِقا لأجل إنجاز أهداف منفصلة . وسيحقق كل منهما نجاحا مماثلا فى مجاله لو اقتصر نشاطهما على ما خلقا من أجله . أما لو جرى توجيه الرجل والمرأة إلى مجال عمل واحد ، فلن يكون بوسع المرأة أن تؤدى على المستوى المطلوب ذلك العمل الذى يقوم به الرجل باستخدام قدراته الفطرية التكوينية ، وبذلك تتحول المرأة إلى جنس أدنى .

لنفهم هذا من مثال . . فتاة تهرب من بيتها بعد سوء تفاهم مع أهلها وتصل إلى مدينة أخرى . لقد كانت تعتقد أن بإمكانها أن تكسب كالرجال وتبدأ حياة مستقلة جديدة . ولكنها لا تتمكن من الحصول على أية وظيفة فى مجالات العمل الخاصة بالرجال ، وهى لا تملك بعد ذلك إلا أنوثتها ، لتجعلها سلعة معروضة للبيع . لقد فازت بحياة مستقلة ، ولكن على حساب شرفها ، وتحويل نفسها إلى متعة ووسيلة ترف للآخرين ، وليس باحتلال مكانها فى المجتمع « على قدم المساواة » مع الرجل .

وهذا هو الوضع الصعب الذى تعانى منه المرأة الغربية على نطاق أوسع . لقد غرس الغرب فى نسائه فكرة الخروج من البيت وكسب العيش كالرجال . ولكن

المرأة الغربية أدركت بعد مغادرتها البيت أنها لن تحصل على ثمنها الحقيقى بالعمل كالرجل فى مواقع العمل الموجودة . فلا يبقى أمامها أى بديل لكسب العيش ، والفوز بحياة مستقلة إلا بيع شرفها . وهكذا كثيرا ما تضطر إلى أن تجعل من جسدها سلعة معروضة للبيع بعد خروجها من بيتها ، كالفتاة الهاربة الآنفة الذكر . وبهذا العمل غير الطبيعى ، واللاأخلاق لا تتمكن المرأة من الوصول إلى درجة « المساواة » المزعومة ، بل تتسبب فى خلق مشكلات جديدة لا حصر لها . ومن بينها مشكلة الإثارة الجنسية (من خلال الملابس والسلوك والأدب والفن) ، وهى ليست مشكلة مستقلة بذاتها ، بل هى على صلة وثيقة ونتيجة طبيعية للتحرر اللامحدود .

الإثارة الجنسية

والإثارة الجنسية Pornography ، كما تقول دائرة المعارف البريطانية[1] ، تعنى « عرض السلوك المثير جنسيا من خلال الكتب والصور أو الأفلام بهدف الإثارة الجنسية » . والمواد المثيرة للجنس تتعرض للتحريم القانونى فى معظم بلاد العالم على أساسٍ واحدٍ من الافتراضين التاليين : أولا : الإثارة الجنسية ستفسد أخلاق الشباب أو كبار السن والشباب معا . وثانيا : استخدام أشياء كهذه ستؤدى إلى جرائم جنسية .

وأصدرت لجنة حكومية تقريرا يربط بين الجرائم الجنسية والمواد المثيرة للجنس . وأوصى المحامى العام الأمريكى فى تقريره سنة ١٩٨٦ حول عمل هذه اللجنة باتخاذ تدابير قانونية فى غاية الشدّة وعلى نطاق لم يسبق له مثيل ضد تجارة مواد الإثارة الجنسية التى بلغت مكاسبها فى الولايات المتحدة ثمانية بلايين دولار فى السنة »[2] .

---

(١) ٨ /١٢٧

(٢) جريدة تايمز أوف إنديا (دلهى الجديدة) ١١ يوليو ١٩٨٦ .

وكما جاء فى تقرير لصحيفة **إنترناسيونال هيرالد تريبيون**[1] الأمريكية عن أعمال وتوصيات هذه اللجنة والنتائج التى توصلت اليها :

> فإن معظم المواد الجنسية المثيرة التى تباع فى الولايات المتحدة ، هى مضرة من حيث الإمكان ويمكنها أن تؤدى إلى العنف . وأوصت هذه اللجنة التى أنشأها المحامى العام الأمريكى فى تقريرها النهائى بوجوب العمل ضد صناعة المواد المثيرة جنسيا ، وفرض عقوبات رادعة للمخالفين للقوانين التى تحرم الخلاعة .

ومن النتائج التى توصلت اليها اللجنة أن الإثارة الجنسية ذات علاقة بالعنف الجنسى والإكراه الجنسى والعدوان الجنسى غير المطلوب .

ونتائج اللجنة تختلف عن نتائج اللجنة الرئاسية لسنة ١٩٧٠ التى كانت قد توصلت إلى أنه ليست هناك من علاقة بين الإثارة الجنسية والعنف أو غيره من أنماط السلوك المعادى للمجتمع . أما اللجنة الأخيرة ، التى تكونت من ١١ عضوا والتى أنشأها المحامى العام إدوين ميز ، فقالت إنه ينبغى تصنيف معظم مواد الإثارة الجنسية الموجودة فى الولايات المتحدة بأنها تنتقص من قيمة المرأة .

وقال تقرير اللجنة :

> لقد توصلنا إلى نتيجة بالإجماع ، وبكل ثقة ، بأن الدلائل المتاحة تؤيد بشدة الافتراض القائل بأن التعرض الكافى للمواد الجنسية العنيفة ، كما وُصِف هنا ، ذو علاقة بالأعمال المعادية للمجتمع كالعنف الجنسى ، كما أنه يثير بعض المجموعات على ارتكاب أفعال غير قانونية مثل العنف الجنسى .

وتوصلت اللجنة كذلك إلى أن هناك علاقة بين صناعة الإثارة الجنسية والجريمة المنظمة . ومما قالته اللجنة فى هذا الصدد :

---

(١) المصدر السابق ، عدد ٢٣ مايو ١٩٨٦ .

يبدو أن هناك دليلا قويا على أن أجزاء كبيرة من صناعة مجلات الإثارة الجنسية ، وصناعة عروض التعرى ، وصناعة أفلام الإثارة الجنسية يديرها مباشرة أعضاء عصابة لا كوزانوسترا La Cosa Nostra ، أو هى تجرى تحت إشرافهم ، أو على أيدى أتباعهم[1] .

عواقب التحرر

دفع المرأة إلى خارج البيت ، واختلاط الرجل والمرأة بحرية ، وشيوع الخلاعة يؤدى - كنتيجة طبيعية - إلى إشعال الغرائز الجسدية . ولذلك نرى أن الغرب الحديث يشهد التهاب الغريزة الجنسية على نطاق واسع ، لدرجة أن مؤسسة الزواج لم تعد تكفى لإشباع هذه الغرائز المثارة مما أدى إلى تنامى وبروز فكرة إقامة علاقات جنسية حرة . وظهرت أدبيات جديدة تم ترويجها على نطاق واسع وهى تدعو إلى إقامة العلاقات الجنسية الحرة بين الرجل والمرأة على أنها طبيعية وبريئة كمصافحة الأصدقاء .

ونتج عن ذلك ابتعاد الناس عن الزواج باعتباره عبئا عليهم . وبدأ الشباب من الجنسين يعايشون كما يعيش زوجان ولكن بدون زواج وبدون عقد . . وأصبح وجود « زوجين غير متزوجين » مشروعا فى الغرب تماما كالزوجين المتزوجين .

وكانت الشريعة الإلهية قد أقامت التوازن بين الرجل والمرأة على أساس المبدأ القائل بأنهما يكملان بعضُهما البعَض ، وليس على أساس أن أحدهما بديل عن الآخر . ولكن حركة تحرر المرأة لم تأخذ بالمبدأ الأول ، بل زعمت أن كلا من الرجل والمرأة نسخة طبق الأصل عن الآخر أى أن المرأة هى الرجل وأن الرجل هو المرأة .

لقد لقيت هذه الفكرة قبولا واسعا فى العصر الحاضر ، حتى أخلّت بالتوازن

---

(١) المصدر السابق .

القائم بين الرجل والمرأة منذ مئات السنين . ومنى الجنس البشرى بسببها بأضرار جسيمة لا تحصى دون أن تحقق أية مكاسب .

وكانت أولى نتائج استقلال المرأة من الناحية الاقتصادية : ارتفاع نسبة الطلاق . ولقد أثبتت البحوث العلمية الحديثة حول المرأة أنها عاطفية أكثر من الرجل . ويمكنها أن تتخذ قرارات غير محمودة العواقب بفعل عوامل طارئة . وعدم استقلال المرأة اقتصاديا قبل الثورة الصناعية فى أوروبا كان يشكل كابحاً لعاطفيتها هذه . فكان السؤال الماثل أمامها باستمرار عند نشوء الخلافات الزوجية : « أين سأذهب بعد الطلاق » ؟ وكان هذا سببا كافيا لعدم وقوع الطلاق فى معظم الأحيان . إلا أن المرأة الحديثة لم تعد تقلقها هذه المخاوف . وتقول **دائرة المعارف البريطانية** :[1] « قد ارتفعت نسبة الطلاق بشكل مذهل فى الدول الغربية الصناعية ، بسبب استقلال النساء فى المجال الاقتصادى » . وقد وصلت نسبة الطلاق إلى درجة خطيرة فى الغرب الآن ، بحيث تنتهى خمسون فى المائة من الزيجات فى المدن الفرنسية إلى الطلاق . وفى كندا تبلغ هذه النسبة ٤٠ فى المائة ، كما تصل فى الولايات المتحدة إلى ٥٠ فى المائة .. فكل ست من بين عشر نسوة فى أمريكا قد مررن بتجربة الطلاق »[2] .

جرائم الأحداث

لقد دُفِعَ بالمرأة فى العصر الحاضر إلى خارج البيت بهدف إحلالها فى كل مواقع الحياة ، إلا أنها لم تحصل حقيقةً على وضع مماثل للرجل فى تلك المواقع ، بل تسببت فى ظهور مشكلات عويصة أخرى ، من بينها : قضية العلاقات الجنسية غير المشروعة . فاختلاط المرأة والرجل بحرية يؤدى الى نشوء علاقات جنسية غير مشروعة كنتيجة طبيعية لا يمكن الحيلولة دونها .

---

(١) ٣ /٥٨٦ .

(٢) The Plain Truth, Moy, 1987.

والعلاقة الجنسية غير المشروعة تبدو لأول وهلة أمرا بسيطا ، إلا أن هذا الأمر البسيط تظهر خطورته حين تؤدى هذه العلاقة غير الشرعية بين الرجل المرأة إلى ظهور كائن حيّ ثالث ، له عواقب خطيرة . وبالرغم من استخدام الشباب فى الدول الغربية وسائل منع الحمل على نطاق واسع ، إلا أن هناك ارتفاعا ملحوظا فى نسبة المواليد غير الشرعيين . وطبقا لتقرير رسمى صدر فى لندن عام ١٩٨٥ فإن مولودا واحدا من بين كل خمسة مواليد فى بريطانيا يولد نتيجة علاقات جنسية غير شرعية . وكل ثالث امرأة تحبل فى بريطانيا بدون زواج[١] .

وهؤلاء المواليد غير الشرعيين يستقبلون الحياة وهم يجهلون آباءهم وأمهاتهم . إنهم ينشأون فى حضانات ومؤسسات حكومية لينضموا فيما بعد إلى المجتمع كحيوانات محرومة من العواطف البشرية الرفيعة . وينشأ وضع مماثل نتيجة ارتفاع نسبة الطلاق فى الدول الغربية . لقد أصيبت مؤسسة الزواج بالوهن فى الغرب . ويحدث الطلاق بسبب أمور تافهة مما أدى إلى تضخم المشكلة التى تعرف بقضية « العائلات المشتتة » .

وعندما ينفصل الرجل والمرأة بعد الطلاق فهما يحرمان – فى الوقت ذاته – أولادهما من عاطفتى الأبوة والأمومة . وهؤلاء الأطفال ينشأون فى المجتمع كالبهائم ليظهر من بينهم كبار المجرمين .

وتقول **دائرة المعارف البريطانية** حول جرائم الأحداث : « من بين الأمراض الاجتماعية المذهلة التى نشأت فى القرن العشرين جرائم الأحداث . إنها ظاهرة عالمية رغم التباين فى نوعية ومعدل هذه الجرائم من بلد الى آخر »[٢] .

ومن الحقائق المعلومة أن الطفل الإنسانى أكثر المواليد ضعفا . وهو يحتاج إلى عطف ورعاية الأبوين أكثر من وليد أى كائن حى آخر ، إلا أن اتجاه الحضارة الغربية غير الطبيعى بشأن قضية المرأة أدى إلى حرمان كثيرين من الأطفال من

---

(١) جريدة تايمز أوف إنديا ، ١٧ مايو ١٩٨٦ .

(٢) ٢ /٩١٣ .

هذا النعيم الذى منحتهم القدرة الإلهية فى شكل حنان الأبوين . وسبب هذا الحرمان يختلف من حالة إلى أخرى : كممارسة الأم العمل فى المكاتب والمصانع طوال النهار ، تماما كما يمارسه الأب ، أو انفصال الأبوين بعد ولادة الطفل حيث يمضى كل فى سبيله ، أو أن الرجل والمرأة ، اللذين تقع عليهما مسئولية إنجاب الطفل ، مارسا العملية الجنسية بدون ارتباطهما برابطة الزواج ، وبدون أخذهما فى الاعتبار بمشروع إنجاب الطفل ومتطلبات رعايته بعد الولادة .

ويظهر مجرمون عتاة من صفوف هؤلاء الأطفال المحرومين من عطف الأبوين من أمثال شارلز شوبهراج ، وهو من أب هندى وأم أوروبية تزوجا وانفصلا بعد إنجابهما هذا الطفل الوحيد . لقد نشأ شوبهراج « وحبله على غاربه » - كما يقال - ولم يتلق حتى التعليم اللازم . وخطا بخطواته إلى عالم الجريمة . وارتكب جرائم السطو والاغتيال على نطاق دولى . وهو يقضى الآن مدة عقوبته فى السجن المركزى بدهلى باعتباره أحد أخطر المجرمين الدوليين .

لقد درسوا مشكلة جرائم الأحداث على نطاق واسع فى الغرب . ومن أبرز النتائج التى توصلت إليها هذه الدراسات أن جرائم الأحداث يرتكبها أطفال يعانون من التوتر العصبى والفكر السلبى بسبب حرمانهم من عطف الأبوين . وتقول **دائرة المعارف البريطانيا** : « إن أمثال هؤلاء الأطفال يصابون بالاضطراب النفسى مما يؤدى إلى ارتكابهم جرائم اجتماعية ».[1] ويشير تقرير نشرته **مجلة تايم** الأمريكية إلى أن ثلاثمائة طفل يقومون بقتل آبائهم أو أمهاتهم فى الولايات المتحدة سنويا[2] .

* * *

---

(١) ٥ /٢٧٣ .

(٢) عدد ١٩ أكتوبر ١٩٨٧ ، ص٦٠ .

المرأة الغربية

كانت مجلة تايم الأمريكية قد أصدرت فى ٢٠ مارس ١٩٧٢ ملحقا خاصا عن المرأة الأمريكية ، ساهم فى إعداده عشرون محررة من مختلف التخصصات من هيئة تحرير المجلة . ونلخص فيما يلى بعض أهم ما جاء فى هذه التقارير الصحفية المطولة :

لقد مضى مائة عام تقريبا على حركة تحديث المرأة الأمريكية . . ففى عام ١٨٩٨ كتب السائح الاسكتلندى موير هيد : « الرجل هنا هو الجنس المهيمن على المرأة بسبب قيامه بإنجاز كافة الأعمال الشاقة » . إلا أن أنصار الحركة النسائية الجديدة يقولون : إن من سخرية القدر أن الوضع الذى أشار إليه السائح الاسكتلندى قبل حوالى قرن مازال قائما ، فالمرأة هى وحدها التى لاتزال تتعرض للضغوط (ص١٥) .

والحركة المعاصرة للنساء الأمريكيات تعرف بالحركة « النسائية الجديدة » ، وهى تعبر عن حالة القلق وعدم الاستقرار التى تعانى منها المرأة الأمريكية فى الوقت الحاضر . والواقع أن المرأة الأمريكية المعاصرة ينبغى أن تعتبر نفسها أسعد حظا أكثر من أى وقت مضى . فقد فازت بقدر أكبر من التعليم ، وتنوع الأزياء ، ووسائل الرفاهية ، إلا أن هناك شوكة فى جنبها مازالت تقلقها . وهى تتمثل فى المسئوليات والأعباء العائلية . فالمرأة الأمريكية تتطلع إلى حياة بدون أطفال ، وبدون مطبخ ، وبدون تدخل الكنيسة . ومع أن هناك فئة لا يستهان بها تؤكد على تباين دور المرأة عن الرجل ، إلا أن غالبية النساء لا توافق على هذا الرأى . وقد أوحت الحركة النسائية الجديدة إلى أعداد كبيرة من الشابات فكرة العزوف عن الزواج واعتزال الحياة العائلية .

وفى استفتاء أجرته مجلة علم النفس اليوم Psychology Today الأمريكية أكد ٥١ فى المائة من الرجال على أن المجتمع الأمريكى يقوم باستغلال المرأة تماما كما يستغل السود . وتقول كلير بوث لوس – وهى زعيمة سياسية – إن المرأة

الأمريكية أخذت تعتقد أنها أحرزت نصرا نهائيا حين حصلت على حق التصويت والتعليم فى المدارس فى العشرينيات من هذا القرن . لقد خطت المرأة الأمريكية خطوات جريئة بالخروج من البيت ، واحتلال مواقع العمل ، إلا أنها لم تصل إلى تبوء أية مكانة هامة فى الحياة الأمريكية . فأين إذن تقف المرأة الأمريكية الآن ؟ تقول الأرقام: إن عدد العاملات قد ارتفع من لا شىء إلى ١٠٦ ملايين عاملة فى المجتمع الأمريكى ، وإن النساء يتمتعن بقوة ونفوذ أكثر من ذى قبل ، وهن يتولين أكثر من ثلثى الوظائف الحكومية . ولكن طبقا لدراسة أعدتها وزارة العمل الأمريكية فإن المرأة فى الولايات المتحدة تؤدى أعمالا تتطلب مهارة أقل ، وتتقاضى أجرا أقل بالنسبة إلى الرجل ، وهى لا تحصل على مرتب مساوٍ لمرتب الرجل عند توليها نفس وظائفه ، كما أنها تعامل كالسود عند تخفيض عدد العمال فى المصانع حيث تتعرض للطرد قبل كل الفئات . والسبب وراء هذا يكمن فى وهن مؤسسة الزواج وارتفاع نسبة الطلاق .

وكان الرئيس الأمريكى الأسبق ليندون جونسون قد أصدر أمرا سنة ١٩٦٤ بتعيين أكبر عدد من النساء فى الوظائف الحكومية . إلا أنه ، طبقا لإحصائيات عام ١٩٦٧ ، والتى أعدتها الإدارة الاتحادية للخدمات المدنية حول أوضاع المرأة العاملة فى الدوائر الرسمية ، لم تكن المرأة الأمريكية تتولى حتى عام ١٩٦٦ إلا ١ر٦ فى المائة من المناصب الحكومية العليا التى يبدأ مرتبها من ٢٨ ألف دولار سنويا . وكان الرئيس نيكسون قد تعهد بتشغيل أكبر عدد من النساء فى الدوائر الحكومية لدرجة أنه أنشأ قسما خاصا بتوظيف المرأة فى البيت الأبيض . إلا أن النساء فى واشنطن قلما يشغلن وظائف رفيعة . فلم تتولى رئاسةَ المحكمة العليا أيةُ امرأة قط . ولم تتمكن إلا امرأتان فقط طوال التاريخ الأمريكى من شغل مناصب وزارية . وهناك امرأة واحدة فقط عضوة بمجلس الشيوخ الأمريكى واحدى عشرة امرأة فقط عضوات بمجلس النواب . وتتميز ولاية نيويورك من بين الولايات الأمريكية بإنشائها وحدة استشارية لشئون المرأة بمكتب حاكم الولاية . وتصف رئيسة هذه الوحدة – وهى سيدة سوداء – بأن الوحدة لا

العمل ينبغى إقامة دور الحضانة لقاء أجر رمزى ، لمساعدة الراغبات فى العمل .

ويعرب المتطرفون من أنصار الحركة النسائية الجديدة عن تذمرهم من الوضع الراهن ، وهم ينادون بإجراء تعديل فى الأوضاع الجنسية ، ليتسنى للجنسين التحرر من أسر القيود والواجبات التقليدية . . وهم يقولون : إن الفكرة – القائلة بأن الرجل شخص يكسب العيش وأن المرأة تدبر شئون البيت – هى فكرة سخيفة وبالية ، وأنها تلحق الضرر بالجنسين معا . ويرى هؤلاء المتطرفون أن المجتمع وحده ليس عقبة فى سبيل تحقيق أهدافهم ، وإنما هناك الحدود البيولوجية التى تشكل أكبر العقبات . ولأجل ذلك يدعو البعض منهم إلى استخدام علم تحسين خواص الجنس البشرى **Eugenics** لأجل إدخال تعديلات فى شفرة الوراثة (المورِّثات /الجينات) لتؤدى إلى توالد نوع جديد من النساء والرجال[1] . وخلاصة القول ان المتطرفات من أنصار الحركة النسائية الجديدة يتطلعن إلى تحرر المرأة الشامل من قيود الرجل ، بما فيها العلاقات الجنسية . وعلى حد تعبير جيل جونستون : « تستهدف الحركة النسائية الجديدة تعميم السحاق » . ونجاح الحركة يتوقف على امتناع النساء عن التطلع الى الرجال لأجل إشباع رغباتهن الجنسية (ص٢٤) .

وليس كل نساء الولايات المتحدة يؤمن بمبادىء حركة تحرر المرأة . وقول جين سميث وهى زوجة طبيب يمثل نسبة كبيرة من النساء الأمريكيات : « المكان الصحيح للمرأة هو بيتها حيث تربى أولادها وتعتنى بهم ولو ملّت امرأة ما من أعمال البيت فهناك منظمات وأماكن كثيرة يمكنها أن تذهب إليها للترفيه عن نفسها » .

---

(١) يشير مقال نشر فى المجلة السوفييتية سبوتنيك (عدد أكتوبر ١٩٨٧) تحت عنوان : « هل يمكن للآباء أن يتحولوا إلى أمهات » ؟ ، إلى أن طبيبا ألمانيا تقدم بنظرية عن تغيير الجنس ، تدعو إلى استخراج رحم المرأة وزرعها فى بطن الرجل ، ليقوم هو أيضا بمهمة الإنجاب ، وبذلك يمكن إنهاء عدم المساواة التى فرضتها الطبيعة بين الجنسين !

وهناك منظمة نسائية فى الولايات المتحدة ، تتوزع فروعها فى ٤٦ ولاية ، ترفع الشعار الآتى : « أيتها المرأة لا تصنعى القهوة بل اصنعى القرارات » . وتهدف هذه الحركة إلى حمل النساء على الانخراط فى النشاط السياسى الشامل . ففى الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٦٠ فاز الرئيس جون كيندى بأغلبية أصوات النساء (ص٢٧) . ويبادر الزعماء السياسيون فى الولايات المتحدة بالاستجابة للمطالبات النسائية مثل دفع أجور موحدة الى الجنسين للقيام بأعمال مماثلة ، وحق الطلاق والإجهاض ، دور الحضانة لأطفال العاملات .

وفكرة تولى امرأة منصب رئاسة الجمهورية فى الولايات المتحدة ظلت تعتبر حتى الآن دعابة أكثر منها فكرة حقيقية وعملية . وكانت قرينة الرئيسى الأمريكى الأسبق روز فلت قد قالت فى عام ١٩٣٤ : « لم ندخل بعد مرحلة تقتنع فيها غالبية الشعب الأمريكى بتولى امرأة منصب الرئاسة » . فهل الناخبون فى الولايات المتحدة وصلوا الآن إلى هذه المرحلة ؟ ولعل الرد على هذا السؤال هو بالنفى . إنهم لن يوافقوا على تولى امرأة حتى منصب نائب الرئيس . وفى استطلاع أخير للرأى العام وافقت غالبية الشعب الأمريكى على اقتصار منصب الرئاسة على الرجل فقط . والاحتمال المثير لتولى امرأة منصب الرئيس أو نائب للرئيس لن يقع قبل عام ٢٠٠٠م . فالسيدة التى تعتزم الترشيح لأى من هذين المنصبين فى المستقبل ينبغى أن يكون قد سبق لها الاضطلاع بمهام رسمية عديدة ، لينطبع فى عقلية الرأى العام بأنها مؤهلة لتولى المسئولية والسلطة ، كما حدث بالنسبة لإنديرا غاندى وغولدا مائير . فالشخصية المرشحة للرئاسة يجب أن تكون معروفة على الصعيد السياسى ، ولا يكفى لها أن تنتمى الى الجنس الناعم .

وعامة الناخبين يطلبون فى المرأة المرشحة للرئاسة نفس الخواص التى يتصف بها الرجل المرشح للرئاسة ، مثل : الكفاءة والطموح والخبرة والثبات والذكاء . والفكرة الشائعة بأن المرأة تتمتع بكفاءة أقل تشكل عقبة كبرى فى سبيلها . وكان الرأى العام النسائى قد ثار حين أعلن الطبيب الجراح إيدغار برمار **Berman** سنة ١٩٧٠ أن التركيب الكيميائى لهورمونات النساء يجعلهن أكثر عاطفية مما لا

يؤهلهن لتولى مقاليد الحكم . والدكتورة بربوتش خبيرة بعلم الفلك إلا أنها تشكو من أنها لم تتبوأ المكان اللائق بها فى مجال البحث العلمى بسبب هيمنة الرجال عليه . وتصل نسبة النساء فى القوى العاملة فى أمريكا إلى ٤٠ فى المائة من مجموع العمالة . ولكن هناك عشرة فى المائة من النساء فقط بين ٣٥٠٫٠٠٠ خبير فى العلوم الطبيعية فى الولايات المتحدة . وعدد النساء الحائزات على الدكتوراة أقل بكثير من الرجال مما يحول دون وصولهن إلى أعلى المناصب فى مجال البحث العلمى . فهناك تسع نساء فقط بين ٨٠٠ عضو بالمجمع الوطنى للعلوم . وفى قائمة الحائزين على نوبل ، التى تضم أسماء ٢٧٨ عالما ، لن نعثر إلا على ستة أسماء فقط للنساء . وبالرغم من بعض التحول الذى طرأ أخيرا فى أسلوب التعامل مع المرأة إلا أن الوضع بشكل عام مازال قائما كما كان سابقا . فما زالت المرأة تكلف بتولى مناصب أقل أهمية فى مقابل الرجل .

هل النساء يختلفن عن الرجال بطريقة لا سبيل إلى تعديلها ؟ يؤمن أنصار تحرر المرأة بأن كافة الفروق ترجع الى عوامل اجتماعية ما عدا التباين فى التكوين الجسدى بين الجنسين . أما الذين لا يؤيدون حركة تحرر المرأة فيقولون : إن كل الفروق تكون كامنة فى الجينات (أى العوامل المورّثة) وبالتالى لا سبيل إلى تعديلها .

وقد لوحظ التباين الجنسى فى الجينات عن طريق حقائق ثلاثة : « عالمية الحضارة » على حد تعبير مارغريت ميد . ففى كافة المجتمعات فى العالم ، على وجه التقريب ، تعتبر الأم هى المسئولة عن تربية الأطفال ، كما أن تمتع الرجل بالسيادة حقيقة لا جدال حولها . ويعتقد بعض الباحثين فى مجال علم الإنسان أن المرأة كانت تتمتع بالسيادة فى مجتمعات وجدت على فترات مختلفة من التاريخ البشرى ، إلا أن باحثين آخرين يرفضون هذه الفكرة من أساسها .

والحقيقة الثانية هى أن الجنس الذكر يتمتع بالسيادة فى أغلب أنواع الحيوانات المتواجدة على وجه الأرض . فالذكر هو الذى يقوم بالدفاع عن الأنثى والصغار .

وتؤكد نتائج الأبحاث العلمية على أن هذا السلوك يصدر حتى عن أولئك الذكور من الحيوانات الذين تمت تربيتهم فى عزلة تامة بعد فصلهم عن الأبوين . وهذا يدل على أن هذا التباين فى السلوك (بين الذكر والأنثى) لا يرجع إلى المحيط الاجتماعى بل إلى عوامل وراثية لا سبيل الى تعديلها .

والحقيقة الثالثة والأخيرة من هذه الحقائق هى أن هذا التباين فى السلوك الجنسى يظهر فى المولود حتى قبل أن يتمكن من التمييز بين الأم والأب ، أو حتى قبل أن يدرك مَنْ ينبغى له أن يحاكيه : الأبَ أو الأمَّ ؟ ويفضل أحد العلماء الافتراض القائل بوجود عوامل بيولوجية طبيعية (أحيائية) وراء التباين الجنسى . فالفروق الطبيعية تظهر حتى قبل الولادة . وقد لوحظ فى المراحل الأولى للحمل أن معدل دقات قلب البنت أكثر من الولد فى أغلب الأحيان . وقد قال عالم اجتماعى : إنه بالرغم من تمتع الرجل بالقوة والقدرة على تحمل المصاعب فإن المرأة تعتبر مثالا أعلى وأفضل لعملية الخلق ، إلا أن هذا لا يحظى باهمية كبيرة فى مجتمع ذى اتجاه تقنى .

وتشير البحوث العلمية المعاصرة إلى احتمال وجود تباين جنسى بين مخ كل من الرجل والمراة . ويعتقد بعض الخبراء أن تواجد هورمونات الذكورة فى المرحلة الأولى من تكوُّن الجنين يمكن أن يشكل عاملا لتحديد جنس دماغ الجنين وجعله ذكرا . وقد يؤدى هذا الوضع الجنسى للنظام العصبى الرئيسى قبل الولادة إلى تباين المشاعر الداخلية لكل من الرجل والمرأة . ويقول العالم الاجتماعى جون غاغنون Gagnon : إن البنات الحديثات العهد بالولادة يبدين عن ردود فعل مختلفة فى بعض الحالات . وقد يظهر منهن رد فعل سريع لدى اللمس أو إزاحة الغطاء عنهن . كما لوحظ أن المولودات الإناث البالغات ثلاثة أشهر من العمر يطلن النظر فى صور الوجوه أكثر منها فى الرسوم الهندسية ، بينما الأولاد الذكور لا يظهر منهم مثل هذا التمايز ، وإن كان اهتمامهم يبدو أكثر بالرسوم الهندسية . وقد لوحظ لدى الطلب إلى بنات أعمارهن ما بين ١٠ و١٢ سنة بصنع البيوت من قطع الألعاب ، اهتماما أكبر بإقامة وتحسين الأجزاء الداخلية للبيت ، بينما الأولاد

يركزون على تحسين الأجزاء الخارجية منه . ويعتقد علماء الأحياء أن هذا الفرق ربما يكون قد نشأ منذ كونهما فى مرحلة الجنين (ص٣٢) .

والبنات أسرع من الأولاد فى التعرف على الأعداد وتعلم النطق ، ولكن بينما نجد البنات أسبق من الأولاد فى أداء الكلمات نراهم يتخلفن فى حل الأسئلة التحليلية التى تتطلب تركيزا واهتماما أكبر . وأظهرت اختبارات عديدة أن النساء أقل إبداعا من الرجال ، وذلك لأسباب ثقافية فى رأى علماء الاجتماع . وقد لوحظ أن هناك تباينا فى قوة الشخصية بين الرجال والنساء . فلاحظ فريق الباحثين فى جامعة نيويورك أن الفتاة التى تتناول زجاجة المشروب تتوقف عن الشرب عندما يهم شخص ما بدخول الغرفة ، بينما الشاب لا يعير أى اهتمام بمثل هذا الموضوع . ووفقا لاختبارات كاغان ، فإن المواليد الإناث ممن يبلغن من العمر سنة واحدة يلجأن إلى الأمهات لدى شعورهن بالخوف فى غرفة منعزلة ، بينما الأولاد فى نفس السن يبحثون عن عمل شيء ما لدى تخويفهم . كما لوحظ أثناء تخويف بنات عمرهن أربعة أشهر ، داخل احد المختبرات ، قيامهن بالبكاء والصراخ ضعف ما يقوم به الأولاد من نفس السن . وقد لوحظ هذا الفرق بين الذكور والإناث من مواليد القرود أيضا . وبناءً على ذلك يقول كاغان : هذه الوقائع تجبرنا على الاعتقاد بأن بعض الفروق النفسية بين الرجال والنساء لا ترجع إلى الممارسات الاجتماعية وحدها بل هى ناجمة عن فروق بيولوجية دقيقة .

ويرى الباحثون أن البنات الصغيرات يتصفن أكثر بالتبعية والاعتماد على الآخرين ، بينما الأولاد الصغار يتمتعون بالمبادرة والاستقلال . ولو أقيم حاجز بين الأطفال الصغار وأمهم ، فالذكور منهم يحاولون رفع هذا الحاجز ، بينما الإناث يقفن عاجزات ويبدأن بالصراخ والعويل .

لقد أجرت أبحاث حول عاطفية المرأة . كما أجريت أبحاث حول دور الهورمونات . وبالرغم من رفض بعض النساء نتائج هذه الأبحاث العلمية ، إلا أن العلماء وافقوا بالإجماع تقريبا على أن الهورمونات هى التى تحدد نوعية مشاعر الأشخاص وسلوكهم . وبناء على ما تتميز به المرأة ، بكونها أكثر « عاطفية » ، يعتقد الباحثون أن النساء أكثر ارتباكا وترددا من الرجال لدى مواجهة المصاعب والطوارىء .

ويشير هؤلاء الباحثون إلى أن الرجال هم أكثر عدوانا من النساء فى جميع الحضارات البشرية . والأرجح أن هذا يعود إلى تباين الهورمونات فى الجنسين ، أى أن العوامل الجنينية هى المسئولة عن هذا التباين . ويرى البعض أن المرأة قد تملك نزعة عدوانية ، إلا أن عدوانها يقتصر على التهديد الكلامى ، ولا يدخل حيز التنفيذ فى أغلب الأحيان .

وتباين الذكور عن الإناث يتحدد لدى كونهما أجنّة فى بطون الأمهات . فهل يمكن – فى يوم من الأيام – إقامة مجتمع يتساوى فيه الجنسان ، وتنعدم فيه الفروق بين الرجال والنساء ما عدا التباين الجسدى ؟ يبدو هذا مستحيلا فى ظاهر الأمر . وبالرغم من أن الدراسات والأبحاث العلمية حول الصلة بين نزعة العدوان والهورمونات لم تستكمل بعد ، إلا أن التباين بين هورمونات الذكر والأنثى أمر لا جدال فيه . ويظهر هذا التباين فور ما يبدأ الجنين ينبض بالحياة ، أى فى المراحل الأولى للحمل ، وقبل الولادة بكثير . وتشير نتائج الاختبارات إلى أن ذكور الحيوانات تبقى عدوانيةً حتى آخر لحظة بالرغم من وضعها فى أقفاص معزولة .

ويقول خبير علم النفس الدكتور بنداك : إن العوامل الأحيائية (البيولوجية) تغلب على الشخصية . إن تمتع الرجل بمزايا السيادة إزاء المرأة يرتبط بالطبيعة ، خلافا لما كان يعتقد بأنه مكتسب من البيئة الثقافية . وهذا ما حدا بمايكل لويس يقول : « الطبيعة متعسفة » . إن دور المرأة كربة بيت نتيجة متقدمة لعمليات أحيائية طبيعية . ومع أن زجاجة الحليب قد حررت المرأة من بعض أعمالها ، إلا أنها مازالت مسئولة عن تربية الطفل ، حتى فى روسيا ودول شيوعية أخرى ، على حد قول بودت باردوك أستاذ علم النفس فى جامعة ميتشيغان . ويقال : إنه يمكن اكتساب خبرات الأمومة ، ولكن الواقع أنه حتى لو بقيت مجموعة من الحيوانات معزولة مدة من الزمن ثم تقاد إلى غرفة توجد فيها صغار من النوع الذى تنتمى اليه هذه الحيوانات ، فإن أنثى الحيوان هى التى تبادر بالتوجه الى الصغار وتبدأ برعايتها .

ويقول جيروم كاغان : « انه يمكن القضاء على جميع الفروق البيولوجية بين

الرجل والمرأة ، وإيجاد مجتمع تنتفى فيه أهمية الجنس ما عدا مسئوليات الأمومة . ولكن لنا أن نتساءل : هل مجتمع كهذا سيبعث الطمأنينة فى أعضائه ؟ » ويعتقد كاغان أن التبادل والتكامل هو الأسلوب الوحيد لتمتين العلاقة بين أفراد المجتمع وإيجاد السعادة .

ويقول خبير علم النفس مارتين سايموند : إن السبب الأساسى فى فشل التماثل الجنسى يكمن فى أن الرجل هو المانح فى العملية الجنسية بينما المرأة هى المتلقية . والمشكلة تبدأ لدى اعتبار الرجل وضعه بمثابة « سيادة » على المرأة ، وعندما تبدأ المرأة تشعر بالحكومية . والتماثل الجنسى يؤدى إلى الهدم دون التعمير ، وذلك لأن مجتمعا كهذا سيخلو من التنافس بين أفراد المجتمع ، وهو أمر حتمى لتنمية الإنسان وتطوره على أسس سليمة وصحية .

والمهم أن وجود التباين لا يعتبر نقصا فى حد ذاته . ويقول عالم الأحياء أون ستود : « نحن كلنا كائن بشرى نتمتع بالمساواة ، ولكننا لسنا متماثلين ومتشابهين من جميع الوجوه » . وعلى حد تعبير جون مانى ، وهو عالم بيولوجى آخر : « بإمكانك أداء العمل بأسلوب سليم شريطة أن تقبل الفرق الذى لا جدال حوله وأن تحترمه » .

ومع أن المرأة فى الولايات المتحدة تحتل مكانا بارزًا فى حقل التعليم ، إلا أن تواجدها ضئيل جدا فى المجالات التى ظل الرجال يحتكرونها تقليديا . وتقول أستاذة بجامعة هارفارد ، قامت بإجراء دراسة حول الموضوع : إن من بين أهم الأسباب تردد المرأة عن الدخول فى مسابقات . وتقول الأستاذة الأمريكية من واقع خبرتها : الرجال دائما على استعداد للدخول فى المسابقات ، بينما نجد المرأة غير متحمسة .

وتكشف الإحصائيات عن الوضع المزرى الذى تواجهه المرأة الأمريكية أكثر من أى وقت مضى . فحوادث انتحار النساء فى تزايد مستمر ، بينما الرجال كانوا أكثر إقبالا على الانتحار فى الماضى . إلا أن الوضع قد انقلب الآن . فعلى سبيل

المثال كانت نسبة الانتحار بين النساء فى لوس انجلوس تصل إلى ٣٥ فى المائة حتى سنة ١٩٦٠ . وفى عام ١٩٧١ ارتفعت هذه النسبة إلى ٤٥ فى المائة . وتشير دراسة أعدتها جامعة ويسكونسين الى أن النساء يعانين من اضطراب نفسى أكثر من الرجال ، ويتذمرن لعدم قدرتهن على مواجهة المصاعب ، وقد اتضح هذا من دراسة حالات المرضى الذين يترددون على عيادات العلاج النفسى .

والمجتمع الأمريكى يعانى من وضع خطير آخر جدير بالملاحظة فى هذا السياق ، وهو مايسمى بـ« ثورة الجنس » . فالشباب من الجنسين يرحبون بإقامة العلاقات الجنسية قبل الزواج . ولا يرونها عيبا ، الأمر الذى أدى إلى انعدام أهمية العذرية . واتضح من استطلاع أجرته مؤسسة غالوب أن كل ثلاثة من بين أربعة طلاب لا يعتبرون العذرية شرطا للزواج . ويقول أحد باحثى علم الاجتماع بجامعة مينيسوتا : إن ٤٠ فى المائة من النساء يكن قد فقدن بكارتهن عند بلوغهن ٢٠ عاما من العمر ، وأن ٧٠ فى المائة منهن يكن قد مررن بالتجربة الجنسية قبل الزواج . ويقول عالم الجينات البريطانى جون سوم : ما كان يعرف بتبادل القبلات قبل عام ١٩٥٠ قد تطور إلى التجربة الجنسية فى الوقت الحاضر . وتوضح دراسة أجراها أستاذ بجامعة ميتشيغان بأن أقراص منع الحمل أثبتت فشلا ذريعا فى مهمتها . وعلى عكس الاعتقاد السائد ، لم تتحول هذه الأقراص إلى رخصة للنساء لممارسة الجنس بحرية ، وهن كثيرا ما يحبلن بطريقة غير شرعية .

وتوجد النساء بأعداد كبيرة فى حقل الصحافة خلافا لمجالات العمل الأخرى فى الولايات المتحدة . ولكن بضعة منهن فقط يتقلدن مناصب هامة . والمرأة الصحفية لا تعدو أن تكون مراسلة أو محررة . وأغلبهن يعملن فى صحف أسبوعية أو جرائد يومية صغيرة تدفع للعاملين بها مرتبات أقل بصفة عامة . ولا توجد مؤسسة صحفية أو دار للنشر تتبوأ فيها المرأة منصب رئيس مجلس الإدارة رغم أن نسبة الطالبات بمعاهد الصحافة بالولايات المتحدة كانت قد ارتفعت إلى ٤٤ فى المائة عام ١٩٧١ ، بينما كانت هذه النسبة تقدر بـ٣٥ فى المائة فقط عام ١٩٥١ .

وتبلغ نسبة المرأة بين رؤساء تحرير الصحف فى الولايات المتحدة ٣٥ فى المائة ، غير أن التباين فى هذا المجال يتضح من خلال الأرقام التالية : هناك ١١٢ امرأة فقط من بين ١٠٥٠ عضوا بهيئة تحرير وكالة أنباء أسوشيتد بريس الأمريكية ، واثنتان منهن فقط يتوليان إدارة مكتبين إقليميين للوكالة . ووكالة يونانيد بريس الدولية التى يصل عدد مستخدميها إلى حوالى ٩٠٠ شخص بينهم ٨١ امرأة ، واحدة منهن فقط تتولى رئاسة دائرة الأخبار . ويبلغ عدد المحررين والمراسلين والمصححين فى جريدة **نيويورك تايمز** ٦٢٦ شخصا من بينهم ٦٤ امرأة . وفى صحيفة **واشنطن بوست** توجد ٧٠ امرأة بين أعضاء هيئة تحريرها البالغ عددهم ٣٨٥ شخصا . وتواجه المرأة نفس الأوضاع فى مؤسسات صحفية أخرى مرموقة فى الولايات المتحدة . وهى تقوم بإعداد تقارير وتحرير موضوعات عن طهى الطعام والأزياء والتليفزيون ، وتغطى بصورة عامة أخبار النساء . ويعمل عدد أكبر من الصحفيات فى هيئات تحرير المجلات ، إلا أن الإذاعة والتليفزيون مازالتا من مناطق نفوذ الرجال (ص٣٧) .

ويزعم أنصار حركة تحرر المرأة أن جميع الكلمات التى تنوه بسيادة الرجل هى من اختراع الرجال ، وينبغى إلغاؤها بصفة نهائية . وطرحت فكرة لتبنى مصطلحات جديدة ، فبدل مخاطبة الرجال مثلا بـ« السيد نيكسون » والمرأة بـ« السيدة نيكسون » ينبغى مخاطبتهما باسميهما الأصليين فقط ، ويلحق قبل اسميهما كلمة « مستر Mr» (سيد) أو « ميز Ms » (سيدة)[1] . وكذلك ينبغى أن يقال : « الحائز على رئاسة المجلس (Chairperson) بدلا من كلمة « رئيس المجلس (Chairman) التى تفترض أن الرئيس رجل .

ومن مطالب أنصار حركة تحرر المرأة من الحكومة الأمريكية إقامة دور حكومية رخيصة للحضانة ، ليتسنى للمرأة إيداع أطفالها هناك لدى توجهها

---

(١) وهذا بدلا من كلمة الميسيز (Mrs) التى تعتبر مرادفة لكلمة زوجة أو « حرم » باللغة العربية الرائجة الآن (المراجع) .

للعمل ، وذلك لتنشط فى تأدية دورها الاجتماعى . وقد تم إنشاء حضانات خاصة فى الولايات المتحدة بالفعل ، إلا أن رسومها مرتفعة بالنسبة لمحدودى الدخل ، فهى لا تقل عن ٢٠٠ دولار شهريا ، أى نحو ثلث دخل امرأة عاملة تتقاضى راتبا قدره ٦٠٠ دولار شهريا . ولذلك كان من أكبر مطالب الحركة النسائية الجديدة أن تقوم الحكومة بإنشاء الحضانات وأن تتولى الإنفاق عليها أيضا . وتذكر الإحصائيات الرسمية أن مصاريف رعاية طفل واحد فى الحضانات الحكومية تبلغ ٢٤٠٠ دولار سنويا تتحمل معظمها الحكومة الأمريكية ، بينما أولياء أمور الأطفال لا يدفعون إلا مبلغا رمزيا (ص٤٠) .

وأنصار حركة تحرر المرأة ينتقدون بشدة أسلوب الزواج القديم ، فهو فى اعتقادهم عبارة عن الجمع بين سيد « الزوج » (وأمة (الزوجة) .

ويعتقد أن النقص فى عدد الأطباء يمكن تلافيه بتعليم المرأة مهنة الطب . ولكن الباحثين يستغربون نفور المرضى من الأنثى فى هذا المجال . وقام الدكتور إيدغار إينغلمان بسؤال ٥٠٠ مريض فى ثلاث مستشفيات فى نيويورك . وتشير نتائج الإجابات إلى أن ٨٤ فى المائة من الرجال و٧٥ فى المائة من النساء يفضلون مراجعة الطبيب بدلا من الطبيبة ، وإن كان نصف المرضى الذين جرى استفتاؤهم قد أعربوا عن رأيهم بأن الطبيبة تعامل بلطف ورقة أكثر من الطبيب . ويرى ٥٤ فى المائة من المرضى أن الطبيبات أقل كفاءة من الأطباء ، وإن كان البعض يعتقد أن أمثال هذه الآراء تنبثق عن ثقافة ذات هيمنة رجالية . وقال أحد المرضى إن الطبيب يكون أكثر اطلاعا بصفة عامة ، وانه يكشف على المرضى بالهدوء والتركيز ، بينما الطبيبة تعانى من مشكلات البيت . ويعرب أحد المرضى عن استيائه قائلا : كيف لها رعاية البيت وممارسة مهنة الطب فى آن واحد ؟ وكانت إجابات مرضى آخرين أكثر قسوة .

وينعدم وجود المرأة فى مجال الجراحة بصفة عامة . وتقول إحدى الطبيبات : مازالت أنانية الرجل تسدّ الطريق أمام مزاولة المرأة مهنة الجراحة . وهم يثبّطون

من عزيمة المرأة الجرّاحة بأساليب شتى . وتقول طالبة طب : حتى التبوّل بوضع آخر غير الوقوف يمكن أن يتحول إلى قضية فى الولايات المتحدة !

وعالَم الطب ، الذى كان حكرا على الرجال فيما مضى ، قد اقتحمته النساء أخيرا . ونسبة الممرضات منهن أكثر من الطبيبات . وقبل عشر سنوات كان معدل الطبيبات يصل إلى ٦ فى المائة فقط من بين ٢٦٠,٠٠٠ طبيب فى الولايات المتحدة . وارتفعت هذه النسبة إلى ٧ فى المائة بين ٣٤٥,٠٠٠ طبيب (سنة ١٩٧٢) . وفى مجال الجراحة التى تدر دخلا أكبر لا تزيد نسبتهن على واحد فى المائة . وتبلغ نسبة الطبيبات العاملات فى العيادات العامة ٢٦ فى المائة . ويقل دخلهن عن الأطباء بصفة عامة . إلا أن هناك ارتفاعا فى معدل الطبيبات فى الوقت الحالى ، فقبل عشر سنوات كانت نسبة النساء بين طلبة الطب تصل إلى ٧ فى المائة من بين ٨٣٠,٠٠٠ طالّب وطالبة وارتفعت إلى ٩ فى المائة سنة ١٩٦٨ .

وتعانى المرأة من تبعات ممارسة الجنس أكثر من الرجل : فهى تصبح أما رغم أنفها ، كما أنها تتحمل مصائب حمل غير مرغوب فيه . هذا الوضع يجرد حريتها من كل معانيها . والطب الحديث يحاول تخليص المرأة من أسر القيود البيولوجية . وبالرغم من تحقق بعض النجاحات ، مازالت مضاعفات استخدام أقراص منع الحمل تشكل مشكلة أمام المرأة . ومع ذلك هناك عشرات الألوف من حالات حمل غير مرغوب فيها يتم التخلص منها باللجوء إلى الإجهاض . فهناك ١٦ ولاية أمريكية قبلت بحق المرأة فى الإجهاض . وبالرغم من بعض الاختلاف فى قوانين كل ولاية فى هذا الشأن إلا أنه تم الاعتراف بصفة عامة بأن حق الإجهاض يدخل فى نطاق الحرية الشخصية للمرأة .

وقد تم إعداد مناهج دراسية وإنشاء معاهد تعليمية خاصة بالنساء فى الولايات المتحدة بهدف رفع مستوى الوعى لدى المرأة . وكانت نسبة الطلبة والطالبات ممن أنهوا دراستهم الثانوية متساوية عام ١٩٧٠ ، أى بنسبة ٥٠ فى المائة تقريبا لكل منهما . ولكن البنات تقدمن بنسبة أقل للالتحاق بالكليات الجامعية (٥٩ فى المائة من الشباب و٤١ فى المائة من الشابات والمرأة تفوز بنسبة أقل من المنح

الدراسية والمساعدات المالية لمواصلة البحث والدراسة بالنسبة إلى الرجال الذين يخصص لهم مبلغ ٧٦٠ مليون دولار سنويا ، أما النساء فيحصلن على مبلغ ٥١٨ مليون دولار لمواصلة الدراسة الجامعية . ويتزايد هذا الفرق مع تقدم مراحل الدراسة . ففى مرحلة الدراسات العليا (الدكتوراه) لا تحصل النساء إلا على ١٣ فى المائة من المنح الدراسية .

وتبلغ نسبة المدرسات إلى ٨٥ فى المائة فى المرحلة الابتدائية . ولكن هناك ٢١ فى المائة من النساء فقط بين مديرى تلك المدارس . أما نسبة مديرات المدارس الثانوية فلا تتعدى ٣ فى المائة . ولو تطلعت امرأة ما إلى منصب عميد لإحدى الكليات الجامعية فيشار عليها بالتوجه إلى دير للراهبات ! وكانت هناك ٢٠ فى المائة من النساء بين أعضاء هيئات التدريس الجامعية حتى عام ١٩٧٠ ، إلا أن تسعة فى المائة منهن فقط وصلن إلى درجة الأستاذية . والمرأة بصفة عامة تتقاضى أجرا أقل من الرجال . ويعتقد اغلب الشباب أن المرأة زميلة بدون مخ ، وأنه لا يتعدى دورها الاستجابة لمطالب الرجل . وتعرب سيدة عن تذمرها من موقف الرجال إزاء النساء قائلة : « إنهم لم يتعلموا بعد ، اعتبار المرأة فى مستوى عقلى متساوٍ مع الرجل » (ص٤٦) .

وتعتقد غالبية النساء أن الوضع الحالى للتعليم لا يجدى نفعا ، بل ينبغى – لتحقيق المساواة بين الجنسين فى مجال التعليم – قبول الطلبة والطالبات بأعداد متساوية فى الجامعات ، وهو مايبدو احتمالا بعيدا حتى الآن .

ويبلغ عدد العاملين فى مجال التليفزيون ٤,٥٠٠ شخص . وفى مقابل خمسة رجال هناك امرأتان فقط فى هذا المجال . ونسبة النساء العاملات مرتفعة نسبيا فى الحقل السينمائى . فهناك ٩٠ امرأة بين ألف عامل فى مؤسسة للسينما ، إلا أن الرجال يحتلون هنا أيضا أهم المراكز ، ونادرا ما تعمل المرأة كمنتجة أو مخرجة (ص٤٨) .

لقد حفر على واجهة مبنى المحكمة العليا فى الولايات المتحدة : « عدالة

متساوية فى ظل القانون » . . إلا أن هذه الكلمات لا تعّبر بصدق عن الوضع الحقيقى الذى تعيشه المرأة الأمريكية . فلا توجد ، بعد ، أية قاضية فى المحكمة العليا . وليست هناك إلا امرأة واحدة فقط ، تعمل كموظفة إدارية ، بمكتب أحد القضاة التسعة بالمحكمة العليا . كما لا توجد إلا قاضية واحدة فقط بين ٩٧ قاضيا فى محكمة الاستئناف الاتحادية . وبين قضاة المحاكم الاتحادية على مستوى الولايات ، والذين يبلغ عددهم ٤٠٢ قاضيا ، لا توجد إلا أربع نساء يتولين منصب القضاء . ويبلغ عدد القضاة الإجمالى فى الولايات المتحدة عشرة آلاف قاض من بينهم حوالى ٢٠٠ قاضية فقط . ولم تتول منصب المدعى العام أية امرأة قط . وفى الهيئات القضائية الاتحادية فى الأقاليم هناك ٩٣ خبيرا قانونيا فى منصب النائب العام وكلهم من الرجال . ونسبة النساء مرتفعة نسبيا فى مجال المحاماة . وتقول الإحصائيات : إن ٨٤ فى المائة من النساء اللاتى أنهين دراستهن للقانون خلال السنوات السبع عشرة الماضية يمارسن « المحاماة » الخاصة ، إلا أن هناك أقل من ١٢ فى المائة من المحاميات ممن يبلغ دخلهن أكثر من عشرين ألف دولار سنويا ، بينما نسبة المحامين من ذوى الدخل نفسه تبلغ ٥٠ فى المائة . وبين ٣٢٥٫٠٠٠ محام فى الولايات المتحدة لا يزيد عدد المحاميات عن تسعة آلاف أى أكثر بقليل من ٢ فى المائة . ولم تصل أية امرأة قط إلى منصب نقيب المحامين فى الولايات المتحدة (ص٥٠) .

ولا تتولى النساء مراكز هامة فى الدوائر المسئولة عن تطبيق أحكام القوانين . ونسبتهن فى صفوف الشرطة تزيد قليلا عن واحد فى المائة ، وهى كلها فى المستويات الدنيا . وكانت غير ترود شميل أول نقيبة فى شرطة نيويورك . ولدى سؤالها عما إذا كانت تتوقع أن تتولى امرأة يوما ما منصب رئيس الشرطة ؟ أجابت قائلة : « ذلك لن يحدث إلا حين تتولى أول امرأة منصب عمدة نيويورك » .

والمرأة الأمريكية تساهم فى سائر الأنشطة فى الخارج ، وهى تملك حسابها الخاص بها – المنفصل عن زوجها – فى المصارف ، ولكن لدى عودتها إلى البيت – بعد القيام بأعمال الرجل – تنتظرها مسئوليات أخرى . إنها تحب

أولادها وهى لا ترضى رغم زيادة أعبائها ، بتكليف آخرين برعايتهم . إنها تحب زوجها أيضا وهى لاتقدر أن ترفض القيام بالأعمال التى تعتبر من « اختصاصات المرأة » ، حتى لو تم الاتفاق بين الزوجين لدى عقد القران بعدم ارتباط الزوجة بأعمال البيت . وبسبب هذه المسئولية المزدوجة تلاحقها مشاعر متباينة باستمرار بأنها وقعت ضحية قرار خاطىء .

وكان ينبغى أن يكون للمرأة نصيب وافر فى مجال الفن إلا أنه لدى مراجعة قوائم النابغين البارزين فى تاريخ الفنون نكتشف أنها تحتوى على أسماء الرجال فقط . فأين تلاشت النابغات فى الفنون ؟ التاريخ يلوذ بالصمت ، بينما يعترف أحد مؤرخى الفن بان عصور التاريخ لم تشهد نبوغ أية امرأة فى مجالات الفنون (٥٤) .

ويحتكر الرجال ميدان الرياضة أيضا . والرجال أسرع من النساء طبقا لنتائج مسابقات العدّائين . والنساء يحققن النجاحات فى المسابقات النسائية فى أغلب الأحيان ، ككرة المضرب (التنس) على سبيل المثال . وبالرغم من تفوق السيدتين كينغ وسميث فى بعض الألعاب الرياضية إلا أنهما لم تتمكنا ، بعد ، من مواجهة أفضل مائة رياضى من الرجال . وتعترضهما بعض الصعوبات لكونهما من الجنس الناعم . وتلجأ الرياضيات إلى الإجهاض بهدف الحفاظ على لياقتهن البدنية « الرجولية » . وتقول الرياضية بيلى جين : سأتحول إلى « أم » لو رزقت بطفل ، وسأضطر إلى اعتزال عالم الرياضة . وأضافت تقول : إننى أرغب فى أن أكون أما حنونة . والرياضية روبين لا ترغب حتى فى مجرد التفكير فى شأن الزواج والأطفال . وهوايتها تربية الفئران ، وهى تحتفظ بعدد منها فى حقيبة يدها لدى خروجها من البيت !

وقد تزايد عدد الرياضيات الفائزات بالميداليات فى فترة ما بعد عام ١٩٦٨ إلا أن الرياضى « الناجح » لا يزال يفوز بجوائز أكثر من الرياضية « الناجحة » . . وفى دورة الألعاب الأولمبية الأولى التى جرت فى اليونان سنة ٧٧٦ ق.م . لم

يسمح للنساء بحضورها او حتى مشاهدتها . وحتى الدورة الأولمبية التى عقدت سنة ١٨٩٦ ، لم تشترك أية أمرأة فى أية مسابقة من مسابقاتها . وقد سمح لها بدخول بعض المسابقات فى دورة ميونخ لسنة ١٩٧٢ .

والمرأة الأمريكية تقوم بنشاط بارز فى المجال الاقتصادى فى الوقت الحالى ، إلا أنه طبقا لإحصائيات الحكومة الاتحادية فإن معدل أجور وظائف الدوام الكامل لا يتعدى ثلاثة دولارات للساعة الواحدة للنساء ، بينما يتقاضى الرجل خمسة دولارات عن نفس العمل . ولو أعطيت للمرأة أجور متساوية مع الرجال لحصلت على مبلغ إضافى قدره ١٠٩ بلايين دولار فى السنة (ص٦٢) . وتواصل الحكومة الأمريكية والمحاكم إصدار قرارات تقضى بعدم التمييز بين الرجل والمرأة ، ودفع المرأة أجرا مماثلا لأجر الرجل . كما صدرت أحكام قضائية بإعطاء الموظفات أجورا متساوية مع الرجال وبعدم ممارسة التمييز ضدهن فى الوظائف والأجور ، كما صدرت أحكام قضائية تقول بعدم مطالبة المرأة بإنجاز أعمال إضافية وألا يتم تكليفها بأعمال شاقة[1] .

وتقول السيدة هيلين ميكلين : إن عدد النساء فى المناصب التنفيذية على أرض الولايات المتحدة أقل من الرجال الذين أرسلوافى رحلات فضائية إلى القمر !

وفى شركة باسفيك للغاز والكهرباء بولاية كاليفورنيا تتولى ٩٤ فى المائة من الموظفات الأعمال المكتبية والسكرتارية . ويبلغ عدد العاملين فى مؤسسة أدون فى مانهاتن عشرة الآف عامل نصفهم من النساء ، إلا أن ١٤ امرأة فقط وصلت إلى مناصب إدارية بارزة . ولم تصل امرأة قط إلى منصب رئيس أو نائب رئيس مجلس الإدارة .

وتواجه المرأة الأمريكية الأوضاع نفسها فى مجال الخدمات المصرفية والتمويل وتعدين الحديد والسكك الحديدية . بينما تحظى النساء بفرص أكبر للعمل فى مجالى

---

(١) إن مجرد التنويه بعدم مطالبة المرأة بالقيام بأعمال شاقة يعتبر اعترافا ضمنيا بأن المرأة جنس أضعف ، ولأجل هذا هى تتقاضى أجرا أقل من الرجل لعمل مماثل . واللجوء إلى القانون لإزالة هذا التباين يحول مشكلة المرأة إلى قضية « طلب الرأفة » .

الإعلانات والأزياء . وتفضل أغلب الشركات التجارية النساء على الرجال لأعمال الطباعة على الآلة الكاتبة . ويتم تعيينهن بدرجة عامل مكتبى فى أغلب الأحيان . والمرتب فى هذه الحالة لا يتجاوز ١٠٠ دولار فى الأسبوع . وهو مبلغ أقل بكثير مما يتقاضاه الرجال فى الوظيفة نفسها .

وفى وظيفة البائع فى المحلات التجارية ليست أجور النساء أقل من الرجال فحسب ، بل وهناك تمييز بين الرجال والنساء خلال دورات تدريبية على المبيعات . فالرجال يجرى تدريبهم على بيع مواد ذات أسعار مرتفعة ، بينما النساء يتدربن على بيع مواد أقل سعرا وأهميةً من أمثال بطاقات المعايدة . ومديرات المدارس ، والعاملات فى المعامل ، ومبرمجات العقول الآلية يتقاضين أجورا تصل إلى ٦٧ فى المائة فقط مما يتقاضاه الرجال فى الوظائف ذاتها . وتبلغ نسبة الرجال إلى ٤٤ فى المائة ونسبة النساء إلى سبعة فى المائة من الذين يتقاضون مرتب عشرة آلاف دولار أو أكثر فى السنة من بين مجموع العاملين (ص٦٣) .

ويبلغ عدد مستخدمى مؤسسة ليفى شتراوس التجارية بسان فرانسيسكو ١٨ ألف شخص . وتشكل النساء فيهم نسبة ٨٥ فى المائة . وقد أظهرت دراسة أجرتها المؤسسة نفسها أن غالبية النساء تشغل وظائف برواتب أقل ، وأن الرجال يحتلون أهم المراكز . . فبين ٥٠٧٢ مديرا لا تشكل النساء إلا نسبة ٩ فى المائة فقط . والمرأة تحتل مليونى وظيفة خاصة بالسكرتيرات فى الولايات المتحدة ، إلا أن أغلبهن يتقاضين مرتبات أقل مما يتقاضاه الرجال فى نفس الوظيفة . وفى مارس ١٩٧٢ أصدرت وزارة الخارجية الأمريكية ، نتيجة بعض الشكاوى ، أمرا بعدم استخدام السكرتيرات كمساعدات للقيام بأعمال طارئة وإضافية .

ويزيد من تذمر سكرتيرات المكاتب اعتبارهن بصفة عامة وسيلة متعة للرجال . والرجال العاملون فى المكاتب يخاطبونهن بـ« ياحلوة » و« ياعزيزة » . والسكرتيرة تؤدى دورين فى وقت واحد : إنها حاجة لا غنى عنها لأى مكتب أولا ، وتعتبر مسلّية لرئيس المكتب ثانيا . والمسئولون بصفة عامة لا يعتبرون السكرتيرات بأنهن يعملن « معهم » ، بل « لأجلهم » .

وتشتت العائلات أهم مشكلة تعانيها أغلب النساء العاملات فى الولايات المتحدة ، إضافةً إلى أن المرأة تواجه مواقف عصيبة لدى خروجها من البيت بحثا عن العمل ، إذ أنها لا تعتبر مؤهلة إلا لوظائف عادية ، مما يولد فيها مشاعر بأنها أضاعت الوقت فى الدراسة العالية (ص٦٦) .

وهناك عشرات من المنظمات الخاصة فى الولايات المتحدة تقوم بمساعدة وتأهيل النساء للعمل . فنادى الروتارى فى مدينة شيكاغو ، على سبيل المثال ، يقدم للمرأة العاملة منحة مالية قدرها ٣٥٠ دولارا لتقوم بشراء آلة كاتبة وتباشر العمل ، ولأجل ضمان النجاح فى الاختبار الشفهى يقدم النادى للنساء الأكبر سنا أسناناً اصطناعية وآلات لتحسين السمع . وفى الفترة ما بين ١٩٦٩ – ١٩٧٢ قدمت مؤسسة خيرية نسائية فى واشنطن مساعدات من هذا النوع إلى عشرة آلاف امرأة .

وتؤدى المرأة فى عالم المسرح أدوارا أقل أهمية بالنسبة إلى الرجال . فدورها يقتصر على إشاعة البهجة فقط فى نفوس جمهور المشاهدين . وهى لا تقف هنا على قدم المساواة مع الرجل كما أنها لا تشكل تهديدا له . إنها فى حاجة إلى سواعد رجالية تدافع عنها (ص٦٧) .

ووضع المرأة فى عالم النشر لا يختلف عما سواه . ففى مدينة نيويورك تتولى امرأة واحدة فقط رئاسة مؤسسة كبرى للنشر . وفى دور النشر الأخرى يشغل الرجال المناصب التنفيذية ، بينما النساء يشرفن على أقسام الإعلانات والدعاية عموما . ويبلغ معدل توظيف دور النشر الكبرى فى الولايات المتحدة امرأة واحدة مقابل رجلين على وجه العموم . وتقوم النساء بالإشراف على الأقسام الخاصة بكتب الأطفال ، وهن يساهمن فى الأدب الروائى بنصيب أكبر . أما فى موضوعات الاقتصاد ، والسياسة وما يماثلها من الموضوعات الجادة ، فيقل إسهامهن كثيرا[1] .

---

(١) هذه المعلومات منقولة عن مجلة تايم ، عدد ٢٠ مارس ١٩٧٢ . والصفحات المذكورة بين قوسين فى سياق الكلام تشير الى صفحات هذا العدد من المجلة .

من الأفكار التى تبنتها الحضارة الغربية فكرة المساواة بين الرجل والمرأة . والعالم الغربى يخوض هذه التجربة منذ قرن مضى إلا أنه لقى إخفاقا تاما ، فلم تتحقق المساواة بين الرجل والمرأة فى أى مجال . فهما - بالرغم من تمتعهما بدرجة متساوية فى نظر القانون - لم يحظيا بالمساواة العلمية فى المجتمع .

وكانوا يبررون التباين بين الجنسين فى أول الأمر بأنه يعود إلى عوامل بيئية ، إلا أن الأبحاث الجديدة فى مختلف مجالات الحياة قد أبطلت هذا الافتراض تماما ، وقررت أن هناك فروقا بيولوجية وعوامل تكوينية وراء هذا التباين بدلا من أسباب اجتماعية أو تاريخية .

وقد نشرت مجلة **نيوزويك** (عدد ١٨ مايو ١٩٨١) تقريرا مفصلا يتضمن نتائج توصل إليها باحثون أمريكيون من الجنسين بعد دراسات شاملة حول التكوين الجسدى لكل من المرأة والرجل . وتؤكد هذه النتائج على قدرة الرجل على مواجهة وحل المشكلات بطريقة أفضل ، وميل المرأة إلى جانب العاطفة فى التفكير ، وكون الأولاد الذكور أكثر جرأة لدى ممارسة الألعاب ، وتفوق الرجال فى الرياضيات ، وأن كل هذا يحدث بسبب الفروق البيولوجية وليس بتأثير عوامل البيئة .

ويرى الباحثون أن الرجل يتمتع نسبيا بمواهب أكثر للزعامة . وتحمل الأبحاث المعاصرة على الاعتقاد بأن الطبيعة هى السبب الحقيقى فى تحديد الفروق بين الرجل والمرأة خلافا للفكرة السائدة قديما بأن التربية هى المسئولة عن هذه الفروق . وهناك اعتقاد شائع بصورة عامة بأن الرجل أكثر قدرة من المرأة على ممارسة العنف والقتال . ويرى الباحثون أن كلا منهمايحمل هورمونات متباينة تلعب دورها فى تحديد هذه الفروق . وقام بعض الباحثين بحقن الأنثى بهورمونات الذكورة (Hormone Testosterone) مما أدى إلى ظهور خصائص الذكور فيها . كما أدخلت فى جنين الأنثى هورمونات الذكورة أثناء فترة الحمل فلوحظ بعد الولادة

عدم رغبتهن فى اللعب بالعرائس ، وميلهن الى العدوان كالذكور من الأولاد . وقد لاحظ الباحثون أن الهورمونات تقوم بتعديل تكوين المخ . ووجدت فروق بين مخَّى الذكر والأنثى ، وذلك بسبب التباين فى هورموناتهما . هذه الأبحاث كلها تشير إلى فروق لا جدال فيها بين الجنسين . ويحتم التباين فى تكوين كل من المرأة والرجل وجود مجال عمل منفصل لكل منهما ، إلا أن المتشبثين بالرأى القائل بالمساواة بين الرجل والمرأة لم يسعهم - بعد - الاعتراف بنتائج هذه الأبحاث العلمية ، لدرجة أن عالما غربيا قد تساءل : « هل الفروق العضوية بين الرجل والمرأة تحدد إطار عمل منفصلا لكل منهما ؟ هذا سؤال آخر وأكثر تعقيدا »[1] .

وفى التقرير الشامل الذى نشرته مجلة تايم الأمريكية فى مارس سنة ١٩٧٢ عن أوضاع المرأة الأمريكية الجديدة ، والذى سبق الإشارة اليها ، أجمعت آراء الخبراء وعلماء الطبيعة على أن الرجل هو « الجنس المهيمن » ، وأن المرأة الأمريكية مازالت تراوح مكانها رغم كفاح دام قرنا ، وأن المرء مازال هو الجنس المسيطر من الناحية العلمية من جراء عوامل بيولوجية ونفسية وليس بدوافع اجتماعية كما كان يعتقد حتى الآن .

وقد توصلت حركة المرأة فى الغرب بعد تجارب دامت قرنا من الزمان إلى أن الحقائق البيولوجية تشكل عقبة فى سبيل حصول المرأة على درجة متساوية مع الرجل . . فهو « اعتداء » الطبيعة وليس اعتداء من قبل المجتمع ! وظهرت مطالبات باستخدام علم تطوير الأجنة لتعديل شفرة الوراثة (الجينات) داخل رحم الأم ، وذلك لأجل استحداث نظام أحيائى يولد نساء من نوع جديد ، يُنهى هيمنة الرجال ، ويؤدى إلى إقامة مجتمع يتساوى فيه الجنسان من حيث الكفاءة والقدرات ! . وهذا الاقتراح يشبه إلى حد بعيد كمن يقرر بنفسه أن السمكة والمعزة ينتميان إلى فصيلة واحدة ، وعلى السمكة ان تكون حلوبة

---

(١) ريدارز دايجست ، أكتوبر ١٩٨١ .

كالمعزة ، وعند فشله فى الحصول على الحليب من السمكة يدعو إلى استخدام التقنية الطبية لإنتاج أنواع جديدة من السمك الحلوب كالمعزة !

الحرب على الطبيعة

لو توهّم طبيب جراح ذات يوم أن المكان المناسب للفم هو البطن وليس الوجه ، ويبدأ بإجراء عملية جراحية لنقل الفم من الوجه وزرعه فى البطن ، فالعالم سيعتبر مثل هذا الطبيب معتوها ، وسيهزأ به ، لأن الطبيعة قد حددت لكل شيء مكانا لا يمكن إزاحته عنه ، وسرنجاحنا يكمن فى أن نتعامل مع الأشياء كما هى ، وفى مكانها المناسب ، لا أن نحاول بدافع من الأفكار المصطنعة تعديل الأوضاع ، ووضع خريطة جديدة للأشياء .

وقضية المرأة من أوضح أمثلة هذا الشطح الفكرى . فحين بدأت الحضارة المعاصرة ترسم خريطة جديدة للحياة أطلقت شعار « المساواة » الشاملة بين الرجل والمرأة ، وتم قلب كيان الأسرة والمجتمع لتحقيق هذا الوهم الجميل . وظهرت محصلتها النهائية فى مغادرة المرأة بيتها دون أن تتمكن من تحقيق المساواة مع الرجل فى الحياة العملية . والسبب الوحيد وراء ذلك هو أن الطبيعة لم تساير هنا أوهامَ الإنسان .

والعالم الروسى أنطوان نيميلوف ، الذى كان يتطلع إلى أن تتحقق المساواة الشاملة بين الرجل والمرأة يوما ما ، يعترف بنفسه ان هذه الرغبة تناقض علم الأحياء ولأجل ذلك لم نتمكن من تحقيقها عمليا حتى الآن . ويوضح هذا العالم السوفييتى مستندا إلى تجاربه وخبراته قائلا :

> إن الدعوة إلى منح المرأة حقوقا محدودة فى النظام الحضارى المعاصر لن يتجاوب معها أغلب الناس ، ونحن أيضا نعارض هذا الاقتراح بشدة . ولكن يجب ألا نمنى أنفسنا بآمال كاذبة ؛ لأن تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة فى الحياة العملية ليس أمرا هينا

أو بسيطا . ففى الاتحاد السوفييتى بذلت الجهود للمساواة بين الرجل والمرأة أكثر من أية بقعة فى العالم . فلم توضع فى أى بلد قوانين أكثر تسامحا مع المرأة مثلما وضعت فى الاتحاد السوفييتى ، لكن الواقع هو أن وضعها فى الأسرة لم يتغير إلا على نطاق محدود[1] .

وهو يمضى قائلا :

فكرة عدم المساواة بين الرجل والمرأة راسخة ليست فى الفئات المتخلفة فقط ، وإنما هى تنشر ظلالها حتى على أوساط سوفييتية تحظى بمستويات أعلى من التعليم والثقافة . لقد انطبعت فكرة عدم المساواة فى عقلية المرأة السوفييتية إلى حد أن أية مبادرة من قبل الرجل للمساواة مع المرأة فى المعاملة تعتبرها المرأة نفسها إساءة إلى مكانة الرجل ، وضعفا فى شخصيته ، ومناقضا للرجولة . . ومتابعة آراء أى عالم أو كاتب أو طالب أو رجل أعمال أو شيوعى قح فى هذا الصدد تكشف عن واقع يوحى بأنه لا يعتبر المرأة ندّاً له . ونجد تعابير تنم عن الرأى السالف الذكر حول المرأة حتى فى الروايات المعاصرة لكتّاب تقدميين[2] .

وعدم تمتع المرأة بدرجة المساواة لم يكن لسبب عابر أو خلل فى التنفيذ ، بل تمتد جذوره إلى علم الأحياء والتكوين البشرى . وعلى حد تعبير العالم السوفييتى المذكور : « إن المبدأ الثورى يصطدم هنا بقوة مع واقع طبيعى يحظى فى حد ذاته بأهمية كبيرة ، أى مع حقيقة أن الجنسين لا يتماثلان من الناحية البيولوجية ، ولم يتم تكليفهما بأعباء مماثلة »[3] .

---

(١) Anton Nemilov, The Biological Tragedy Of Woman (Londo, 1932) P. 76

(٢) المصدر السابق ص٩٤ - ٩٥ .

(٣) المصدر السابق ص٧٧ .

فمعارضة الطبيعة لا تتسبب ، فقط فى عدم الوصول إلى الغاية المبتغاة ، بل تنجم عنها أضرار كبيرة . والطبيعة قد حددت لكل شىء مكانا مناسبا ، وأية محاولة لإزاحة أى شىء عن موقعه الحقيقى سيؤدى حتما إلى حدوث الخلل .

وهذا ما حدث لقضية المرأة . لقد دُفِعَت المرأةُ إلى خارج البيت ؛ لتكون ندًا للرجل ، إلا أن هذه الخطوة لم تؤد إلى أن تتساوى المرأة مع الرجل فى واقع الأمر ، بل أدت إلى ظهور الفساد الخلقى بسبب إحلال المرأة بجانب الرجل فى كل مواقع الحياة .

ويضيف العالم السوفييتى المذكور قائلا :

> الواقع هو أن آثار الفوضى الجنسية بدأت تظهر بين كافة فئات العمال ، وهى حالة تنذر بالخطر ، وتهدد بانتكاسة النظام الاشتراكى ، وبالتالى يجب مقاومتها بكل السبل . وتواجهنا مشكلات ضخمة فى مواصلة الحرب على هذه الجبهة . وهناك آلاف من الحالات – على حد معرفتى – تدل بوضوح على تفشى الانحلال الجنسى ليس بين الأميين فقط ، بل حتى فى فئات مثقفة وواعية[1] .

وجاءت أحداث السنوات اللاحقة لتؤكد على ما حذر منه العالم السوفييتى قبل نصف قرن . إن كلماته لتعبر بصدق أكثر عن معاناة المجتمع الحديث ، وهى لا تناقض الواقع المعاصر بأى حال من الأحوال .

لقد اعتقد الإنسان « الحديث » أن الآراء « القديمة » حول الرجل والمرأة أصبحت بالية ومهترئة فحاول تحقيق المساواة بينهما . إلا أن محاولته هذه كانت بمثابة إعلان الحرب على الطبيعة ، وتحد لواقع الحياة ، مما أدى إلى نتائج عكسية . ولم يتحقق هدف إقامة المساواة بين الرجل والمرأة ، بينما تسببت هذه المحاولات الزائفة فى ظهور مساوىء جديدة فى المجتمع .

---

(١) المصدر السابق ص١٠٢ – ١٠٣ .

بعض الأمثلة

أدى انحراف الحضارة الغربية عن طريق الطبيعة إزاء المرأة إلى نتائج غريبة ووخيمة . وهنا نسوق بعض نماذجها من واقع المجتمع الغربى .

عدم الزواج غلطة

غريتاغاربو ، التى من ألمع نجمات السينما الأمريكية فى يوم من الأيام ، لم تعد سلعة رائجة فى هوليود بعد تقدمها فى السن . . لدرجة أنه قد تخلى عنها جميع أصدقائها ، حتى احتفلت فى ١٨ سبتمبر ١٩٨٠ بعيد ميلادها الخامس والسبعين وحيدة دون أن يكون بجانبها أحد . وحين سألها مؤلف سيرة حياتها عما إذا كانت تشعر بالندم على عدم إقبالها على الزواج ، وعدم الفوز برفيق للعمر يواسيها فى عزلتها ؟ أجابت بنبرة حزن : « أعتقد أننى أخطأت بالعزوف عن الزواج »[1] .

لقد خلق الله البشر أزواجا . فالرجل والمرأة يساهمان معا فى تحقيق أسمى الأهداف الإنسانية ، وأوضاع الحياة تحتم أن يكون هذا الاجتماع على قواعد ثابتة وموثوقة . وقد شرع الله طريقة الزواج لتحقيق هذه الغاية . وارتباط الرجل والمرأة بروابط دائمة فى إطار العائلة الواحدة يأتى لإشباع حاجاتهما الذاتية ، واستجابة لمتطلبات المجتمع أيضا .

وقد أدت فكرة الحرية الخاطئة فى المجتمع الغربى إلى اعتبار الزواج عبئا على كاهل الشباب ، وإلى شيوع الانحلال على نطاق واسع ، مما نجمت عنه مشكلات عائلية واجتماعية عديدة . والحالة التى تعانى منها الممثلة السينمائية الأمريكية السالفة الذكر تمثل إحدى تلك الحالات التى تواجهها النساء فى الغرب . فهن محط أنظار الجميع ، وفتنة للرجال ما دمن يتمتعن بالشباب والجمال . وهن لا يشعرن بالفراغ بسبب حياتهن الحافلة ، ولما تسلط عليهن من الأضواء . إلا أنهن يفقدن الجاذبية

---

(١) جريدة هندوستان تايمز ، ٢١ سبتمبر ١٩٨٠

الأنثوية وقدرة التأثير على الرجال بعد تقدمهن فى السن ، فيدركن زيف الحياة الصاخبة التى تعودنها ، وتتفرق جموع الأصدقاء والمعجبين كتساقط أوراق الخريف . وهنا تتبين فداحة الخطأ الذى ارتكبنه بعدم اختيار أى رفيق للعمر ، ويكتشفن ان اعتبارهن « الوفاء الدائم » « قيدا » كان خطأ كبيرا . ويتكشف واقع عالم الأحلام ، وتتحول حياة الأضواء بالنسبة إليهن فجأة إلى بيت مهجور ، وليس أمامهن إلا التسلية بتربية القطط والكلاب ، بينما لا يوجد بجانبهن رفيق عمر يشاطرهن الأفراح والأحزان . وتعوزهن « روضة » أطفالهن التى تبعث الطمأنينة فى الإنسان وهو يقترب من نهاية حياته . وهن لا يجدن أيا من « ذويهن » ليسلمنه تحويشة العمر ويعتبرن أن جهود عمرهن لن تذهب سدى . وهن لا يعثرن على كائن بشرى واحد ليشكل كل منهما معقدا لآمال الآخر . إنهن يعانين من العزلة فى هذا العالم الملىء بالنشاط والحركة . وليست هناك عقوبة أقسى للإنسان من العزلة بعد حياة حافلة بالنشاط والأضواء . .

كونى زوجة لطيفة

يقول فرانك بورمان رائد الفضاء الأمريكى الذى كانت ترافقه سيدة خلال رحلته : « لا بأس بوجود امرأة فى مركبة فضائية ، إلا أن بقاء رجل وامرأة معا لمدة طويلة يؤدى الى المشكلات » . وقد أحدثت تصريحات بورمان هذه ردود فعل عنيفة فى صفوف أنصار « المساواة » بين الرجال والنساء فى الولايات المتحدة ، حتى تحدثت سيدة أمريكية بمرارة قائلة : « كيف كان السيد بورمان يظهر للوجود لو لم يجتمع أبواه معا » .

لقد هزت الأبحاث العلمية المعاصرة ووقائع الحياة العملية ، بعنف ، الأفكار البالية حول « مساواة » الرجل والمرأة . ونشرت أخيرا سيدة أمريكية تدعى مارابيل مورغان (Marabel Morgan ، وهى أم لطفلين ، كتابا بعنوان **المرأة الكاملة**(Total Woman) كشفت فيه لأخواتها الأمريكيات عن سر بسيط للحياة الزوجية السعيدة قائلة : « كونى لطيفة مع زوجك ولا توجهى إليه اللوم

كثيرا ، وحاولى تفهم طلباته » . وفى أقل من عام بيعت ثلاثة ملايين نسخة من هذا الكتاب الذى يدعو إلى أن كمال المرأة يكمن فى أن تكون رفيقة للرجل ، لا أن تستقلّ بحياتها الخاصة[1] . والواقع أن المرأة الكاملة هى الرفيقة الكاملة لزوجها .

الاعتراف بالخيبة

نالت الممثلة السينمائية الأمريكية جين سيبارغ (Jean Seberg) شهرة وشعبية واسعة بسبب جمالها الفاتن ، وظلت محط أنظار الجماهير فى أوروبا وأمريكا لسنوات طويلة . وهى قد آثرت أن تبقى وسيلة متعة ولهو للملايين بدل أن تفكر فى بناء « عش » حياتها الزوجية بالأسلوب التقليدى . وقد عثر بعد وفاتها على مذكرات تسطر فى ختامها : « ليتنى بقيت داخل بيتى »[2] . . إنها نهاية خاسرة لرحلة حياة حافلة بالنجاحات !

لقد خلق الله الأشياء المادية فى هذا العالم بطبائعها الخاصة . وهى تؤدى وظيفتها على أكمل وجه ما دامت قائمة على طبيعتها . وعالم الإنسان لا يختلف عنها فى شىء . فقد خلق الله الرجل بطبيعته المتميزة تماما كما خلق المرأة بطبيعتها المتميزة . وبإمكانهما أن يعيشا حياتهما بأسلوب سليم ماداما متمسكين بالفطرة التى فطرهما الله عليها . وهما يفقدان دورهما فى الحياة بمجرد الانحراف عن طريق الفطرة .

وتختلف كفاءات المرأة تماما عما يتمتع به الرجل من قدرات ، الأمر الذى يدل على أنه لا يوجد لكل منهما إطار عمل مماثل بصفة عامة . فلو كان للرجل إطار عمل « خارجى » فإن للمرأة إطار عمل « داخليا » . وإدخال أى تعديل من قبلهما فى إطار عمله يسبب لكليهما الضياع والخيبة .

---

(١) تايمز أوف إنديا ، ٨ فبراير ١٩٧٨ .
(٢) المصدر السابق ، ٨ نوفمبر ١٩٨١ .

مشكلات بلا نهاية

ظهرت فى الولايات المتحدة رواية بعنوان **السيدة الوحيدة**[1] تكشف عن نقطة ضعف فى المجتمع الأمريكى « المتقدم » ، وهى أن المرأة التى تعيش حياتها عَزَبَة تعانى فى آخر أيام حياتها من عزلة قاسية . وأحداث الرواية تقول إن سيدة أمريكية شابة وجميلة تبهرها أضواء عالم السينما فتقرر العزوف عن الزواج لتصبح ممثلة سينمائية . وتتمكن من قهر قمة النجاح فى أقرب وقت باستغلال أنوثتها الفاتنة ، لدرجة أنها تَخِمت بالثروة والشهرة وجموع المعجبين المحيطين بها . . إلا أن وصولها إلى قمة النجاح لم يوفر لها الراحة النفسية . . وهى عندئذ تكتشف الحقيقة المرة : « الشهرة تختفى والأصدقاء يغيبون عندما يكون الإنسان فى أمس الحاجة إليهما » . . وهى تقول بأسى بالغ : « المرأة وحدها تدرك معنى العزلة » . وخلاصة القول ان الرواية تكشف عن واقع يوحى بأن المرأة لا يمكن أن تعيش « وحدها » . فالحصول على أكبر قدر من المال بالعمل فى عالم السينما ، والفوز بحياة مستقلة يبدو مغريا وخلابا فى ظاهر الأمر ، إلا أن المرأة لدى تقدمها فى السن ، وحين يتبخر سحرها وتذهب فتنتها من غير رجعة ، تصدم بواقع مرير . ففى حوزتها الثروات الطائلة وجميع وسائل الرفاهية ، بينما يعوزها شىء هى أحوج ما تكون إليه : الراحة النفسية والسكينة القلبية . إنها تمتلك كافة الأشياء المادية دون أن يكون بجانبها الإنسان الذى يواسيها فى ساعات الليل والنهار . ورغم امتلاكها بيتا فخما هى تفتقر إلى دار معمور تعتبره عشّ حياتها الزوجية . وهى تصل إلى النتيجة التالية فى الرواية المذكورة : « هنا عزلة ناتجة عن حياة « الاستقلال » ، ووحدة فردية ملتزمة بقيم فى مجتمع لا ينفع فيه إلا عدم الالتزام بالقيم » .

والواقع أن تركيبة نظام الحياة البشرية قد صيغت بدقة ورِقّة فائقتين ، وأى

---

(1) Harold Robbins, The Lonely Lady, London: New English Library, 1976.

تعديل بسيط فيها سيقودها إلى الدمار حتما . ونحن ندرك حتمية عدم الانحراف عن النظام الذى وضعته لنا الطبيعة فى عالم النبات والجماد ، فهنا لا يمكن الحصول على النتائج المرجوة إلا بالخضوع للخط المرسوم من قبل الطبيعة . إلا أن الإنسان الذى يلتزم بهذا الواقع بدقة فى عالم النبات والجماد يتناسى هذه الحقيقة الأزلية حين يتعلق الأمر بقضايا حياته المصيرية .

والنظام الذى وضعته الطبيعة للمرأة والرجل يحتم على أن يقضيا حياتهما داخل إطار الزواج . إن تكوينهما الجسدى ، وقضاياهما النفسية والعائلية ، وروابطهما الاجتماعية تحتم – لأجل سلامة سيرهما – أن يعيشا فى كنف الزواج . وتبدو « حرية » المرأة واستقلالها كلمات معسولة فى ظاهرها ، إلا أنه تنجم عن تجربتها العملية نتائج جد خطيرة .

والمرأة تقع ضحية لآراء خلابة فى مقتبل عمرها . وهى تدرك مع تقدمها فى السن أنها كانت تسلك فى اتجاه خاطىء ، إلا أن هذا الإدراك لا يأتى إلا بعد فوات الأوان حين لا ينفع الندم ولا سبيل إلى تصحيح الخطأ . وعندئذ لا يتبقى لها فى هذا العالم إلا أن تقضى آخر أيام حياتها فى تسلية زائفة بتربية الكلاب والأرانب ، لينتهى بها المطاف إلى مقابر البؤس والحرمان .

نهاية الانصياع للمتعة

نالت جاكولين زوجة الرئيس الأمريكى الأسبق جون كيندى (١٩١٧ – ١٩٦٣) شهرة واسعة بعد انتخاب زوجها رئيسا عام ١٩٦٠ . وترى الكاتبة الأمريكية كيتى كيلى فى كتابها عن سيرة حياة جاكولين أن زواجها بجون كيندى كان رهينا بما كانت تتمتع به من جمال طبيعى وشخصية ساحرة . وهكذا فازت بلقب « السيدة الأولى » ، وهو أقصى ما تحلم به امرأة فى الولايات المتحدة . وبعد اغتيال الرئيس كيندى فى ٢٣ نوفمبر ١٩٦٣ فقدت جاكولين وضعها كسيدة تتربع أعلى قمة للمجد والشهرة فى العالم . إلا أن جاكولين نجحت بأنوثتها الفاتنة فى أن تخلب لب المليونير اليونانى أوناسيس فتزوجها عن عمر يناهز الستين ،

بينما لم تكن جاكولين تتعدى عامها الأربعين . غير أنهما لم يسعدا بهذا الزواج وعادا يعيشان منفصلين إلى أن توفى أوناسيس عام ١٩٧٥ بعد مرض دام طويلا ، ولم تكن جاكولين بجانبه حين لفظ أنفاسه الأخيرة .

لقد تحققت لجاكولين كل أمانيها دون أن تفوز بالسعادة الحقيقية . وعلى حد تعبير كيتى كيلى مؤلفة سيرة حياتها : « كان مرضها العضال البحث عن السعادة بأى ثمن ، وحتى لو تطلب ذلك إنفاق ثلاثة آلاف دولار فى الساعة الواحدة »[(١)] . ومع ذلك لم تحظ جاكولين بالسعادة .

وبدأت مارلين مونرو ، التى كانت تعتبر من أشهر الممثلات فى الولايات المتحدة ، حياتها كموديل . وبسبب جمالها الفاتن أصبحت بسرعة نجمة سينمائية لامعة فى سماء هوليود حتى عرفت بـ« إلهة الجنس » . ونالت أفلامها شعبية واسعة ، كذلك كانت عروضها المسرحية تجذب آلاف المشاهدين . وآخر فيلم ظهرت فيه كان بعنوان « المتنافران » The Misfits ولعل عنوان هذا الفيلم يعكس حياتها الخاصة ، لأنها كانت تفتقد المأوى الذى تلجأ إليه ، وكانت تعيش فى عزلة نفسية فى بحر هذا العالم الصاخب . وبالرغم من أن صورها بابتسامتها الساحرة كانت تحتل صدر صفحات الجرائد وأغلفة المجلات ، إلا أنها كانت تعانى من اكتئاب نفسى بصفة دائمة ، إلى أن قررت أن تضع حدا لآلامها النفسية بابتلاع كمية كبيرة من الأقراص المنومة . ولم يكن عمرها يتجاوز ٣٦ سنة لدى انتحارها فى ٥ أغسطس ١٩٦٢ .

إن أمثال هؤلاء النساء يعانين من الاكتئاب الداخلى بصفة مستمرة بالرغم من الابتسامة التى تعلو شفاههن وهن على المسرح وأمام الكاميرات . فحياتهن فى واقع الأمر كلها بؤس وحرمان ومظلومية . . إنهن محط أنظار الجميع بينما لا يوجد هناك شخص يشكل معقدا لآمالهن . وهن يدخلن البهجة فى قلوب الناس فى

---

(١) Kitty Kelley, JaCKIE Oh: An Intimate Biography, New Delhi: Vikas, 1979, P. 336.

حين يعشن فى قلق دائم بحثا عن رجل يوفر لهن السعادة . وتسلط عليهن الأضواء فى الحفلات والمهرجانات مع إحساسهن بالخواء الروحى . بدايات حياتهن الحافلة بالأضواء تنتهى فى نهاية الأمر إلى بؤس وعزلة وانطواء .

والواقع هو أن حياة العزلة تناقض طبيعة المرأة تماما . فهى لا تستطيع أن تتحمل العزلة بأى حال من الأحوال ، إلا أن الحضارة الغربية تقود المرأة إلى قفص العزلة . وخلافا لذلك يأخذ الإسلام بيد المرأة نحو حياة لا تواجه فيها العزلة أبدا بل هى تعيش وسط عائلة سعيدة تعتنى بها حتى نهاية حياتها . وهذا يدل على أن الإسلام يسلك طريقا طبيعيا بينما الحضارة الغربية تتخبط خبط عشواء .

نشرت صحيفة **إنديان إكسبريس** على الصفحة الرابعة عشرة من عددها الصادر فى ١٤ مايو ١٩٨٦ صورة امرأة غربية تجلس وراء طاولة ترتسم على وجهها الكآبة والقلق كأنها أضاعت ثروة عمرها . إنها ليست امرأة عادية ، بل هى إليزابيث تايلور التى هى واحدة من أشهر ممثلات السينما فى العصر الحاضر . وصورتها المنشورة فى الصحيفة الهندية مذيلة بالكلمات التالية : « الممثلة إليزابيث تايلور تطالب بمزيد من الدعم المالى لمكافحة مرض الايدز الخطير ، وذلك لدى عرض القضية أمام لجنة فرعية للكونغرس بواشنطن » .

إن « الايدز » هى آفة العصر الحاضر كما سبق أن قلنا . و لم يكتشف – بعد – أى علاج لهذا المرض الذى ينشأ نتيجة للانحلال الجنسى اللامحدود . وهو لا يسبب فقط آلاما من مختلف الأنواع لضحاياه بل هو ، كذلك ، من الأمراض المعدية الخطيرة التى يتحاشى الناسُ المصابين بها . وقد أعلن الأطباء عن احتمال التقاط فيروسات هذا المرض بمجرد اللمس أو الاقتراب من مرضى الايدز . . فما أغرب « تحرر » المرأة والرجل الغربيين الذى يقودهما إلى وضع المنبوذين فى المجتمع !

وتعتبر بريجيت باردو ، التى ولدت عام ١٩٣٤ ، من أشهر الممثلات فى تاريخ السينما الفرنسية . ويقال : إنها تتفوق ، بمكانتها البارزة فى عالم السينما العالمية ،

على مارلين مونرو ومارلين ديتريش . وهى تعد أشهر سيدة فى تاريخ فرنسا بعد جان دى آرك . ويقال : إن فرنسا حصلت بتصدير أفلام بريجيت باردو على كميات من النقد الأجنبى تفوق مبيعات سيارات « رينو » المعروفة فى الأسواق الخارجية . وطبقا لقول الصحفى الأمريكى تونى كرولى ، الذى قام بمراجعة الجرائد والمجلات الصادرة فى أوروبا وأمريكا ، فإن صور بريجيت باردو تصدرت صفحات وأغلفة هذه المطبوعات لأكثر من ٢٩ر٣٤٥ مرة[1] . وتتابعت أفلام بريجيت باردو لتزيد من شعبيتها ، إلى حد أنه صعب عليها الخروج من بيتها بسبب جموع المصورين المحتشدة على بابها ، واستحال عليها مراجعة حتى عدد مختار من الرسائل الشخصية من بين الكميات الضخمة التى كانت ترد فى بريدها الخاص كل يوم . وبالرغم من هذا الوهج والبريق الظاهرين كانت بريجيت باردو تعانى من قسوة العزلة والقلق الداخلى . و لم تعد تتحمل أعباء الشهرة التى كانت تحظى بها . فقادتها ضغوطها النفسية إلى أن تضع حدا لحياتها بتناول جرعات زائدة من المنومات . إلا أن محاولتها للانتحار باءت بالفشل . وحتى لدى نقلها إلى المستشفى فى حالة خطيرة وقف المصورون فى وجه سيارة الإسعاف على أمل الفوز بلقطاتها الأخيرة . وينقل تقرير صحفى على لسانها قولها : بأنها لم تشعر بالراحة النفسية يوما ما لدى وقوفها أمام آلات التصوير السينمائية .

وتوقفت بريجيت باردو عن نشاطها السينمائى فجأة وهى فى التاسع والثلاثين من عمرها بعد أن قامت ببطولة أكثر من خمسين فيلما ناجحا ، فقطعت جميع علاقاتها بعالم السينما . وعلى حد قولها : بِعتُ سيارة رولز رويس الفخمة التى كنت أمتلكها . كل ذلك لأجل أن يمتنع الناس عن اعتبارى كائنا فوق العادة للجمال ولأعيش حياتى بهدوء - كأى إنسان آخر - وحيدة داخل بيت على شاطىء الريفيرا .

والواقع أن احتلال دور البطولة خارج أسوار البيت ، والفوز بالشهرة والشعبية

---

(١) ريدارز دايجست ، مايو ١٩٨٦ .

يناقض طبيعة المرأة تماما . فالمرأة بطبيعتها تميل إلى التزام البيت . لأجل ذلك نرى فى أحيان كثيرة أن عددا من سيدات المجتمع ممن كسبن الشهرة والمجد الزائف ينسحبن إلى داخل البيوت وهن فى أوج الشهرة أو لدى نهايتها . وهن يجدن الراحة النفسية فى آخر الأمر داخل بيوتهن – وليس فى العالم الخارجى – بعيدا عن الأضواء والبريق الخاطف .

قوانين الإسلام عن المرأة تراعى طبيعتها ولا تضطهدها . ويريد الإسلام من المرأة أن تحتضن هذا الوضع طواعية وبمحض إرادتها ، لا أن تلجأ إليه بعد تجارب خاسرة .

إقصاء المرأة عن مجال عملها

يجرى تقييم الكل سواء أكان رجلا أو امرأة فى ضوء ما ينجزه من أعمال . وحين دُفِع بالمرأة إلى خارج البيت باعتبارها ندّاً للرجل ، تحتم عليها – لأجل أن تنال ثمنها – أن تتولى مقاليد كافة الأعمال التى كان يقوم بها الرجل تقليديا ، أى أن تباشر عملها كالرجال تماما فى وظائف الطيار ، والسائق ، والأستاذ الجامعى ، والمهندس ، والموظف الإدارى ، وضابط الشرطة ، وقائد الجيش إلخ . . إلا أن المرأة – بسبب العوامل البيولوجية – لم تكن تتمتع بالقدرات التى تؤهلها لإنجاز هذه المهام كالرجال . وبعد أن فشلت المرأة فى ممارسة العمل من خلال مواقع عمل الرجال ، برز السؤال التالى بصفة تلقائية : ما هى الأعمال التى يمكن أن تؤديها المرأة ؟ وهنا تدافعت المرأة إلى المواقع التى تستخدم فيها من أجل أنوثتها وليس بسبب دورها الحضارى ، مثل عالم السينما والتليفزيون ودور اللهو وصناعة الإعلانات . وكانت هناك نقطة ضعف أخرى حالت دون إنطلاقها ، فمجالات العمل الآنفة الذكر تقدر فيها المرأة الشابة ، فى حين ليس بوسع المرأة أن تحافظ على شبابها بصفة دائمة . وأدى هذا إلى تحول المرأة إلى شخصية ناقصة بتواجدها خارج البيت . فلم تثبت المرأة جدواها إلا بضع سنين من عمر شبابها . وبعد تقدمها فى السن لم تعد تحظى بأى « ثمن » فى المجتمع الخارجى .

لقد قضت حركة تحرر المرأة فى الدول الغربية على نظام الحجاب تماما . و لم تعد هناك حواجز تفصل بين الرجال والنساء . واندفعت سائر النساء نحو الطرقات والأسواق . وكان من الطبيعى أن تجد النساء اللائى يتمتعن بقدر أكبر من الجمال الأنثوى يحظين باهتمام أغلب الفئات ، وأن يحصلن على شعبية واسعة فى أقرب وقت . إلا أن هذه الشعبية لم تتوفر إلا على حساب نبذ العلاقات العائلية ، والعزوف عن الزواج باعتباره عبئا على كاهل النساء . فأصبحن يفضلن عالم الأضواء على القرار فى كنف الحياة الزوجية المستقرة . ولكن ساعات البهجة هذه لا تدوم ، طويلا ، بحيث يجرى استغلال النساء حتى مرحلة معينة من عمرهن ثم يلقى بهن بعيدا كقشرة البرتقال . وبذلك يتحول الشخص الأكثر شعبيةً إلى كائن بشرى أقل من عادى فى محيطه الاجتماعى .

فالحضارة الغربية تحتضن « المرأة الشابة » فقط ، بينما ليس للمرأة المسنة من دور فيها . والحضارة الغربية لاتفسح المجال أمام المرأة إلا على أساس أنوثتها الفاتنة ، التى تفقدها مع تقدمها فى السن . ولأجل هذا نرى أن المرأة الغربية تفقد جدواها فى شيخوختها . وشعار « لا حقوق لمن لا يؤدى الواجبات » ينطبق على وضع المرأة الغربية فى أسوأ أشكاله .

إن حياة المرأة التى تتشكل بالانتماء إلى « عائلة » تختلف تماما عن وضعها كعاملة « خارج البيت » . ففى العائلة تبدأ حياتها « كزوجة » ، حيث تجد لنفسها مجال عمل واسعا . . بيتها بمثابة دولة بالنسبة إليها ، تقوم برعاية شئونه وتتولى إدارته بنفسها . إن إنجازاتها داخل أسوار البيت تصنع لها تاريخا مجيدا يلازمها حتى آخر لحظة من حياتها . وكلُّ يومٍ جديد يسجل زيادة فى التقدير والإحترام لشخصها فى محيطها لتصبح أماً . . ثم جدة . . حتى زوجها يبالغ فى تكريمها بمرور الأيام . وقد صدق من قال : إن المرأة « زوجة » فى شبابها ، وهى « أم » فى شيخوختها .

هذا هو وضع المرأة الطبيعى ، حتى لدى الأشخاص الذين يعيشون فى إطار الحياة الزوجية فى الأوساط الغربية . وأوضح مثال على ذلك ما ذكر عن الرئيس

الأمريكى السابق رونالد ريغان . وتنقل إحدى التقارير على لسان واحد من أقرب مرافقى الرئيس ريغان بأنه مولع كثيرا بزوجته ، ويناديها بـ« الأم » عندما يكون بعيدا عن الحياة العامة[1] .

والمرأة مع تقدمها فى السن تزداد احتراما داخل أسوار بيتها ومحيطها . وهى تحتل وضع ربة البيت . وتشكل العائلة بالنسبة اليها عالما يساندها منذ البداية وحتى آخر لحظة من حياتها ، بينما الحضارة الغربية تحتضن المرأة لبضع سنين فقط من حياتها ثم لا تقف بجانبها فى المرحلة الطويلة الباقية من حياتها . الحضارة الغربية تدفع للمرأة ثمن سنوات شبابها القليلة ، بينما الحياة العائلية تقوم برعايتها فى جميع مراحل عمرها .

النموذج اليابانى

يشير تقرير صحفى نشر مؤخرا عن المرأة اليابانية أنه بالرغم من وجود ١٥ مليون امرأة عاملة فى اليابان ، إلا أنهن يشغلن وظائف عادية ، أو يعملن كمساعدات لكبار المسئولين من الرجال . وقد تم تعيين سيدتين فى منصبين وزاريين بعد انقطاع ٣٦ سنة ، وذلك مسايرة من المؤسسات الحاكمة فى اليابان للعام العالمى للمرأة الذى أعلنته الأمم المتحدة عام ١٩٨٥ . ويضم السلك الدبلوماسى اليابانى ٦٠٨ أشخاص بينهم ١٢ امرأة فقط . وتعتبر اليابان حتى الآن مجتمعا يهيمن عليه الرجال . وينقل التقرير الآنف الذكر على لسان إحدى الوزيرتين اليابانيتين قولها : « مشروع القانون حول القضاء على التمييز ضد المرأة ، والذى لم يقرره البرلمان بعد ، يعتبره كثيرون من منتقديه الرجال بأنه سيميز عكسيا (ضد الرجال) »[2] .

إن من يزعم بأنه لن تكون هناك تنمية وطنية بدون مساهمة مساوية من قبل

---

(١) هندوستان تايمز ، ١٨ أكتوبر ١٩٨٧ .
(٢) إنديان إكسبريس ، ٢٤ نوفمبر ١٩٨٤ .

النساء ينبغي له أن يتعظ من مجتمع اليابان التي تعتبر دولة من أكثر الدول تقدما في العصر الحديث . إنها أحرزت هذا التقدم بدون إحلال النساء في كافة المواقع ، وبدون مساهمتهن على قدم المساواة في سائر أنشاطتها الخارجية .

وكان يعتقد في سابق الزمن بوجود محيط عمل منفصل لكل من الرجل والمرأة . وقد ألغى هذا المحيط في العصر الحاضر بحجة دفع عجلة التطور إلى الأمام ، إلا أن التجارب أثبتت أن إنهاء النظام القديم لتوزيع العمل لم يعد بالنفع لصالح التطور الحضارى . فلا تزال دفة كافة عمليات التطور والتنمية تتركز بأيدى الرجال دون النساء ، وذلك حتى في الدول التي قررت فتح مجال العمل أمام المرأة في كل مواقع الحياة . والنموذج اليابانى ينفى الفكرة الغربية حول المرأة . . فاليابان احدى الدول المتقدمة في العصر الحديث بالمقاييس الغربية . والمجتمع يهيمن عليه الرجال تقليديا حتى الآن ، مما يقيم أبلغ دليل على أن إنجاز التطور والتقدم لا يتطلب مساهمة « متساوية » من قبل النساء .

وتوضح السيدة شارمون بابيور (**Sharmon Babior**) ، إحدى زعيمات الحركة النسائية الجديدة في الولايات المتحدة ، تباين موقف المجتمع اليابانى عن الولايات المتحدة بشأن قضية المرأة قائلة : « لا أعتقد أن المرأة الأمريكية ستقبل بوجهة النظر اليابانية الداعية إلى أن الرجل سيد بيته »[1] .



(١) تايمز أوف إنديا ، دهلى الجديدة ، ١ ديسمبر ١٩٨٧ ..

نتائج الحضارة الحديثة

الفرق بين انحلال المسلمين وانحلال الحضارة

لو كان المجتمع الغربى يعانى من الانحلال فمجتمع المسلمين المعاصر يعانى من الانحلال كذلك ، إذن كيف يحلو لك تخطئة الحضارة الغربية ووصف الإسلام بأنه على صواب ؟ » هذا السؤال الذى طرحه أحد الأشخاص هو فى غير محله . لأن المقارنة بين الحضارة الغربية والإسلام تصدر هنا عن اختلاف واضح بينهما ، وهو أن انحلال مجتمع المسلمين ناجم عن ابتعاده عن الإسلام ، بينما انحلال الحضارة الغربية نتيجة التزامها بمبادئها .

لقد ظهر الفساد المتواجد لدى المسلمين بسبب التباين بين المبادىء وتطبيقها ، بينما تفسخت الحضارة الغربية بسبب تناقض مبادئها مع حقائق الفطرة . الحضارة الغربية الحديثة وضعت للحياة الاجتماعية مبادىء مغايرة عن المبادىء المنبثقة عن الأديان ، وادعت أن هذه المبادىء الجديدة تتصف بالصحة إزاء المبادىء القديمة « الخاطئة » . ثم تقلبت الأوضاع السياسية فأضحت الشعوب الغربية تسيطر سياسيا وماديا على أنحاء كثيرة من المعمورة . ورفضت هذه الشعوب المبادىء « القديمة » للحياة وأخذت تصوغ المجتمع البشرى على أساس مبادئها « الجديدة » للحياة .

وبالرغم من مضى أكثر من قرن على مباشرة هذه التجربة إلا أن « صحة » هذه المبادىء لم تتحقق من خلال نتائجها العملية . وكل ما أظهرته هذه التجربة هو أن مبادىء الحياة التى استحدثها الغرب لم تكن تطابق الطبيعة . لقد برز التناقض بين تلك المبادىء والحقائق الثابتة بأسرع مما كان يتصور . ونشأت حالة عدم الاستقرار والفوضى من أسوأ الأنواع فى المجتمع الغربى ، وظلت تتفاقم مع مرور الزمن .

أما حالة الانحلال التى يعانيها مجتمع المسلمين فى الوقت الحاضر فيمكن إنهاؤها

بإعادة هذا المجتمع إلى تبنى المبادىء الإسلامية مرة أخرى . إلا أننا لا نستطيع أن نقول الشىء نفسه بالنسبة إلى الغرب . لأنه لو دُفِع بالمجتمع الغربى إلى الوراء فلن يتراجع إلا إلى هذه المبادىء ذاتها التى يعتنقها فى الوقت الحالى . فالذين أشاعوا فكرة التحرر الجنسى اللامحدود ، واستماتوا لأجل إحلال المرأة فى كافة مواقع عمل الرجال ، واعتبروا مؤسسة الزواج قيدا لا لزوم له فى المجتمع ، هؤلاء لو تراجعوا فإلى أية مبادىء يتراجعون ؟ إن عودتهم لن تكون إلا إلى نفس الأوضاع التى يعيشونها ويعانون من ويلاتها ونتائجها المدمرة فى الوقت الحالى . فيمكن حل مشكلة انحلال المسلمين بعودتهم إلى التمسك بمبادىء الإسلام التى تخلوا عنها ، بينما لن تحل مشكلة انحلال المجتمع الغربى إلا إذا قام ذلك المجتمع بنبذ المبادىء « الحضارية » التى يتشبث بها . ولتوضيح هذا الأمر سنقدم هنا بعض الوقائع الحقيقية .

رحلة فى اتجاه معاكس

شهدت الولايات المتحدة ارتفاعا ملحوظا فى عدد النساء العاملات خلال الربع الأخير من هذا القرن . فنسبة ٦٥ فى المائة من النساء الأمريكيات فى سن الإنجاب يعملن فى المكاتب ، و٩٠ فى المائة منهن يواجهن حالات الحمل خلال مدة العمل . وكون المرأة أماً وربةَ بيت مع تحملها أعباء العمل خارج البيت فى وقت واحد يشكل أخطر مشكلة أمام المرأة الغربية .

المواطنة الأمريكية ليليان غارلاند كانت تعمل كموظفة استقبال بإحدى الشركات فى كاليفورنيا . وقد واجهت حالة الحمل خلال مدة العمل مما اضطرها إلى طلب إجازة الوضع عام ١٩٨٢ . فأنجبت بنتا ، وبناءً على نصيحة الطبيب لم تباشر العمل فى الشركة لمدة ثلاثة أشهر . ولدى وصولها إلى الشركة لاستئناف العمل ، بعد انقضاء هذه المدة ، أُخبرت بأن وظيفتها لم تعد شاغرة ، وتم تعيين شخص آخر مكانها . وهكذا فقدت السيدة غارلاند وظيفتها التى كانت تحصل منها على مرتب شهرى قدره ٨٥٠ دولارا ، وأصبحت عاطلة عن العمل بينما

كانت مصاريفها قد تضاعفت بعد ولادة البنت . وقامت برفع الدعوى ضد الشركة بأنها مارست التمييز ضدها بصرفها عن العمل . وبعد إجراءات قضائية استغرقت خمس سنوات أصدرت المحكمة العليا فى يناير ١٩٨٧ حكما يقضى بأن على المؤسسة أن تدفع للمرأة العاملة إجازة أربعة أشهر لو واجهت حالة الحمل أثناء مدة العمل .

وثارت مناقشات حادة فى الولايات المتحدة بعد صدور هذا الحكم الذى أثلج صدور أنصار حركة تحرر المرأة لاعتقادهم بأن القانون أصبح يساندهم فى قضية ولادة الطفل ورعايته . أما الفئات الواعية من الأمريكيين فاعتبرت أن القرار يلحق الضرر بمصالح النساء . ويستدل هؤلاء بأحداث التاريخ على أن أمثال هذه الضمانات تتسبب فى إحداث التمييز ضد النساء ، وهى خطوة لن تنجم عنها إلا نتائج عكسية . ويعتبر دون بتلر زعيم نقابة التجار ورجال الصناعة فى لوس انجلوس حكم المحكمة بمثابة كارثة ، مؤكدا على أن المؤسسات التجارية والصناعية ستواجه الإفلاس لو أجبرت على منح النساء الحوامل إجازات أربعة أشهر . وعلى حد تعبير لامب المستشار القانونى للغرفة التجارية الأمريكية : إنه سيزيد من ممارسة التمييز ضد النساء لعدم رغبة الشركات فى توظيف النساء فى سن الإنجاب . وتدافع الزعيمة السياسية الأمريكية بيتى فريدَانْ عن قضية السيدة غارلاند الآنفة الذكر قائلة : « لاتعنى المساواة أن تطابق المرأةُ الأنموذجَ الرجالى » . (ما أوهن هذه الحجة التى يتذرع بها أنصار حركة تحرر المرأة ! والسؤال الآن هو : ما دامت النساء يتميزن بطبيعتهن إلى حد عدم التطابق مع « أنموذج » الرجال ، فما الداعى إلى إيجاد « المساواة » الغريبة بإحلال النساء فى سائر مواقع عمل الرجال ، واستخدام سلاح القانون لفرض هذه المساواة الاصطناعية واستمرارها ؟) .

وتصف سيلفيا آن هيوبليت حكم المحكمة العليا الأمريكية قائلة : « إن هذا يعنى أن أعلى المراجع القانونية تعترف بضرورة إيجاد عائل للأسرة ، لأجل منح

المرأة درجة مساوية للرجل فى مواقع العمل »[1] . وهو اعتراف غير مباشر بأحقية النظام التقليدى السابق . لقد رفعت الحضارة الغربية الحديثة الشعار القائل : بانه لا ينبغى للرجل أن يكون عائلا للمرأة ، بل على المرأة أن تكسب وتعول نفسها . لكنه اتضح بعد وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ أن المرأة لا تقوم قيامتها بدون عائل ، مع فارق بسيط هو أن العائل فيما مضى كان يسمى « الزوج » ، وأن العائل فى الوقت الحالى هو الحكومة أو الشركة أو المؤسسة التى تعمل بها المرأة .

كانت الأوضاع التقليدية ، التى تشكلت بفضل تعاليم الأديان ، تحتم أن يمارس الرجال – من حيث المبدأ – الأعمال المتعلقة بخارج البيت ، وأن يكون البيت المجال الأساسى لأعمال النساء . وكان ذلك فى الواقع توزيعا لمجال العمل . إلا أن الحضارة الحديثة وصفتها بالتمييز إزاء جنس دون آخر ، مما أدى إلى انبثاق حركة تحرر المرأة حاملة شعارات مدوية ، دفعت بالنساء للخروج من البيوت لإحلالهن فى المكاتب والمصانع .

وقد تبين سريعا أن هناك عقبات عديدة تحول دون نجاح الترتيبات الجديدة . وعلى سبيل المثال تواجه المرأة حالة حمل وإنجاب ورضاعة ، ومن ثَمَّ لا تستطيع ممارسة العمل فى الخارج لفترة طويلة . وقد تم حل هذه المشكلة بوضع قانون يقضى بمنحها إجازة خاصة أثناء فترة الحمل والرضاعة . إلا أن تلاعبا كهذا بالألفاظ والقوانين يمكن أن يقوم به أعضاء المجالس النيابية لدى مناقشتهم لبنود القانون . أما المسئولون التنفيذيون عن المصانع والمؤسسات فلا يسعهم تحمل تبعات هذا القانون . وهكذا نشأت نزاعات قضائية لا تنتهى بين أرباب العمل والنساء العاملات .

ويبدو أن المؤسسات الحاكمة تساند النساء فى هذا الصراع دفاعا عن مبادئها

---

(١) ملخص تحقيق نشرته مجلة تايم الأمريكية ، عدد ٢٦ يناير ١٩٨٧

« الحضارية »[1] ، إلا أن هذا انحياز ضد الفطرة والطبيعة وبالتالى صعب التنفيذ . إن مطالبة الحكومة من المؤسسات والمصانع بمنح النساء العاملات إجازة « أربعة أشهر » مع المرتب يعتبر « ترفا حضاريا » لن تقبله أية مؤسسة أو مصنع . ومن الطبيعى أن تتجه المؤسسات إلى عدم توظيف الشابات من النساء ، بينما المسنّات منهن يتوقفن تلقائيا عن الانخراط فى العمل . وهكذا فإن المجتمع الغربى يواجه موقفا أشد تأزما مما تفجرت حركة تحرر المرأة لإنهائه ، أى التمييز الجنسى .

خيبة أمل « المصلحات »

عقدت ندوة تحت شعار : « نحو بداية جديدة » ، بدعوة من الحكومة الهندية بدلهى الجديدة فى الفترة ما بين ١٢ - ١٦ يناير ١٩٨٧ وحضرتها وفود من ١٥ دولة تضم مفكرين وكتّابا وعلماء وفنانين . وقد شاركتُ فى هذه الندوة قيادات نسائية غربية بارزة . . ولوحظ أنهن يعانين فى خريف أعمارهن من القنوط بعد أن قضين جلّ حياتهن كداعيات متحمسات للحركة النسائية الجديدة . ومن هؤلاء الكاتبة الأسترالية الجريئة جيرمان غريار وغزالة حليمى المحامية الفرنسية التونسية المولد والتى كانت فى طليعة المناضلات لأجل حقوق المرأة فى فرنسا مع سيمون دى بوفوار . وقد أعربت كلتاهما عن قلقهما إزاء الفترة الحرجة التى تمر بها الحركة النسائية فى الغرب وانحاء أخرى من العالم . وعلى حد وصف مراسل صحيفة **إنديان إكسبريس** : تبدو جيرمان غريار أكثر هدوءًا ونضجا فى الوقت الحالى . لقد تلاشى بشكل غريب ذلك الحماس الذى كانت تتميز به لدى تأليف كتابها **الأنثى المخصية** Female Eunuch وهى تعرب الآن عن مخاوفها قائلة : « إن الحركة النسائية الجديدة نجحت فى حل بعض المشكلات بينما خلفت لنا

---

(١) من الأسباب الهامة الأخرى التى تدفع السياسيين إلى سن قوانين كهذا رغبتهم فى ترضية مجموعات معينة كالعمال والنساء والشباب وذلك لأجل الفوز بأصواتهن فى الانتخابات (المراجع) .

مشكلات أخرى جديدة » . لقد عرفت جيرمان غريار بآرائها المتحررة فى شبابها ، إلى حد أنها دعت إلى انهاء مؤسسة الزواج التقليدى . وظلت تدافع عن رأيها فى هذا الشأن إلى أن فتر حماسها أخيرا ، حيث تقول : « ربما تكمن المشكلة فى أننا لم نشرك معنا أمهاتنا ، وخلّفناهن وراءنا باعتبارهن من الطراز العتيق . ولكننا بعد أن اصبحت غالبيتنا أمهات ولنا بنات مراهقات ، نتناول المشكلات حاليا بوجهة نظر مغايرة . وربما أصبح الآن بالإمكان أن نقدر مواقف أمهاتنا بطريقة أفضل »[١] .

ومما تقوله غريار : « لا يملك الغرب أى حل لمشكلة عدم المساواة بين الرجل والمرأة . وتعتقد المرأة الغربية خطأً أن المحجَّبة تعانى من عدم المساواة وأن اللائى يستخدمن مساحيق التجميل والحاسرات منهن أكثر تحررا وتقدميةً . فأمثال تلك الآراء ينبغى وضعها جانبا » . وأضافت جيرمان غريار تقول : « إن حوادث تعرض النساء للضرب قد تفشت فيما يسمى بالغرب المتحضر . وهناك ، بالإضافة إلى هذا ، عدم التكافؤ فى فرص العمل والأجور بالنسبة للنساء فى دول كالولايات المتحدة وإنجلترا . إن ٢٥ فى المائة من الجرائم التى تقع فى إنجلترا هى حوادث عنف ضد النساء . وتتعرض ١٥ فى المائة من النساء للضرب من قبل أزواجهن وعشاقهن فى الولايات المتحدة[٢] .

وتعترف السيدة حليمة بوضوح : « إنها فترة حرجة بالنسبة للحركة النسائية » . وتتناول أسباب هذه المعاناة بالتحليل قائلة : « لقد تحققت للنساء كافة مطالبهن بأسرع ما كن يعتقدن كحقوق منع الحمل والاجهاض والطلاق . إلا أن مشكلة المرأة لم تحل بعد . فالنساء يمتلكن قيما وأخلاقيات معينة ، ووجهة نظر متباينة إزاء البشرية . وليس معناها أنها أفضل من وجهة نظر الرجال ، بل تعنى فقط أنها مغايرة . وعلى النساء أن يؤدين دورهن كنساء ، لا أن ينزعن إلى

---

(١) إنديان إكسبريس ، ١٤ يناير ١٩٨٧ .
(٢) جريدة تلغراف (كلكوتا) ١٨ أكتوبر ١٩٨٧ .

تقمص دور الرجال بصورة مصطنعة »[1]

الدور النموذجى للمرأة الذى تشكل بفضل تعاليم الأديان هو أن تتولى شئون البيت وتربى الأولاد . أما الدور النموذجى الذى وضعوه للمرأة فى العصر الحاضر فهو أن تنطلق إلى خارج البيت وتزاول العمل فى سائر المواقع كالرجال . ولكن تجارب الحياة أثبتت أن هذا الأنموذج الأخير غير قابل للتطبيق ، حتى اننا نجد قيادات نسائية بارزة فى الغرب فى خريف أعمارهن يؤيدن الدور النموذجى السابق للمرأة ، بعد أن قضين شبابهن كداعيات متحمسات لأجل الدور النموذجى الحديث للمرأة . . هل هناك بعد هذا مجال للشك فى أحقية الدور النموذجى الذى وصفه الإسلام للمرأة ؟

رسالة فتاة بائسة

الحقيقة الجلية The plain Truth مجلة شهرية أمريكية مسيحية معروفة ، يصل توزيعها إلى حوالى ٧٫٨٥٠٫٠٠٠ نسخة فى مختلف أنحاء العالم . وتحتل غلاف عددها لشهر سبتمبر ١٩٨٦ صورة فتاة بائسة اسمها سالى (Sally) تبدو على وجهها علامات الدهشة والخوف . وقد نشرت المجلة رسالة موجزة من قبل الفتاة ، وهى رغم ضآلة كلماتها تثير الأسى وتحز فى النفوس :

> مارست الجنس حين كنت فى الثامنة من عمرى مع ولد يبلغ ١٥ سنة من العمر . وقد فعلت هذا لأننى لم أحصل على الحب والاهتمام من والدىَّ . وأنا أحتاج إلى الحب . ولكن والدىَّ لا يهتمان بى . ولم يتغير شىء داخل البيت ، وأصبحت حاملا وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى واعتبرنى صديقى مسئولة عن ذلك وانصرف عنى ، ولم يكن لدىّ من مكان أتجه اليه . لقد وقعت فى الفخ ولجأت إلى الإجهاض . والآن أنا أخاف من أن أرتبط

---

(١) إنديان إكسبريس ، ١٤ يناير ١٩٨٧ .

بأى موعد مع الشبان . وأنا أبكى كل ليلة إلى أن يدركنى النوم .

وتنقل المجلة المذكورة على لسان جورج دون ، وهو صحفى من نيويورك : « أن ٩٦ فتاة من بين كل ألف تتراوح أعمارهن ما بين ١٥ إلى ١٩ سنة يصبحن حوامل فى الولايات المتحدة » . وتحبل فتاة مراهقة كل دقيقتين فى الولايات المتحدة .

هذا هو المصير المرتقب للانحراف عن طريق الطبيعة . لقد خلق الله الإنسان فى صورة رجل وامرأة ، ووضع ترتيبا خاصا لإقامة العلاقة بينهما يتمثل فى الارتباط برابطة الزواج فى مرحلة معينة من العمر ، والتكاتف لتأسيس أسرة مستقلة ، وتربية ورعاية الأولاد بغية استمرار الجنس البشرى . إلا أن مغالاة الغرب الحديث فى تحرره قادته إلى التحلل حتى من كافة القيود فى شأن العلاقة بين الرجل والمرأة ، مما نجمت عنه مساوىء لا حصر لها فى المجتمع الغربى ، ونرى إحدى صورها فى معاناة الفتاة الآنفة الذكر .

إن اختلاط الرجال والنساء بحرية ، وإنشاء العلاقات بدون ضوابط وقيود يناقض الطبيعة تماما . والمرأة تنزع إلى الارتباط بـ« واحد » فى شأن الجنس ، بينما الأمر يختلف بعض الشىء بالنسبة إلى الرجل ، مما ينجم عنه أن العلاقات الجنسية المتحررة تحول دون علاقات الوفاء والالتزام ، التى تتطلبها طبيعة المرأة ، فتلحق أضرارا جسيمة بنفسيتها أكثر من الرجل . وتتحمل المرأة تبعات هذا « التحرر » أكثر من الرجل .

وتعترف زعيمة الحركة النسائية جيرمان غريار فى حديثها إلى صحيفة **إنديان إكسبريس**[1] بأن حماسها للحركة فى عنفوان شبابها لم يكن يطابق الواقع ، فتقول :

> الأمر الذى يقلقنى اليوم هو نتائج حركة التحرر الجنسى ، فعدد الفتيات اللواتى يستخدمن أقراص منع الحمل ، منذ بلوغهن الثانية عشرة والثالثة عشرة من أعمارهن ، وعدد المراهقات ، اللواتى تحبلن

---

(١) ١٤ يناير ١٩٨٧ .

عند بلوغهن الخامسة عشرة والسادسة عرة من أعمارهن ، تزايد مستمر . ما الذى يحدث لهن ؟ الجنس يعنى شيئا مختلفا بالنسبة إلى الرجال فيمكنهم أن يمارسوا الحب وينصرفوا . ويمكنهم حين يحين وقت الذهاب إلى الجامعة أن يبدأوا دراساتهم بكل سهولة . أما النساء فأحاسيسهن مختلفة ، فهن يمارسن الحب بعقولهن وقلوبهن وأجسادهن . وهن يتحطمن بتحطم قصة حب واحدة . وقد رأيت هذا يحدث لنسوة قريبات منى ، وهو شىء مروع .

مجتمع المسلمين المعاصرين يعانى من الانحلال ، شأنه فى ذلك شأن المجتمع الغربى ، مع فارق كبير وهو أن انحلال المسلمين ناجم عن عدم تطبيقهم لمبادىء الإسلام ، بينما انحلال المجتمع الغربى ناتج عن تطبيق مبادئه .

مشكلات مصطنعة

أنشأ مليونير أمريكى من كاليفورنيا وهو الدكتور روبرت غراهام مصرفا من نوع غريب يعرف بـ« مصرف نوبل للسائل المنوى » . ويقوم هذا المصرف بجمع هذه المادة من الأشخاص الحائزين على جوائز نوبل وتخزينها ، لأجل إخصاب النساء وإنجاب مواليد يتمتعون بذكاء فوق العادة ! والمصرف ، كما يدعى مؤسسه الأمريكى ، أنشىء لأجل مساعدة رجال غير قادرين على الإنجاب ، إلا أن النزعة الإباحية لدى المرأة الحديثة تقودها إلى انتهاك هذا الحد . فهناك نساء يرغبن فى الإنجاب والحصول على أطفال ذوى كفاءات عقلية خارقة ، بدون الارتباط بالزواج . ونساء كهذه يطلبن مساعدة المصرف المذكور .

ومن هؤلاء الدكتورة آفتون بلاك Afton Blake من كاليفورنيا وهى تبلغ أربعة وأربعين عاما من العمر . فاتصلت بالمصرف المذكور حيث أشير عليها بالحصول على السائل المنوى « رقم ٢٨ » طبقا للمواصفات التى كانت تطلبها فى مولودها . ويجدر بالذكر أن مواد السائل المنوى التى تم تخزينها فى المصرف لا تعرف بأسماء أصحابها ، وإنما لكل منها رقم معين .

وأصبحت الدكتورة بلاك حاملا بعد حقن رحمها بمادة السائل المنوى « رقم ٢٨ » فوضعت طفلا فى موعده وسمى هذا الطفل « دورون » (Doron) وهو يعنى باليونانية « الهدية » . وأدخل الطفل إلى المدرسة فى الرابعة من عمره . وقد نشرت صحيفة **هندوستان تايمز** صورته فى ملحقها الأسبوعى الصادر بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٨٦ . وكان مراسل صحيفة **ديلى تلغراف** اللندنية إيان برودى قد قابل أم الطفل المذكور فى بيتها بلوس أنجلوس . وعلى حد تعبير المراسل : « السعادة التى كانت تغمر الدكتورة بلاك تتحول تدريجيا الى الشقاء » وذلك لأن ولادة طفل بدون أب وضعتها فى مأزق . ومن المشكلات العديدة التى تواجهها الدكتورة بلاك أن المولود قد تعلم الكلام ، وهو يسأل مرارا وتكرارا « أين أبى ؟ » . وأخبرت الدكتورة بلاك المراسل الصحفى البريطانى : « لقد تضايق منى دورون ذات مرة وقال : إنه سيغادر البيت ليعيش مع أبيه » . لقد كان فوز السيدة المذكورة بمولود بدون أب تجربة ممتعة بالنسبة إليها فى بادىء الأمر ، إلا أنها أضحت محوطة بمشكلات لا تنتهى ، ومن أهمها بالنسبة للطفل حرمانه من حنان أبيه .

إن انحراف الإنسان عن النظام الذى وضعته الطبيعة يسبب له مشكلات غريبة وعويصة لم تكن تخطر على باله من قبل .

نعم للزواج . . لا للسفاح

نشرت مجلة **تايم** بعددها الصادر بتاريخ ٢٦ فبراير ١٩٨٧ موضوعا للغلاف تحت عنوان « البرود الكبير » حول مختلف جوانب مرض « الايدز » بأقلام ذوى الاختصاص فى هذا المضمار .

ويعتبر « الايدز » من الأمراض المعدية التى أوجدت نوعا جديداً من « المنبوذين » فى المجتمعات البشرية . فالكل يتهرب من الرجل والمرأة اللذين يقعان فريسة هذا المرض خوفا من التقاط العدوى . وحتى محلات الحلاقة فى بعض

الدول الغربية قد رفعت لافتات تقول : « لا نحلق الذقون » . ويصف المسئولون الحكوميون هذه الظاهرة بهيستيريا الايدز ، بينما الحلاقون يقولون : « إن خروج نقطة دم أو عرق من وجه شخص مصاب بمرض الايدز أثناء حلاقة ذقنه قد يسبب فى انتشار عدوى المرض ، ولذلك تجب الوقاية بتجنب مرضى الايدز[1] .

ويعتقد فريق الباحثين بمجلة تايم ، الذى قام بدراسة مرضى الايدز من مختلف جوانبه ، ان الاتصال الجنسى غير الشرعى هو أهم أسباب الإصابة بهذا المرض الخطير . ولأجل هذا يعرف الايدز بـ« داء الشاذين جنسيا » . وينتشر هذا المرض بسرعة مذهلة إلى حد أن انتشاره قد وُصِف بـ« الانفجار الهندسى » فى العالم الحديث . ويعبر أحد المصابين بالايدز عن مشاعره إزاء هذا المرض الخطير : « إلى أين سينتهى بنا هذا العالم لو توجب علينا أن نموت عند ممارسة الجنس ؟ إن مرض الايدز لعنة القرن العشرين » .

إن الاتصال الجنسى غير الشرعى ، الذى يوصف فى الغرب بحرية ممارسة الحب ، أصبح وبالًا على المجتمع . ويقدر أن عدد المصابين بمرض الايدز فى الولايات المتحدة سيبلغ مع حلول عام ١٩٩١ (٢٧٠،٠٠٠) شخص . ولن يكون بوسع الأطباء الأمريكيين آنذاك توفير العلاج اللازم لهذا العدد الهائل من المصابين . وقد بدأت الحكومة الأمريكية حملتها ضد الايدز بإطلاق شعار « كن حذرا عند ممارسة الحب » . والأصح أن نعدِّل صيغة هذا التحذير فنقول : « مارِسْ الحب بالزواج ، وتخلَّ عن ممارسته بدون الزواج » .

لقد نشرت رواية د .هـ . لورانس **عاشق الليدى تشاترلى** ، التى تدافع عن الاتصال الجنسى الحر ، عام ١٩٢٨ واعتبرت آنذاك من الأدب الداعر . وأصبح تداولها محظورا قانونيا . إلا أنه بعد أن انقلبت الأوضاع صدر أمر قضائى بإعادة نشرها وتداولها عام ١٩٥٩ . وقد أحدثت هذه الرواية تأثيرا سلبيا بالغ الخطورة فى الشباب الأمريكى ، فتجددت المطالبة بحظرها مرة أخرى .

---

(١) **تايمز أوف إنديا** ، ١٩ فبراير ١٩٨٧ .

وكل هذا بسبب لعنة الايدز ، وذلك لأن العلاقات الجنسية غير الشرعية أدت إلى ظهور مرض غامض كالايدز الذى يبلغ فى خطورته حد الإبادة ، مما حمل الناس فى الغرب على إعادة النظر فى موقفهم من حرية العلاقات الجنسية . وعلى حد تعبير مجلة تايم : « النازعون الى كل جديد فى الجنس سيواجهون عاجلا أم آجلا واقع عصر جديد يتسم بالحذر وكبح الجماح الجنسى » .

والرأى السالف الذكر يمكن وصفه بعبارة أخرى كما يلى : إن حقائق الطبيعة تجبر الإنسان على أن يتخلى عن أسلوب الاتصال الجنسى غير الشرعى ، وأن يتبنى أسلوب الاتصال الجنسى الملتزم .

إن الشريعة الإلهية قد حددت إطار الزواج الشرعى لإقامة العلاقات الجنسية ما بين رجل وامرأة ، إلا أن نزعة التحرر فى العصر الحاضر اعتبرت الزواج قيداً لا لزوم له على الإنسان . . وقد تم ترويج هذه الفكرة عن طريق الأديان المعاصرة ووسائل الإعلام المختلفة مما أدى إلى شيوعها فى الغرب كتقليد لا يخدش العرف أو الحياء .

لقد زعموا أنهم اكتشفوا سر حياة مترفة بلا نهاية بتحللهم من التزامات الشريعة والدين والطبيعة ، إلا أن موجة حرية الاتصال الجنسى أظهرت أنواعا غريبة من الأمراض فى نهاية القرن العشرين . فظهور مرض خطير كالايدز أجبر الناس على الاعتراف بأن نهج الشريعة الإلهية هو الأسلوب الطبيعى للحياة الإنسانية . وفى مقابل هذا تعتبر حرية الاتصال الجنسى ضارة بصحة الإنسان . وقد نشرت تايم فى العدد الآنف الذكر صورة رجل وامرأة يلتف حول جسديهما ثعبان مخيف .

ويوصى القرآن بضرورة إقامة رابطة الزواج قبل إنشاء أية علاقة جنسية بين رجل وامرأة ، وبعدم ممارستها عن طريق السفاح : ﴿ . . **محصنين غير مسافحين** .. ﴾[1] أى متزوجين غير زانين ، كما شرحها أغلب المفسرين . وقد أثبتت التجارب أن هذا هو الأسلوب السليم ، والطبيعى لحياة سعيدة . والفارق

---

(١) المائدة : ٥ .

ما بين الزواج والسفاح هو أن الأول يقود إلى الحياة ، بينما الآخر يؤدى إلى الهلاك . فالأسلوب الأول يغمر المجتمع الإنسانى بالسعادة بينما الآخر يصيبه بالشقاء .

وقد نشرت صحيفة **تايمز أوف إنديا**[1] تقريرا عن المساعى التى تبذل فى الولايات المتحدة لمكافحة الايدز ، من بينها إصدار نداء من قبل الحكومة الأمريكية إلى مواطنيها بضرورة اتخاذ إجراءات الوقاية ضد مرض الايدز ، وأبرزها « الحذر فى ممارسة الجنس » ، وفيه إشارة واضحة إلى تفوق الشريعة الإلهية على القانون الذى وضعه البشر ولوسلك أحد المؤمنين بالشريعة الإلهية طريق السفاح – لا قدر الله – فأصابه مرض الايدز ، فسيعتبر ذلك نتيجة لانحرافه عن مبادىء الشريعة . أما لو أصيب الإنسان الذى يعيش فى كنف الحضارة الغربية بمرض الايدز عن طريق علاقات جنسية غير شرعية ، فلن يكون إلا بسبب الخطأ الكامن فى أسس تلك الحضارة التى ينتمى إليها . ففى الحالة الأولى تأتى الإصابة نتيجة خطأ بشرى ، بينما المشكلة الثانية ناتجة عن خطأ الحضارة الحديثة نفسها .

تبعات المساواة غير الطبيعية

« كل من يعرفنى لن يصدق ما فعلتُه » . . هذه جملة قالها رجل أمريكى يبلغ من العمر ٣٥ عاما . وأوضح بكل هدوء كيف اعتدى على زوجته التى يحبها . لقد حاول خنقها إلى أن فقدت وعيها ، ورمى بها فى الوحل ، وأراد أن يذبحها بالسكين . ويتساءل الرجل : « كيف فعلت ذلك رغم أننى أتمتع بسمعة طيبة ، وامتلك أعمالا تجارية خاصة ، ولا أشرب الخمر ، ولا أدخن ، ولا ألاحق النساء » . . رغم ذلك كيف تتعرض زوجة هذا الرجل للضرب على يديه مرارا وتكراراً ؟

---

(١) عدد ١٩ مارس ١٩٨٧ .

لقد نشرت مجلة **ريدرز دايجست**[1] الأمريكية قصص مواطنين أمريكيين من هذا النوع بعنوان : « لماذا يضرب الرجال النساء اللواتى يحبونهن » . وانتهى التحقيق ، الذى يمتد عبر خمس صفحات من المجلة ، إلى أنه طبقا لإحصاء أمريكى تتعرض امرأة واحدة للضرب على يد زوجها أو عشيقها كل ١٨ ثانية فى الولايات المتحدة . ويقدر عدد النساء من هذا النوع اللواتى تلزمهن العناية الطبية بأكثر من مليون امرأة سنويا ، وتموت أربع نسوة يوميا نتيجة تعرضهن للضرب من هذا النوع .

فما سبب هذا السلوك السيىء لضرب النساء فى مجتمع « متقدم » و« متحضر » كالمجتمع الأمريكى ؟ لقد أجريت دراسات ، وأبحاث عديدة حول الموضوع خلال الفترة الأخيرة . وتعتقد السيدة سوزان شيختر (Schechter) التى ألفت كتابا بعنوان : **النساء وعنف الرجال** Women And Male Violence : أنه نمط من أنماط السيطرة القسرية »[2] .

وينقل تحقيق **ريدرزدايجست** المذكور على لسان الدكتورة إيلين بنس (Ellen Pence) مديرة برنامج التدخل فى المظالم العائلية قولها : « أى رجل يتورط فى ضرب امرأته سيخبرك عن دوافع عمله . وهو أنه قد حاول أن يهيمن على المرأة ، وأراد أن يفرض عليها إرادته » .

والرأى الآنف الذكر يوضح أن الوضع جاء نتيجة مباشرة لحضارة الغرب الحديثة التى جعلت من المرأة ندّاً للرجل ، ووفرت لها فرص عمل منفصلة ، مما أتاح لها إيجاد كيان اقتصادى مستقل عن الرجل لنفسها . ولأجل هذا تكونت لدى المرأة مشاعر قوية عن « المساواة » . . إلا أنها لم تكن إلا مشاعر اصطناعية . فرغم ترتيب الأوضاع الاقتصادية لصالح المرأة ، لم تتمكن الحضارة الغربية من تعديل قانون الطبيعة وهو كون الرجل جنسا أقوى من ناحية تكوينه بينما المرأة جنس ضعيف ناعم من ناحية تكوينها

---

(١) عدد مارس ١٩٨٧ ص١٣٥ - ١٤٠

(٢) المصدر السابق ص١٣٦

وقد نتج عن هذا أن الحياة العائلية فى الدول الغربية أصيبت بالتناقض . وبدأت تعيش فى كنف بيوتها نساء يتصفن بالضعف إزاء الرجل من ناحية التكوين الجسدى – كسائر النساء فى كل زمان – إلا أنهن يعتبرن أنفسهن أندادا للرجل على مستوى التعامل . وبينما الرجل – بوصفه جنساً أقوى – يحاول أن يفرض هيمنته على النساء ، هن يرفضن – بدافع من مفاهيم مصطنعة – أن يخضعن لهيمنة الرجال . ونتيجة هذا الصراع لم تكن فى صالح المرأة على الإطلاق ، وألحقت بها الضرر دون الرجل .

ولو كان الرجل والمرأة متماثلين فى الواقع – على المستوى الطبيعى الأحيانى – لقام الرجل بضرب المرأة حينا وقامت المرأة بضرب الرجل حينا آخر . إلا أنها لم تكن قضية الندية أو التماثل . لأن الوضع هنا يشبه تماما حالة الصدام بين البطيخ والسكين . فالرجل دائما هو الضارب ، والمرأة دائما هى المضروبة .

وقد بلغ من مظلومية المرأة فى هذا الشأن أنه لم يعد بإمكانها أن تنقذ نفسها حتى لو لجأت إلى الفرار . واستنادا إلى ما ورد فى التحقيق الصحفى الآنف الذكر ، فإن الرجل يهدد المرأة ، التى تحاول الفرار ، بأنه سيمسكها ويقتلها . وقد تحدث أخطر الإصابات والأموات بسبب محاولة النساء الفرار لدى تعرضهن للضرب[1] .

لقد تقرر فى توزيع الطبيعة لأدوار الإنسان أن يكون الرجل « قواما » على المرأة . وكل محاولة لتعديل هذا التوزيع بطريقة اصطناعية تؤدى إلى الوضع المشار إليه فى التحقيق الصحفى الآنف الذكر . ولم تكن النساء يتعرضن للضرب داخل بيوتهن قبل بزوغ فجر الحضارة الجديدة . فهذه الظاهرة من مميزات العصر الحديث ، ونتيجة مباشرة لفكرة « المساواة » الاصطناعية التى تبنتها الحضارة الغربية لأول مرة فى التاريخ البشرى . صحيح أن حوادث الاعتداء على النساء بالضرب كانت تقع فى العصور السالفة أيضا ، إلا انها كانت تحدث بين الفئات المختلفة وفى حالات استثنائية . وقد اتسعت دائرتها فى الظروف الراهنة لتشمل الفئات الراقية والنخبة فى المجتمع . وأصبحت هذه الحوادث تشكل مشكلة بالنسبة للمتحضرين أيضا ، بينما كانت تعانى منها فى السابق جماعات غير متحضرة فقط .

---

(١) المصدر السابق ، ص١٣٧ .

دخل سائح أجنبى يزور الولايات المتحدة ناديا ليليا يمارس فيه الشباب من الجنسين هوايتهم للرقص ، وبينما كان يجلس على مقعد جانبى إذا بفتاة أمريكية تجلس بجانبه تخاطبه قائلة :

« ألا تجدنى فاتنة أيها السائح ؟ »

« لِمَ لا ؟ أنت فاتنة وجميلة »

« إذن ، لماذا أنا لا أفوز بموعد مع أى فتى ؟ »

لقد أصبح الحصول على « الموعد » (Date) تقليدا شائعا بين الشباب من الجنسين فى الغرب . ويتم اللقاء على موعد محدود بدعوة أى من الطرفين ، وذلك لأجل أن يختبر أحدهما الآخر قبل الزواج . وقد شاع الأمر فى الحياة الغربية إلى حد أن الفتاة التى لا تحصل على « موعد » مع أى فتى تصاب بمركب النقص ، وتعتقد أنه لا قيمة لها فى سوق الزواج .

وكان أسلوب « المواعيد » هذا يقتصر بادىءَ الأمر على مجرد اللقاءات وتجاذب أطراف الحديث ، إلى أن تطور الأمر إلى إنشاء علاقة جنسية كاملة . لقد اختار الشباب فى الغرب أسلوبا « متحضرا » للاعتداء الجنسى ، وذلك بدعوتهم فتاةً على « موعد » فى غرفة معزولة .

وقد نشرت مجلة تايم الأمريكية تحقيقا صحفيا مثيرا تحت عنوان : « عندما يتحول « الموعد » إلى اغتصاب » . ومما جاء فى هذا التحقيق :

سوزان امرأة عزبة ، فى الثانية والعشرين من عمرها ، التقت برجل . ولدى الانصراف أعطاها الرجل « موعدا » ، حيث اجتمعا بموجبه فيما بعد داخل غرفة . وقد أمضيا حوالى ساعة إلا ربعا فى مشاهدة براج التليفزيون وتبادل أطراف الحديث ، إلى

أن اقترب منها الرجل ، وبدأ يقوم بحركات أثارت احتجاج المرأة ، غير أن الرجل لم يتوقف ومضى فى عمله متذرعا بأنها تحتج بدافع المجاملة وأنها لا تمانع فى واقع الأمر . ومن ثم شهدت الغرفة ما يوصف قانوناً بالاغتصاب[1] .

وحوادث « الاغتصاب على موعد » كهذا قد شاعت فى الدول المتقدمة فى الوقت الراهن . ويرى بعض الباحثين أن الاغتصاب بواسطة « المواعيد » أصبح مشكلة اجتماعية كبيرة . . وهم يبنون رأيهم هذا بعد دراسة إحصائيات كثيرة عن طلبة الكليات . وقد توصلت مارى كوس Mary Koss ، وهى عالمة نفس بولاية كنت الأمريكية ، بعد دراسة ستة آلاف ومائتى طالب وطالبة فى ٣٢ كلية جامعية عبر ثلاث سنوات أن ١٥ فى المائة من الطالبات مررن بتجارب توصف فى اللغة القانونية بالاغتصاب ، وأن أكثر من نصف هذه الحالات كانت حوادث اغتصاب بموعد . وتقدر أندريا باروت Andrea Parrot ، المحاضرة بجامعة كورنيل ، أن ٢٠ فى المائة من الطالبات بكليتين جامعيتين ، قامت هى بإحصائهما ، قد اشتكين من إجبارهن على الجنس خلال سنوات دراستهن الجامعية أو حتى قبل ذلك ، وأن معظم هذه الحوادث كانت حوادث اغتصاب بموعد . ويقدر أن عدد حوادث الاغتصاب التى تصل أخبارها إلى السلطات الأمريكية (وكانت تبلغ ٨٧٫٣٤٠ حالة سنة ١٩٨٥) ليست إلا نصف الحوادث التى وقعت بالفعل . وتقول الخبيرة مارى كوس : إن أغلب الإمكان هو أن تتعرض الفتاة للاغتصاب بموعد من أن يتم ذلك على يد أجنبى يخرج فجأة من الأحراش . وتقول عناصر الحركة النسائية : إن هناك « ثقافة اغتصاب » فى الولايات المتحدة حيث يتم تشجيع الرجال فيها على معاملة المرأة بصورة عدوانية ، مع تربية المرأة على الاستسلام أمامهم .

ويذكر السيد سِرِى براكاشى (حاكم ولاية مهاراشترا الهندية السابق وأول سفير

---

(١) عدد ٢٣ مارس ١٩٨٧ .

للهند لدى باكستان) فى مذكراته أنه فى عام ١٩٤٧ - عام استقلال الهند وباكستان عن الحكم البريطانى سأل أحد البريطانيين عن دوافع احتقارهم للهنود ؟ ومن بين الأمور التى أشار اليها الرجل الإنجليزى : « أنتم تراعون العديد من القيود فى شأن الزواج ، بينما الرؤية الاوروبية هى أن يتزوج الفتى والفتاة بتبادل الحب ، وهو امر لن يحدث هنا على الإطلاق ، لكونكم مكبلين بالقيود والأغلال الاجتماعية » .

وأمثال هذه الآراء كانت تقابل بالاستحسان عند ظهور حركة تحرر المرأة ، إلا أن رفع كافة القيود المفروضة على العزاب من الجنسين أدى إلى نشوء العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ليصل بهم الأمر إلى حوادث الاغتصاب فيما بعد . وهذه الأوضاع توضح أن مبدأ « الالتزام » فى شأن العلاقات الجنسية هو الأسلوب الأمثل والسليم ، وأن شعار « التحرر » لا يقود المجتمع إلا إلى طريق الدمار والهلاك .

حديث نبوى

يبيح التقليد الغربى الآنف الذكر بشأن « الموعد » للمرأة والرجل العازبين أن يجتمعا فى مكان منعزل وأن يقضيا من الوقت معا حسب رغبتهما . ولنستحضر التبعات الخطيرة الناتجة عن هذا التقليد الغربى ، ونحن نتدبر الحديث النبوى الآتى ، وسنصل إلى أن الشريعة الإسلامية وضعت ضوابط أخلاقية تتمتع بالأصالة وبُعد النظر فيما يتعلق بالاختلاط بين الجنسين :

« ألا لا يخلون رجل بامرأة لا تحل له فإن ثالثهما الشيطان إلا محرم ، فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الإثنين أبعد »[1] .

إن الاجتماع بين رجل وامرأة ، غير ذى محرمين ، فى مكان منعزل يفسح أمام

(١) مسند أحمد بن حنبل ، ط . المكتب الإسلامى (بيروت ١٣٩٨ / ١٩٧٨) ٣ /٤٤٦ .

الشيطان المجال واسعا للإيقاع بهما ، بينما تواجد قريب ذى محرم خلال اللقاء لا يتيح للشيطان فرصة إثارة أهوائهما الغريزية . والاجتماع فى الحالة الأولى لا تتوقف خطورته عند حد ، بينما لن يتجاوز فى الحالة الثانية نطاقه وحدوده .

عودة إلى العفة

لقد اُتبع أسلوب إباحة الجنس فى الغرب على نطاق واسع فى العصر الحاضر . فشاعت طريقة إقامة العلاقات الجنسية قبل الزواج فى البلاد الغربية حتى صيغت لتبرير هذا العمل اللا أخلاقى فكرة فلسفية تقول : بأن خوض تجربة جنسية مسبقة هو الأسلوب الأسلم والأمثل لاختيار رفيق عمر دائم . وأصبح الرجال والنساء يجتمعون علانية قبل الزواج كاجتماعهم علانية بعده .

إلا أن هذا النهج قد تصادم مع الطبيعة ، وخلق هذا الانتهاك للنظام التكوينى الطبيعى أنواعا من المشكلات استعصى حلها فى إطار الوضع الحالى ، مما حمل الناس على إعادة النظر فى موقفهم ، فأصبحوا يعارضون أسلوب التحرر الجنسى بعد أن أيدوه بشدة فيما مضى .

وقد تناقلت الصحف تقريرا لوكالة الأنباء الفرنسية فى هذا الصدد عن الولايات المتحدة ، ومما جاء فيه :

> إحصاء شمل أكثر من ١٫٤٠٠ طالب وطالبة بالجامعات الأمريكية تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، يكشف عن أن الفتيات أكثر انجذابا إلى الشبان العذر (أى الذين لم يسبق لهم التجربة الجنسية) مما كان الأمر عليه قبل عشر سنوات . ويقول سرولى بلوتنيك Srully Blotnick عالم النفس بالشركة التى أجرت الإحصاء المذكور : إن « الرجل الأعذر قد لا يكون أفضل العاشقين إلا أنه يتوق إلى التعلم وهو أكثرهم أمانا » . . و« أكثرهم أمانا » هنا يعنى أنه خالٍ من مخاطر الإيدز وغيره من

الأمراض الجنسية المعدية . ويقول الخبير المذكور : إن خطر الأمراض الجنسية المعدية هو الذى يجعل الرجال العذر جذابين فى نظر المرأة . وأظهر الإحصاء ان ٢٢ فى المائة من الطالبات الجامعيات يفضلن أن يكون عاشقهم المقبل أعذر بالمقارنة مع ٩ فى المائة فقط قبل عشر سنوات[١] .

والواقع أن شرط العذرية والعفة لدى الزواج كان يشكل عقبة على طريق التحرر الجنسى للجنسين ، فتعرضت مفاهيم العفة والعذرية للاستهزاء والتسفيه فى أوائل نشوء الحركة المنادية بحرية المرأة ووصفت بانها « خرافة دينية » . إلا أن التجارب أثبتت أنها لم تكن خرافة دينية ،بل تشكل واقعا أحيائيا .

إن البحث عن قرين سليم ومعافى بالنسبة إليك يحتم عليك أن تخضع نفسك لشرط العفة التى كانت تعتبر فيما مضى حكما من أحكام الدين ، إلا أنها أصبحت الآن مبدأ أساسيا حتى فى نظر الغرب لإنشاء علاقات زوجية صحية . إن التجارب الإنسانية المعاصرة تبرهن على واقعية الشريعة الإلهية ، وأقل ما يوصف به موقف اللامبالاة إزاءها هو التعنت والعناد وتجاهل الأمر الواقع .

مشكلة الأطفال الاصطناعيين

هدفت حركة تحرر المرأة إلى تحقيق المساواة الشاملة بين الرجل والمرأة على كافة المستويات إلا أن هذه المساواة لم تتحقق عمليا . لقد فشلت حركة تحرر المرأة فشلا ذريعا فى التوصل إلى غايتها الحقيقية ، مما حمل سيدة أمريكية تدعى ت .غريس أتكينسون على الاعتراف بمرارة لمجلة **تايم** : « لا توجد هناك أية حركة ! الحركة تعنى التوجه نحو هدف ما ، إلا أن حركة تحرر المرأة لم تتقدم صوب أية جهة . إنها لم تحقق شيئا حتى الآن »[٢] .

ويضيف تقرير مجلة **تايم** الآنف الذكر أن المتطرفات يطالبن بالانسحاب الكامل

---

(١) **تايمز أوف إنديا** ، ١٨ مارس ١٩٨٧ .
(٢) مجلة **تايم** ، ٢٠ مارس ١٩٧٢ ، ٣٠ .

من تبعية الرجل ، ومنها العلاقات الجنسية ، وتقول الصحفية جيل جونستون التي تكتب بمجلة **صوت القرية** **Village Voice** : إن الحركة النسائية عَلَم على الشذوذ الجنسي ، وأن المرأة لن تتحرر من سيطرة الرجال إلا حين تمتنع عن الاعتماد عليه لإشباع رغباتها الجنسية[1] .

إن معايشة امرأتين كزوجين لا تعد أمرا بسيطا ، فمثل هذا الوضع يخلق مشكلات عديدة ، من بينها : كيف تتحقق رغبة « الزوجين » في الحصول على طفل لهما ؟ وقد اكتشفت العلوم الطبية الحديثة طريقة الإخصاب الصناعي لتحقيق هذه الرغبة .

وكانت امرأتان هولنديتان ، باولا دِيجز (٣٩ سنة) وجانين هاكسمان (٣٨ سنة) يعيشان كزوج وزوجة ، اتصلتا بمعهد ليدن لمنع الحمل لأجل تحقيق رغبتهما في الحصول على طفل . وقد فشلتا في محاولتهما الأولى ، بينما حبلت باولا في المحاولة التالية ، فأنجبت طفلا من صلب مجهول ، أسمياه توماس . إلا أنهما شعرتا بعد ولادة توماس بحاجتهما إلى ذات « الرجل » الذي أدى نفورهما منه إلى اتباع أسلوب السحاق .

والمرأتان تعربان عن قلقهما إزاء هذا الواقع بالاعتراف بأن توماس في أمس الحاجة إلى رجال ؛ ليقوموا بالدور الرجالي النموذجي ، ويشكّلوا قدوة بالنسبة إليه . وقد اصطنعتا أساليب شتى لتحقيق هذا الغرض ، وذلك بالطلب من أقاربهما كالجد والعم والشقيق ، والجيران من الرجال ، للقيام بزيارات متكررة إلى منزلهما . وتقول هاكسمان (إحدى هاتين الامرأتين الشاذتين) : لقد وقع اختيارنا على أحد أصدقائنا من الرجال ؛ ليقوم بدور الأب لتوماس ، وسيزوره الطفل من حين لآخر للتزود بالتوجيهات « الفنية » اللازمة[2] .

إن اتباع طريقة اصطناعية لتوفير « أب » لتوماس لن يكون بديلا عن الأب

---

(١) المصدر السابق .
(٢) مجلة تايم ، عدد ١٠ أغسطس ١٩٨٧ ص٢٥ .

الحقيقى بأى حال من الأحوال . ومن المؤكد أن يظل نوع من الغربة يشكل حاجزا بين « ابن » و« أب » من هذا النوع . وحين سيكبر توماس ستتحول هذه الغربة غير الشعورية إلى غربة واعية شعورية . لقد عرف توماس مَنْ هى أمه ، بينما سيظل يجهل أباه طول عمره ! وهذا الفراغ فى حياة توماس سيسبب لديه أنواعا من العقد النفسية ، ووضعا عقليا يحول دون أن يصبح عضوا فاعلا فى المجتمع .

قد يكون هناك متسع فى نظام السحاق ، ومعاشرة المرأةِ المرأةَ لإنجاب « البنت » دون « الولد » . ولكن حتى ولادة « البنت » أيضا تحتم الاعتماد على نفس الرجل الذى أدى إنهاء التعول عليه إلى اتباع هذا النظام !

قد يسهل الانحراف عن نظام الطبيعة ، ولكن لن يتمكن إنسان أو مجتمع إنسانى مامن دفع تبعات هذا الانحراف ونتائجه اللاحقة .

اعتراف الخطأ

صدر فى الولايات المتحدة مؤخرا كتاب بعنوان : **الاهتداء إلى آبائنا**[1] ، يحدد بداية عهد جديد فى الحياة العائلية فى الولايات المتحدة .

كان المثل الأعلى للحياة فى الحضارة الحديثة هو أن يباشر الرجال والنساء العمل معا فى المكاتب والمصانع ويقوموا بتسليم أولادهم إلى « مربيات » فى البيوت ، أو إيداعهم بمراكز رعاية الأطفال . ولم يتمكن الأمريكيون من استيعاب خطأ هذه النظرية إلا بعد أن تعرضت أجيال عديدة للضياع ، فأدركوا أنه لا يوجد هناك أى بديل للأبوين لأجل رعاية وتنمية قدرات الأولاد . وهكذا ظهر جيل من الآباء والأمهات فى الولايات المتحدة يقلل من اهتماماته الخارجية ويخصص جزءا من وقته للأولاد .

ومن هؤلاء المواطن الأمريكى كين شومان الذى تلقى عرضا لوظيفة براتب

---

(١) Sam Osherson, Finding Our Fathers(1987)

أكبر ، إلا أنه فضل وظيفته الحالية براتب أقل لاقتناعه الشخصى بأن مسئوليات وظيفة سامية لا تترك للمرء متسعا من الوقت لرعاية الأولاد والاهتمام بهم . وهو يقول : « صحيح أننى لا أستطيع تناول الغداء فى المطاعم الفخمة فى الوضع الوظيفى الحالى ، ولا القيام برحلات جوية بالدرجة الأولى ، إلا أننى سعيد بقرارى ، فلدىّ متسع من الوقت ، وبإمكانى أن أساعد أولادى أكثر فى مرحلة من مراحل تكوينهم » . والمواطن الأمريكى جون فيشر ينتمى أيضا إلى هذا النوع الجديد من الآباء الأمريكيين ويصف وضعه قائلا : « لقد اعتنقت هذا الأسلوب للحياة من جديد » .

وتقول المجلة الأمريكية سبان **Span** (عدد سبتمبر ١٩٨٧) التى نشرت هذه المعلومات فى مقال تحت عنوان : « الأولوية للأولاد » : « يحاول الجيل الجديد من الآباء الأمريكيين إقامة التوازن بين طموحاتهم فى الحياة وتربية الأولاد » . وهكذا يعترف الإنسان المعاصر بخطأ تجاربه بينما هو فى قمة تقدمية آرائه التى تهيمن على المجتمع الحديث إلى حد أن دعاة هذا التحول يفضلون عدم الكشف عن أسمائهم .

نهاية الزيجات الغربية

طرحت مجلة اجتماعية أمريكية(١) سؤالا أمام قرائها عما إذا كانت الحياة العائلية فى أمريكا تواجه المشكلات ؟ فجاءت ٧٦ فى المائة من الإجابات بـ« نعم » . وأعرب ٨٥ فى المائة من القراء عن خيبة أملهم فى حياة زوجية سعيدة . وطبقا لما نشرته مجلة **نيوزويك** فى مايو ١٩٧٨ عن نتائج استطلاعها لآراء القراء حول الحياة العائلية الأمريكية ، فإن نصف الزيجات فى الولايات المتحدة تنتهى إلى الطلاق ، ليعقد الزواج مرة أخرى ثم يحدث الطلاق . .

ويصف رونالد كيلى ، وهو مستشار قانونى لشئون الزواج فى الولايات المتحدة ، هذا الوضع المأساوى قائلا :

---

(١) **Better Homes And Gardens**

من أكثر ما يثير الأسى فى نفسى كمستشار لشئون الزواج هو أن هناك أفرادا كثيرين متزوجين إلا أنهم يعيشون فى بيوتهم كغرباء ، فيبدو أنهم لا يشارك بعضهم بعضا إلا فى قليل ، فالكل ينطلق فى طريقه أو طريقها ، وهم لا يتوقفون إلا للحديث فى مناسبات قليلة ، وكثيرا ما تكون هذه مناقشات حادة حول المال ، أو تربية الأولاد ، أو الجنس . والمرء يستغرب كيف اجتمع هؤلاء فى أول الأمر[1] .

والزواج مهما كان منشؤه الحب المتبادل فإنه تتخله حالات عدم الرضا بسبب مشكلات الحياة حينا ، وفتور نزعة الجنس أحيانا أخرى . فإن كان الزوج والزوجة قد ارتبطا برابطة « الزواج الهادف » فإنهما سيظلان متماسكين ، لأجل تحقيق هذا الهدف ، بتجاهل وتحمل كافة المنغِّصات . ولكن لو كانت فكرة « الزواج للمتعة » هى السائدة بينهما فإن كل ما لايلائم هوى النفس سيتحول إلى مشكلة خطيرة . وفى هذه الحالة لن يبقى لدى الرجل والمرأة أى داعٍ ليصونا علاقاتهما ، ويتحملا ما يعكر صفو حياتهما الزوجية .

ومأساة الغرب هى أن الحضارة الحديثة أشاعت فى المجتمع الغربى فكرة « الزواج للمتعة » مما أدى إلى تفكك الحياة العائلية بسبب الفتور فى الرغبة الجنسية حينا ، ومن جراء مشكلات البيت أحيانا أخرى .

مشكلات السكان

صدر فى الولايات المتحدة عام ١٩٨٧ كتاب بعنوان : **ندرة الإنجاب** أثار نقاشا حادا فى مختلف الأوساط الأمريكية . وقد أوضح المؤلف – كما تقول مجلة **تايم** –[2] من واقع الإحصاءات أن معدل نمو السكان انخفض بشكل مخيف فى

---

(١) مجلة **Plain Truth**

(٢) عدد ٢٤ أغسطس ١٩٨٧ . أما عنوان الكتاب واسم مؤلفه فهو **Ben J. Wattenberg, The Birth Dearth**

الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى ، بينما تشهد الكتلة الشرقية على الجانب الآخر زيادة ملحوظة فى نمو السكان . أما العالم الثالث فإن عدد سكانه سيبلغ عشرة أضعاف سكان العالم الغربى خلال الخمسين سنة القادمة لو تواصل فيه الإنجاب بمعدله الحالى ، مما قد ينجم عنه أن تفقد الولايات المتحدة مكانتها كقوة كبرى فى العالم فى القرن الواحد والعشرين وبذلك يتقلص نفوذ العالم الغربى فى مضمار السياسة ليهبط إلى المرتبة الثانية . وحل هذه المشكلة – فى رأى المؤلف – يكمن « فى استعادة نساء الغرب دورهن فى إنجاب الأطفال كما كان الأمر فى قديم الزمان . . »

إن الوضع الذى أوجدته الحضارة الحديثة للمرأة يتناقض مع واقع الحياة العملية . مما حمل المفكرين الغربيين على الاعتراف بأن كسب معركة الحياة على العودة إلى المفاهيم « القديمة » بالنسبة إلى المرأة .

الحرمان من الرعاية

وتذكر مجلة تايم فى تحقيق صحفى بعنوان « انتحار المراهقين » بأن الولايات المتحدة تشهد زيادة مستمرة فى حوادث انتحار صبيان وفتيان تتراوح أعمارهم ما بين عشر وعشرين سنة . وقد ارتفعت هذه الحوادث إلى ثلاثة أضعاف عما كانت حتى عام ١٩٥٠ . ففى عام ١٩٨٥ أقدم على الانتحار ستون مراهقا (ومثلهم من الكهول) من بين كل مائة ألف شخص . وفيما يلى انطباعات ثلاث سيدات أمريكيات إزاء حوادث انتحار المراهقين .

تقول السيدة باربرا هويلر ، وهى خبيرة فى منع وقوع حوادث الانتحار بمدينة أوماها : « لا أظن أنهم يفكرون حول تحولهم إلى موتى ، بل كل ما يفكرون فيه عند الانتحار هو التوصل إلى وسيلة ما لإنهاء الألم ، وحل المشكلة ، أو المأزق الذى يجدون أنفسهم فيه » . وتقول إيلين لِيدَرْ التى شاركت فى إنشاء خط هاتفى مفتوح لمعالجة مشكلات المراهقين بمركز سيدارز سيناى الطبى بلوس أنجلوس :

« الكل فى رعاية الانشغال لدرجة أنه ليس لدينا من الوقت لنستمع إلى أولادنا » .
وتقول باربرا أوليرى ، وهى مضيفة بمطعم : « حين يحدث شيء كهذا أفكر كثيرا فى أولادى وآمل أن أكون قد ربيّتهم تربيةً سليمة . فهذه سنوات خطرة ، وأنت لا تعرف الأفكار التى تجول فى عقولهم »[1] .

وقد تلقت تايم بعد نشرها التحقيقَ الصحفى المذكور رسائلَ من عدد من المواطنين الأمريكيين ، تقول إحداها : « إن قلبى يدمى للعائلات المنكوبة التى انتحر أولادها . إننى أدرك مدى معاناتهم . لقد انتحر حفيدى البالغ من العمر ١٦ عاما بشنق نفسه . وستظل عائلتى مصابة بالحيرة : لماذا حدث ذلك ؟ ولن نتمكن من معرفة الأسباب الحقيقية للحادث أبدا »[2] .

ما السبب وراء ارتفاع حوادث انتحار المراهقين فى الدول المتقدمة ؟ السبب باختصار هو حرمانهم من عطف أولياء الأمور . هذه الدول تعانى من مشكلة « التفكك العائلى » على نطاق واسع مما غذّى الشباب المراهق بنزعة الانتحار . إنهم يتربون محرومين من عطف ورعاية الأسرة ، ويعانون من مختلف العقد النفسية خلال اجتيازهم عتبة المراهقة ، وهى تقودهم أحيانا إلى الانتحار .

وهناك عاملان رئيسيان لنشوء التفكك العائلى فى هذه الدول ، الأول هو إقامة الحياة الزوجية على أساس الترف الجسدى بدلا من الشعور بالمسئولية مما أدى إلى انتفاء قداسة التواصل والاستمرار فى العلاقات الزوجية . فبدأ الرجال والنساء بالاجتماع من أجل إشباع الرغبة لينفصلوا بعد انطفاء جذوتها . وقد أصبح الطلاق أمرا عاديا بسبب شيوع هذه الفكرة حيث يمضى كل من الرجل والمرأة فى سبيلهما ليحرم الطفل الذى أنجباه خلال هذه الفترة من ولى أمره ، فيتحول إلى « يتيم » وأبواه حيان يرزقان .

والعامل الثانى هو نهاية الحياة العائلية المشتركة فى تلك المجتمعات . فأسلوب

---

(١) تايم ، عدد ٢٣ مارس ١٩٨٧ .
(٢) المصدر السابق عدد ١٣ أبريل ١٩٨٧ .

الحياة المعمول به فى الغرب يحتّم على الطاعنين فى السن من الآباء والأمهات أن يلجأوا فى آخر أعمارهم إلى بيوت العجزة . . أما فى العائلة المشتركة فهناك الجد والجدة ليقوما بالعناية بالأولاد وتربيتهم . . أما المجتمع الغربى فلا يوسع لهما المجال داخل البيوت ، وانما هناك دُور للعجزة التى تقام خصيصا لأجل إيواء الطاعنين فى السن وهو وضع يواجهه الأبوان أيضا مع خلاف فى ظاهرة الأمر . فإن كان الرجل يعمل فعلى المرأة أيضا أن تعمل طبقا للنظام المعمول به فى الغرب ، حيث يمضيان أغلب أوقاتهما خارج البيت ، ولا يجتمعان مع الأولاد إلا فى « نهاية الأسبوع » ، وبصعوبة . فالطفل فى الغرب يحرم من عطف الجد والجدة بسبب انتقالهما للإقامة فى دار للعجزة ، ثم يحرم من عطف الأبوين لتوجهما إلى المكتب أو المصنع للعمل . والأطفال فى حالة كهذه سيواجهون حتما المصير الذى نراه فى المثال الآنف الذكر .

انتحار الشبان فى اليابان

نشرت صحيفة **تايمز أوف إنديا**[1] تقريرا عن اليابان تحت عنوان : « الانتحار أيسر السبل للنجاة لدى الشباب اليابانيين » . ويذكر التقرير أن هناك ارتفاعا ملحوظا فى حوادث الانتحار لشباب مادون العشرين فى اليابان . وكان عدد المنتحرين المراهقين قد بلغ ٥٥٧ شابا خلالَ عام ١٩٨٥ ، بينما ارتفع هذا العدد الى ٨٠٢ شاب أقدموا على الانتحار عام ١٩٨٦ . وأغلب المنتحرين من هؤلاء الشباب ألقوا بأنفسهم من سطوح البنايات محتذين حذو مطربة شعبية يابانية شابة (١٨ سنة) اسمها يوكيكو أوكاوا انتحرت بالقفز من فوق سطح عمارة فى أبريل ١٩٨٦ بعد فشلها فى الحب . . مما أدى بالشباب اليابانيين إلى محاكاتها ، ووضع حد لحياتهم حزنا على موتها ، وعلى أمل اللقاء بمطربتهم المفضلة فى الجنة . وقد عثر لدى عدد من الشباب المنتحرين على ورقة مدونا اسم المطربة المذكورة . وهذا من الأضرار التى تظهر فى المجتمع بسبب تقمص المرأة دور « نجمة » سواء

---

(١) عدد ٣٠ مارس ١٩٨٧ .

أكان على الشاشة الكبيرة أو الصغيرة ، أم فى صالات الغناء أو الرقص . إن تولى المرأة شئون البيت بفتح باب الحياة أمام الشباب ، أما اندفاعها إلى خارج البيت فيشكل أداة لهو ومتعة يعرض جيل الشباب للضياع والهلاك .

بعد عن الطبيعة

المولود الإنسانى أكثر مواليد المخلوقات وهناً وضعفا ، ويحتاج فى نموه الجسدى والعقلى إلى رعاية وتوجيه الأبوين لمدة طويلة ، ولأجل هذا أودعت الطبيعة فى الإنسان مشاعر محبة خاصة نحو مولوده .

وكان الأطفال يحرمون من حنان الأبوين ، فيما مضى ، نتيجة ظروف طارئة كالحرب ، أو الوفاة قبل الأوان بسبب حادث عارض ، مع ضمان استمرار رعايتهما للأولاد فى الحالات العادية طالما هم يحتاجون اليها .

ولكن الحالات الاستثنائية أصبحت أمرا عاديا فى المجتمعات الحديثة المتقدمة ، وهو ناجم عن المفهوم المعاصر للحياة الذى أساء إلى قداسة رابطة الزواج . فالأطفال يولدون الآن إما عن علاقات بدون زواج ، أو بعد الانفصال الذى يحدث بين الزوجين بعد الزواج بوقت قصير . والوضع فى كلتا الحالتين يؤدى إلى نتيجة واحدة : حرمان الأولاد من عاطفة الأبوين ، وإصابتهم بـ « اليتم » وهما حيان يرزقان .

وازدياد حالات « اليتم » من هذا القبيل يسبب للمجتمعات الحديثة أنواعا من مشكلات مستعصية ، منها ما يطلق عليه « قزمية الحرمان » Deprivation Dwarfism فى الأبحاث الطبية التى أجريت مؤخرا فى الغرب . وتوضح نتائج هذه الأبحاث مدى الأضرار الناجمة عن أساليب الحياة المتبعة فى الغرب ، وهى تتلخص فى أن افتقار الأولاد إلى عطف ورعاية الأبوين فى مقتبل أعمارهم يعوق نموهم الجسدى والعقلى ، ويتسبب حتى فى حدوث الوفاة قبل الأوان . ويقول خبراء الطب : إن الآلام التى يسببها مرض « قزمية الحرمان » تزيد من حالات

الوفاة بين الأطفال اليتامى . ويذكر أن الطفل المصاب بمرض « قزمية الحرمان » لا ينال القسط المطلوب من النوم ، ويعانى من سوء الهضم . وقد لوحظ أن الأطفال الرضع الذين يلقى بهم على الأسرَّة فى المستشفيات يظلون مستلقين على ظهورهم لفترات طويلة ، مما يحدث الصلع فى مؤخرة رؤوسهم ، وذلك بسبب افتقارهم إلى أم تقوم بتعديل وضعهم على السرير من حين لآخر . والأطفال الذين ينشأون فى دور الحضانة محرومين من عطف الأبوين يفتقرون كذلك إلى النمو العقلى والجسدى المتكامل . ومثلما يصاب الجسد البشرى بالقزمية فكذلك الروح البشرية هى الأخرى تصاب بالقزمية . والعلاج الوحيد لهذا السقم هو العطف والاهتمام المنبثقان عن مشاعر الحنان الأبوية التى لا يوجد لها أى بديل[1] .

وتشير نتائج بعض الأبحاث العلمية إلى أن هناك موجات تنبعث من السطح العلوى للدماغ وتسرى فى جسد الإنسان لتتولد بسببها الهورمونات على اختلاف أنواعها ، والتى يحتاج إليها الجسد البشرى فى بنائه ونموه ، من بينها هورمون يحول البروتين إلى السكر . والأطفال الذين ينشأون محرومين من عطف الأبوين يتقلص فيهم هذا العمل الطبيعى ، مما يؤدى إلى فشل أجسام هؤلاء الأطفال فى استهلاك كميات البروتين المتواجدة فيها والتى تعد عاملا أساسيا لنموها .

ويظهر من هذا أن الانحراف عن طريق الطبيعة يجلب الدمار . وليس بوسع البشر أن يصنع لنفسه عالما آخر دون العالم الذى خلقه الله لأجله ، الأمر الذى يحتم عليه التوافق مع هذا العالم . إن أية محاولة لارتياد طريق غير طريق الطبيعة سيقودنا – لا محالة – إلى الضياع والهلاك .

تجربة التحرر من القيد

نشرت مجلة **نيوزويك** الأمريكية[2] صورة لمظاهرة نسائية فى الولايات المتحدة ، تتقدمها شابة ترفع لافتة تقول : « احتفظ بقوانينك ومبادئك الأخلاقية بعيدا عن جسدى » . ويوضح المقال المنشور فى المجلة حدوث الانشقاق فى المجتمع

---

(١) جريدة إيفننغ نيوز (دلهى الجديدة) ٢٧ يونيو ١٩٨٤ .

(٢) ٢١ يناير ١٩٨٥ ، ص٣٥ .

الأمريكي : فهناك فئة تؤيد الإجهاض علانية ولا تصف نفسها بـ« أنصار الإجهاض » بل بـ« أنصار الانتقاء » Pro-Choice وفئة أخرى تعارض الإجهاض وتسمى نفسها بـ« أنصار الحياة »Pro-Life.

ويدعى المفكرون المعاصرون فى الغرب أن الحرية هى أهم اكتشافاتهم . إلا ان تجربة التحرر غير الملتزم التى يخوضها الغرب الحديث توضح أن الحرية لن تكون الخير المطلق أبدا . لأنها لو كانت كذلك بالفعل لما آلت إلى هذا المصير المقزز الذى نرى أحد مشاهده من خلال مقتطفات المجلة الأمريكية الآنفة الذكر . وتتميز الحرية بكونها أغلى ما فى الوجود بدون جدال ، إلا أن الخير المطلق بالنسبة إلى الإنسان هى الحرية الملتزمة وليس التحرر المطلق ، أى حرية الإنسان إزاء الإنسان الآخر والالتزام إزاء الله .

والإنسان يقف عل منتصف الطريق بين الله وعباده . فهو يتمتع بكامل الحرية فى التعامل مع أمثاله من بنى البشر ، ومع ذلك هناك حقيقة أكثر وضوحا وهى أن الإنسان يتميز بالالتزام التام أمام الله ، وهذا يعنى أنه يجب على الإنسان استخدام حريته فى حدود الالتزام بأوامر الله . ويشكل هذا الالتزام أكبر ضمان لعدم إساءة استخدام الحرية .

اعتراف زعيمة أمريكية

قامت رهودا ليرمان ، الروائية الأمريكية المعروفة ، وإحدى القيادات النسائية البارزة فى الولايات المتحدة ، بزيارة الهند خلال شهر أبريل سنة ١٩٨٧ . وفى لقاء مع صحيفة **تايمز أوف إنديا**[1] فاجأت السيدة ليرمان المراسل بقولها : « أحمل أنباء سيئة للغاية » . وفى معرض حديثها عما أصاب دور المرأة فى المجتمع من تطورات قالت : إن النساء والأطفال يشكلون نسبة ٧٧ فى المائة من الفقراء فى أمريكا . وسبب هذا فى اعتقادها هو عدم تكافؤ الأجور ، والبون الشاسع

---

(١) عدد ٣٠ أبريل ١٩٨٧ .

فى دخول الرجال والنساء ، إذ لا يبلغ دخل المرأة إلا ٦٢ فى المائة مما يتقاضاه الرجل ، وذلك بحجة تكليفها بأعمال « غير خشنة » . إن دعاوى التكافؤ فى فرص العمل وأجور موحدة لأعمال مماثلة ليست أكثر من خرافة و لم تتمكن المرأة من الوصول ، فى أغلب الأحيان ، إلا إلى مواقع إدارية أدنى ، أو متوسطة أو فى وظائف السكرتارية . وتعتقد الكاتبة الأمريكية أن هذا الوضع نابع عن التمييز ضد النساء من قبل الرجال الذين يرون ان المرأة ليست موضع اعتماد بسبب طلبها إجازات الوضع والرضاعة . وبالرغم من أن ٩٦ فى المائة من النساء العاملات لديهن أطفال إلا أن ٦٧ فى المائة منهن فقط ينعمن بإجازة الوضع بدون خوف من تعرض وظائفهن للخطر ، إلا أنهن يخسرن الترقية فى كل الأحوال . وترى السيدة ليرماك أن حالات الوضع ورعاية الأولاد تسبب تفاوتا كبيرا فى الأجور ، لأن الواقع الاقتصادى لا علاقة له بالمساواة غير المادية . لقد طالب أنصار حركة تحرر المرأة بإلحاح بالمساواة بين الجنسين ، وحق الإجهاض للمرأة ، وكسبوا معركتهم دون أن يتوقعوا الأضرار الاقتصادية اللاحقة .

لقد أُعتبرت المرأة « مساوية » للرجل بحكم المبادىء التى تبنتها الحركة الثورية النسائية ، ولكن بدون أن تحصل على أية امتيازات بسبب الفروق البيولوجية . وعلى سبيل المثال : كل ثانى زواج فى الولايات المتحدة ينتهى إلى الطلاق ، لتتحمل المرأة وحدها بعد ذلك مسئولية تربية الطفل . ولا تعدو القوانين الخاصة بحق النفقة والإعالة أن تكون حبرا على ورق ، وقلما توضع موضع التنفيذ . ولا توجد أكثر من خمسة إلى عشرة فى المائة من الرجال الذين يقومون بدفع المبالغ المقررة للإعالة ، وذلك أيضا خلال السنة الأولى عقب انفصال الزوجين . أما بعد ذلك فالأم وحدها تتحمل كل الأعباء . وهكذا ينخفض مستوى المعيشة بالنسبة للمرأة المطلقة بنسبة ٧٣ فى المائة ، ويرتفع لصالح الرجل بنسبة ٤٣ فى المائة . ويطلق على هذا الوضع الاجتماعى الأعزب فى الغرب وصف « أحادى الأبوين » Mono-Parent .

وأضافت الروائية الأمريكية تقول : إن عدد العائلات التى تقوم فيها المرأة بدور

« الأم الخارقة » فى تزايد مستمر ، إلى درجة أنه يتربى خلال السنوات العشر القادمة نحو ٤٠ إلى ٥٠ فى المائة من الأطفال فى عائلات تتولى فيها المرأة وحدها أعباء الحياة . وهى ظاهرة غير صحية تؤدى إلى ارتفاع حوادث انتحار الأطفال . وعلى حد تعبير السيدة ليرمان : « الافتقار إلى عائل يعتمد عليه فى إطار الأسرة يرفع من معدل الانتحار ، ويجعله مرضا شائعا بين الأطفال » .

وتعتقد السيدة ليرمان أن حركة نسائية اشتراكية تأخذ بعين الاعتبار الفروق الجوهرية (الناشئة عن التباين الجسدى) بين الرجل والمرأة هى ما نحتاج إليه اليوم . لقد كان حلمنا المفرط عن الحياة الأمريكية يتلخص فى زوج يمارس العمل ، وبيت فى الضاحية ، وطفلين ، وسيارتين ، وأم تمكث فى البيت ؛ لتجهز الكعكات ، إلا أن الحركة النسائية الجديدة شوشت على هذا الحلم وحطّمته .

وهى ترى أنه بعد تفكك النظام العائلى لا يوجد هناك أى حل لهذه المشكلة إلا أن تبادر الحكومة بمدّيد العون ، وذلك بإقامة حضانات حكومية ، ومنح إجازة الوضع ، وتقديم الدعم المالى للتغلب على المصاعب المعيشية للنساء اللواتى يعشن وحدهن . وبدون اتخاذ هذه الإجراءات قد تتحول انتصاراتنا على صعيد الحركة النسائية إلى انتصارات كاذبة ، على حد تعبير السيدة رهوداليرمان ، وهى ربما تماثل الحرية التى تختبرها الأرملة الهندوسية وهى تحترق فى المحرقة مع جثمان زوجها[1] .

لقد اعترفت الزعيمة الأمريكية بأن إنجازات الحركة النسائية لم تكن إلا انتصارات كاذبة ، وهو أصدق تعبير عن الانتصار الذى حققته المرأة الحديثة بحصولها على درجة « المساواة » بعد كفاح دام طويلا ، إلا أنها فقدت كل ما

---

(١) الإشارة إلى شعيرة « ساتى » Sati الهندوسية القديمة التى كانت تقضى على الأرملة أن تحرق نفسها مع جثمان زوجها عند وفاته . وقد حرّم الإمبراطور المغولى (أكبر) ممارسة هذه الشعيرة لو كانت ضد رغبة الأرملة ، أما الإنجليز فحرموها نهائيا . ولكن لا يزال هناك كثيرون من الهندوس الذين يؤمنون بهذه الشعيرة ، وقد وقعت عدة أحداث لحرق الأرملة فى السنوات الأخيرة وخصوصا بولاية راجستهان الهندية (المراجع) .

كانت تملكها لأجل الوصول إلى هذه المساواة الوهمية . وتعتقد الزعيمة الأمريكية « أنه لا مناص ، لتعويض حرمان المرأة الغربية ، من أن تصبح الدولة ولية أمرها » ! . . وهى نفس الدولة التى مازال الرجال يهيمنون عليها تماما . فالمرأة التى لم تكن تقبل بالرجل كولى أمرها فى نطاق الأسرة ، دفعت ثمنا غالبا بلجوئها الى الخضوع لولاية الدولة التى يديرها الرجال .

مثالان

لقد سبب المفهوم الزائف للحرية مشكلات عديدة للعائلات فى الغرب ، لم تقتصر خطورتها على الفئات العامة والمتوسطة فقط ، وإنما طالت نتائجُها السلبية النخبةَ وفئات المثقفين أيضا . ونعرض هنا نموذجين من المجتمع الغربى :

لقد نشرت أخيرا بعض رسائل آينشتين ، التى عثر عليها أثناء البحث عن مجموعات أعماله ،[1] كتبها إلى سيدة تدعى ميليفا ماريك والتى أصبحت فيما بعد زوجته الأولى . وهذه الرسائل تكشف عن ملامح السعادة والتعاسة على حد سواء فى حياة آينشتين . كانت مليفا ماريك هذه تكبر آينشتين بأربعة أعوام . وتظهر الرسائل أن أم آينشتين كانت تعارض علاقاتهما بشدة مما سبب لهما خيبة أمل كبرى . ومع أنهما قد تزوجا فيما بعد ، إلا أن ميليفا ماريك سبقت بوضع ابنة من صلب آينشتين قبل أن يتم هذا الزواج . ولا تذكر المصادر عن مصير ابنته شيئا . ويبدو أنها لم تعش معه يوما . وكانت أولى لقاءات آينشتين والآنسة ماريك قد جرت فى المعهد التقنى الاتحادى بزيوريخ عام ١٨٩٦ . ثم اقترنا فى يناير ١٩٠٣ لينفصلا بالطلاق عام ١٩١٩ بسبب خيبة أملهما فى حياة زوجية سعيدة .

والنموذج الثانى نجدها فى حياة ولى العهد البريطانى الأمير تشارلز . وتعتقد

---

(١) وقد نشرت بعنوان **Albert EinsteinThe Collected Papers Of** والمعلومات التالية منقولة عن صحيفة تايمز أوف إنديا ، ٥ مايو ١٩٨٧ .

السيدة بينى جونور Penny Junor التى نشرت مؤخرا سيرة حياته بأنه قد اقترن بامرأة غير مناسبة . وصرحت السيدة جونور فى حديثها إلى الإذاعة البريطانية بأن الأمير إنسان كئيب ، وشخص يعانى من الوحدة والعزلة ، وهو يفتقر إلى الدعم ، والمساندة اللازمة من قبل زوجته ، وأن الأمير تشارلز والأميرة ديانا يتباعدان بعضهما عن بعض باطراد . وقالت بينى جونور : إنها « استنتجت هذا بعد التحدث إلى الأقربين لدى الأمير من حاشيته . وقد درس القصر بإمعان ما تناولته من الاستنتاجات فى كتابى ، ولكن لم يصفها أحد بأنها خاطئة »[1] .

نشرت مجلة تايم تحقيقا عن وزارة الدفاع الأمريكية تحت عنوان « مزج الجنس بالأسرار » . ويذكر التحقيق أن وزارة الدفاع الأمريكية يساورها القلق إزاء « شهادات الخلو » من السوابق لأكثر من ٢ر٧ مليون شخص . وكانت الوزارة قد استصدرت فى يناير ١٩٨٧ قانونا بتوسيع صلاحياتها لحمل موظيفها العسكريين والمدنيين والعاملين معها بعقود ، على تدوين بيانات شخصية عما إذا كان قد سبق لهم ارتكاب فضائح جنسية كالزنا ، والشذوذ ، والسفاح مع القربى ، وذلك للتأكد من ان المؤتمنين على أسرار الدولة متحصنون من التعرض لأى ابتزاز[2] .

وكان أنصار التحرر الجنسى قد زعموا أن العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج مجرد « إثم » فقط ، أى أنها قد تكون من الأعمال السيئة عند الله ، إلا انها - فى زعمهم - لن تلحق أى ضرر بقضايا الإنسان . ولكن التجارب الإنسانية قد أثبتت أن الشخص الذى يتخطى إطار الزواج الشرعى فى علاقاته الجنسية غير جدير بالثقة ، وانه يعانى فى أخلاقياته من « ثغرة » قد يتسلل من خلالها الأعداء إلى ما هو « سرى للغاية » .

فضيحة غارى هارت

فاز غارى هارت بترشيح الحزب الديمقراطى لخوض الانتخابات الرئاسية فى

---

(١) مجلة تايم ، عدد ١١ مايو ١٩٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، عدد ٢٥ مايو ١٩٨٧ ص٢٩ .

الولايات المتحدة عام ١٩٨٧ . وكانت الاستطلاعات تقول باحتمال فوزه فى الانتخابات ، إلا أنه استجد خلال الحملة الانتخابية حادث أثار زوبعة فى أرجاء الولايات المتحدة ، وأدى إلى انسحابه من معركة الرئاسة .

وكان غارى هارت ، البالغ من العمر خمسين عاما ، يقود حملته الانتخابية بهمة ونشاط . واستدان من أحد المصارف أكثر من مليون دولار لتمويل الحملة . وأثناء ذلك توجه خلسة فى أول مايو إلى مدينة ميامى فى عطلة نهاية الأسبوع ، حيث قضى يوما وليلة مع الممثلة دونارايس البالغة من العمر ٢٩ عاما . وقد علمت صحيفة ميامى هيرالد بالأمر فنشرته يوم ٣ مايو على صدر صفحتها الأولى تحت عنوان مثير « علاقات بين هارت وامرأة من ميامى » فتلقفته أجهزة الإعلام والبث ، وتداولته كافة الفئات فى كل مكان . وبدأت صور هارت ودينارايس تظهر جنبا إلى جنب ، وحينما توجه هارت أمطره المراسلون بالأسئلة عما إذا كان قد ارتكب الزنا ؟ وهكذا تم وضعه فى قفص الاتهام أمام محكمة الشعب .

ولو كانت صحيفة **ميامى هيرالد** قد نشرت نبأ مفاده بأن هارت وزوجته أمضيا ليلة داخل شقة فى مكان ما لما أثار من انتباه الناس واهتمامهم . ولكن حين كشفت الصحيفة عن أنه بات ليلة مع امرأة أخرى فى منزل بميامى ، أحدث هذا النبأ ضجة هائلة فى كل مكان . والحادث المشار إليه يقيم برهانا عمليا على أن إنشاء علاقات جنسية مع امرأة أخرى دون الزوجة تناقض الطبيعة البشرية . ولو لم يكن هذا العمل ضد الطبيعة البشرية لما نجح المناوئون لهارت فى خططهم للإساءة إلى سمعته .

واستغل هارت كل « أوراقه » ولباقته للتخلص من « الورطة » ، فرفض الاتهامات فى بداية الأمر ، ثم اتخذ موقف الدفاع والمماطلة فى إجاباته على أسئلة المراسلين ، وطلب إلى زوجته (لى هارت) لتقطع ١٫٣٠٠ ميل من هيمشاير ؛ لتحضر مؤتمرا صحفيا بمدينة دينفر للإدلاء ببيانها أمام المراسلين : « مادامت هذه القضية لا تضايقنى فلا أعتقد أنها تشكل مصدر إزعاج للآخرين » .

وأخيرا اعترف هارت حين أدرك أن جميع محاولاته للتستر على الفضيحة باءت بالفشل ، فصرح بأن « السفاح لا يشكل جريمة فى نظر القانون . إنه إثم فقط ، وذلك بين نفسى وزوجتى ، وبينى وبين الله » .

إلا أن تصريحات هارت لم تنجح فى إقناع الشعب الأمريكى ببراءته . وفيما كانت نتائج الاستطلاعات السابقة ترجح احتمال فوزه بالرئاسة وتضعه فى مقدمة المرشحين ، إذا بهذه الاستطلاعات نفسها تسجل فى فترة لاحقة انخفاضا حادا فى شعبيته . وفى النهاية وجد هارت نفسه وحيدا أعزل فى طول البلاد وعرضها . وعلى حد تعبير مجلة تايم[1] : كانت علاقاته الجنسية مع ممثلة « موتا سياسيا » له . وبعد خمسة أيام فقط من انكشاف فضيحته فى ٣ مايو أعلن هارت انسحابه من معركة الرئاسة ، واختفى من مسرح السياسة الأمريكية بهدوء .

وتختم مجلة تايم تقريرها المطول بقولها :

> الأمريكيون يطالبون الآن بمعلومات دقيقة حول زعمائهم السياسيين تماما كما كانوا يطالبون من قبل فيما يتعلق بالعلاقات الغرامية لكلارك غيبل واليزابيث تايلور . وبدلا من الانغماس فى تعقيدات الحد من الأسلحة أو المشكلات الاقتصادية يميل عامة الأمريكيين إلى البحث عن شخصيات يمكن الاعتماد عليها والتى يرتاح المواطن الأمريكى إلى ملكاتها فى التمييز والاستقامة الشخصية[2] .

ويعرب چورج ريدى الذى كان سكرتيرا صحفيا للرئيس الأمريكى الأسبق ليندون جونسون عن رأية فى هذا الصدد على النحو التالى : « الذى يهم فى مرشح رئاسة الجمهورية هو سلوكه . ولا يتضح هذا فى شىء أكثر من علاقاته مع المرأة .

---

(١) عدد ١٨ مايو ١٩٨٧ ، ص٦ .

(٢) المصدر السابق ص٧ – ٨ .

فهنا شخص يسألك أن تعتمد عليه بشأن حسابك المصرفى وأولادك وحياتك وبلدك لمدة أربع سنوات فما الذى تستنجه لو كانت زوجته نفسها لا تثق به ؟[1] .

والواقع هو أن إنشاء أى شخص علاقة جنسية خارج إطار الزواج يدل على افتقاره إلى الانضباط العقلى ، وعدم القدرة على كبح جماح أهوائه النفسية . إنه لن يكون موضع ثقة بسب سلوكه ، وسيعانى من نقطة ضعف فى شخصيته ومن مخاطر عدم الصمود أمام الإغراءات . وقد يقدم على التضحية بأهم المصالح القومية لأجل تحقيق نزوة من نزواته الشخصية . ومثل هذا الشخص ليس جديرا بالثقة فى الحياة العادية ناهيك ان يحظى بثقة الناس لتولى أهم منصب فى الدولة .

لقد أثبتت التجارب أن انتهاكات الحدود التى رسمها القانون الإلهى بشأن العلاقات الجنسية ليست – كما يبدو للعيان – خطيئة دينية فحسب ، بل إنها أحد أخطر الأمراض الاجتماعية . ولا تشكل « إثما » فقط ، بل هى جريمة . . وربما هى أكبر جريمة اجتماعية نظرا إلى عواقبها المدمرة .

أرحام للإيجار

من الأوضاع التى استحدثت فى العصر الحاضر دور « الأم بالوكالة » . وتقول الإحصاءات : أنه فى الفترة مابين ١٩٧٦ – ١٩٨٦ ولد ٥٠٠ طفل عن طريق الإخصاب الاصطناعى فى الولايات المتحدة . وتوجد بها حاليا حوالى ١٢ « مركز تفقيس » لهذا الغرض ، مع احتمال انتشارها فى المستقبل ، بسبب ما يعتقد أن ١٥ فى المائة من المتزوجين فى الولايات المتحدة ، على وجه التقريب ، غير مخصبين . وهم يعانون من العقم من وجهة نظر الطب[2] .

وكان وليام سترن وزوجته إليزابيث محرومين من الأولاد . فقررا استئجار رحم

---

(١) المصدر السابق ص١٥ .

(٢) تايم ، عدد ١٩ يناير ١٩٨٧ .

امرأة بغية حصولهما على طفل . وتعاقدا فى هذا الشأن مع مارى وهايتهيد مقابل عشرين ألف دولار . فتم حقن رحم السيدة المذكورة بالسائل المنوى الخاص بالسيد سترن . وحين وضعت مارى مولودتها ثارت أمومتها فرفضت تسليم الطفلة إلى السيد سترن وزوجته . وعرضت القضية على إحدى المحاكم التى اعتبرتها قضية « عقد اجتماعى » وبناء على ذلك أصدرت حكما بتسليم الطفلة الى سترن . وحين وصل سترن برفقة خمسة من رجال الشرطة إلى منزل مارى - الأم بالوكالة - لتنفيذ قرار المحكمة هربت الأخيرة مع الطفلة من باب بيتها الخلفى . وألقى القبض عليها فيما بعد فى مدينة أخرى ، ونزعت الطفلة منها وسلمت إلى سترن وزوجته .

وقد تحولت هذه القضية إلى قضية أخلاقية وأثارت جدلا واسع النطاق فى الولايات المتحدة . وقال أسقف نيوجيرسى : « إن أسلوب الأم بالوكالة يحول الطفل إلى سلعة استهلاكية ، والأم إلى آلة لوضع الطفل »[1] .

وقد لوحظ ، بالإضافة إلى هذا ، أن المرأة التى تقوم بدور « الأم بالوكالة » وتنجب الطفل ، تظل تعانى من مضاعفات نفسية خطيرة . وتقول إليزابيث كين التى أنجبت طفلا بتأجير رحمها : « ذكريات طفلى تقلقنى ، وقد أحتاج إلى سنوات طويلة للتغلب على مشاعرى نحوه »[2] . إن اتجاه التحرر الجنسى غير الطبيعى يخلق مشكلات غير طبيعية . والوقائع المذكورة تكشف عن بعض ملامح هذه المشكلات .

نتائج تجربة المساواة المزعومة بين الجنسين

أصدرت سيدة أمريكية تدعى ليندا بيرتون كتابا حول تجاربها فى الحياة العائلية بعنوان : **ماذا تعمل امرأة شاطرة مثلك فى المنزل ؟**[3] وتلخص السيدة الأمريكية قصة حياتها قائلة : لم أكن أرغب فى البقاء بالبيت . وكنت أدوام العمل فى

---

(١) المصدر السابق ص٤٦ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) **Linda Burton, What A Smart Woman Like You Doing At Home ?**

شركة . وأنجبت أول أطفالى وأنا فى الثالثة والثلاثين من عمرى ، واضطررت إلى التخلى عن الوظيفة لأجل تربية الطفل ، إلى أن طرأت لى مشكلات مالية ، فاستأنفت العمل مرة أخرى . كان بوسعى أن أخصص لطفلى ساعات المساء والعطلات الأسبوعية ، واتضح أن هذا الوقت لم يكن يكفى للاعتناء به ، فلجأت إلى دار لحضانة الأطفال ، إلا أننى قررت الاستغناء عنها بعد شهر فقط لعدم كفاءتها . واضطررت إلى التخلى عن الوظيفة مرة أخرى والتزام البيت لأجل الاعتناء بالطفل . وقضيت سنتين أبحث عن دار حضانة أفضل للأطفال إلى أن أنجبت طفلى الثانى . وتوظفت مرة أخرى ، وسلمت الطفلين إلى دار لحضانة الأطفال تديرها بعض النساء فى بيوتهن ، إلا أن أسلوب عملها لم يقنعنى ، فجئت بمربية للأطفال إلى البيت . وفى النهاية اتضح لى أنه يستحيل على أى إنسان أن يعطى الحنان الحقيقى لطفل شخص آخر بالرغم من وضع القوانين الصارمة والإنفاق بلا حدود . لقد كنت أبحث عن شخص محب وحنون يتمتع بروح الدعابة ويكون نشطا ومفعما بالحياة ، يساعد على تنمية القدرات الإبداعية لأطفالى ، ويصحبهم فى النزهات الخارجية ، ويرد على أسئلتهم البريئة ، ويُهَدْهِدُهم حتى يستغرقوا فى النوم . وتوصلت – مع مرور الزمن وبصعوبة – إلى هذه الحقيقة المذهلة : أن الشخص الذى كنت أبحث عنه طوال السنين الماضية يقبع داخل نفسى . ومنذ ذلك الوقت أحاول جاهدة أن أسخر نفسى لهذا الغرض . وهذا ما تقوم امرأة شاطرة مثلى فى البيت[1] .

وكان قد تقرر – بفعل التوجيهات الدينية – المبدأ الاجتماعى القائل بأن يمارس المرء كسب العيش وأن تقوم المرأة برعاية شئون البيت ؛ ليمضى بهما ركب الحياة ، وفق مبدأ توزيع إطار العمل لكل منهما .

لقد كان هذا إجراءً « إداريا » ، ولم يكن يستهدف إعلاء شأن جانب والحط من قيمة الجانب الآخر . إلا أن حركة تحرر المرأة فى العصر الحاضر اعتبرت هذا

(١) نقلا عن ملخص للكتاب نشرته مجلة ريدارز دايجست ، عدد أغسطس ١٩٨٨ .

الأسلوب تقليصا من دور المرأة ، ورفعت الشعار الداعى إلى ممارسة الجنسين لكافة الأعمال بدون أى توزيع أو تحديد . وقد شاعت هذه الفكرة إلى درجة أن اندفعت أجيال من النساء الى خارج البيت فى كل بلاد العالم .

لقد مضى على تجربة المساواة المزعومة هذه نحو قرن من الزمان . ومورست هذه التجربة إلى أقصى حد فى العالم الغربى بصفة خاصة . إلا أن التجارب أبانت عن أضرارها فقط دون أن تقرر من جدواها شيئا . وأمثلة هذا الفشل تظهر باستمرار ، بأشكال مختلفة ، فى المجتمعات الغربية المعاصرة ومنها المثال الآنف الذكر .

لقد قام الدين بتوزيع أدوار العمل بين الرجل والمرأة ، بأن يمارس الرجل كسب العيش خارج البيت ، وأن تنصرف المرأة إلى إدارة البيت وتنشئة الجيل الجديد خلقيا . أما الحضارة الغربية الحديثة فقد ولّت ظهرها للتوجيهات الدينية فى هذا الصدد ، وما تمخض عنها من تجارب يقرر صدق التوجيهات الدينية من جديد وبقوة أكثر من ذى قبل .

المرأة فى الحرب

صدرت فى موسكو أخيرا الترجمة الإنجليزية لكتاب باللغة الروسية عن المرأة تحت عنوان **الوجه غير الأنثوى للحرب**[1] .

كانت الحكومة الروسية قد وجهت نداء عاطفيا إلى مواطنيها عند دخولها الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا (١٩٤١) بأن يهبوا للدفاع عن « الوطن » . وقد استجاب الشباب الروس لهذا النداء ، وانخرطوا فى صفوف القوات المسلحة من بينهم ثمانمائة ألف امرأة تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة . ويحتوى الكتاب الآنف الذكر على معلومات عن هؤلاء النسوة . وقد زارت المؤلفة مائة مدينة سوفييتية أثناء إعدادها للكتاب عبر أربع سنوات ، وقامت بإجراء أحاديث مع مائتين من النساء الروسيات اللائى شاركن فى الحرب العالمية الثانية .

---

(١) S. Alexiyevich, Wars Umwomanly Face, Progress Publishers, Moscow

ويكشف الكتاب عن جوانب هامة ذات عبرة فى حياة هؤلاء النسوة من بينها : أن أغلبهن كن يحاولن بعد انتهاء الحرب أن تبقى مشاركتهن فى الحرب طى الكتمان . وتقول إحداهن : « كنا نرغب فى أن نعود كالفتيات العاديات : الفتيات المطلوبات للزواج » .

وقد التقت المؤلفة بسيدة روسية مثقفة ، شاركت فى الحرب العالمية الثانية ، تدعى فيراسفارموفا دافدوفا . ومن بين الأمور التى أشارت اليها دافدوفا حسبما جاء فى الكتاب : أنها تعتقد بحزم أن ردود أفعال النساء كانت تختلف عن الرجال أثناء الحرب . لقد كانوا واقعيين وغير عاطفيين بينما كانت النساء يتصرفن بطريقة جد عاطفية .

لقد أجريت أبحاث كثيرة فى العصر الحاضر حول طبائع النساء ومواهبهن . وجرت محاولات لفهم دور المرأة كأنثى بأساليب علمية بحتة . وتؤيد نتائج هذه الأبحاث وجهة نظر الإسلام عن المرأة بطريقة مذهلة . فهى تكشف أن المرأة تتسم بالانفعال ، وهى عاطفية أكثر بالمقارنة مع الرجل . ويقرر هذا الاكتشاف بوضوح عدم صواب إقحام المرأة فى مجالات الحياة التى تتطلب امتلاك أعصاب قوية وعقول هادئة لدى البت فى أمرما ، واتخاذ الرأى بعيدا عن أية ضغوط خارجية ، أى فى المجالات التى تحتاج إلى « الرجولة » دون « الأنوثة » .

والسياسة ، والحرب ، والشئون الدولية ، والقضاء ، والمشروعات الصناعية الضخمة ،وأمثالها هى من مجالات الحياة التى تتطلب الانضباط العقلى ، ومقدرة البت فى الأمور بعيدا عن العواطف ، وتجاوز الدوافع الطارئة فى اتخاذ القرارات . وقد لوحظ عدم ملاءمة النساء لمثل هذه المناسبات بسبب عاطفيتهن الطبيعية ، بينما يتمتع المرء بوضع أفضل فى هذه الحالات ويتصرف بطريقة أمثل لكونه أقل عاطفية بالمقارنة مع المرأة .

وقد حدد الإسلام لكل من الرجل والمرأة مجال عمل متميزاً بسبب تباينهما التكوينى ، وهذا لا يرجع إلى التباين بين منزلتيهما ، بل الأمر يتعلق بتحديد مجال

العمل الخاص بكل منهما . وهذا التباين يطابق الأبحاث العلمية المعاصرة تماما . والواقع هو أن موقف أنصار حرية المرأة المزعومة فى هذا الشأن – وليس موقف الإسلام – هو الذى لا يطابق حقائق المنهج العلمى .

التقدم نحو الهاوية

أصدرت مجلة تايم[1] الأمريكية عددا خاصا فى سنة ١٩٨٦ بعنوان « رسالة إلى عام ٢٠٨٦ » ، تتخيل مختلف جوانب الحياة فى الولايات المتحدة بعد قرن . وفى القسم الخاص بالأسرة تقول المجلة :

> العائلة الأمريكية التى كانت قبل خمسين سنة فقط صخرة بنت عليها البلاد معبدها إلا أنها تحطمت إلى ذرات ، وكل ذرة منها تدور فى فلكها . والمرأة الأمريكية التى نبذت حياة ربة البيت قبل ١٥ سنة لتبنى مكانتها فى سوق العمل هى تحاول الآن إقامة توازن دقيق بين هذه الأشكال الثلاثة المتنافرة . ويجد الرجل الأمريكى نفسه فى أرض جديدة ومخيفة ، وهو يعمل جاهداً للمواءمة معها . وحين ينفصل الرجل الأمريكى ، والمرأة الأمريكية وهو ما يحدث لنصف المتزوجين هذه الأيام فيجد الطفل الأمريكى نفسه فجأة مخذولا ، فينمو بدون أساس يرتكز عليه .

لقد اعترفت فئة المثقفين الأمريكيين لدى نهاية القرن العشرين بأن الطريق الذى انتهجته الولايات المتحدة فى بداية هذا القرن زاعمة بأنه يفتح لها أبواب التقدم ، انتهى بها إلى شفا الهاوية . لقد تفكك النظام العائلى فى الولايات المتحدة بسبب دفع المرأة إلى خارج البيت ، فضلا عن أن الخطة الخلابة لـ« تحرير » المرأة أحدثت من الناحية العملية حالة عدم الاستقرار فى الحياة الزوجية ونجمت عنها مساوىء اجتماعية لا تعدّ ولا تحصى .

---

(١) عدد ١٩ ديسمبر ١٩٨٦ ص٢٠ – ٢١ .

وقد برز فى الولايات المتحدة اتجاه جديد يدعو إلى إعادة النظر فى المفاهيم السابقة . إلا أن المرأة الحديثة لم تعد تقبل باستئناف دورها كربة بيت مما أدى بالمرأة التى تنتهج طريق الحياة الجديد إلى تحمل الأعباء المنزلية (الداخلية) ، والمعيشية (الخارجية) فى آن واحد . . ما أغرب هذا التقدم الذى ينتهى إلى الخراب والدمار . وما أغرب هذه الحرية التى تتحول إلى اللاحرية فى الحياة العملية ؟ .



مركز المرأة فى الشريعة الإسلامية

يحتوى القرآن والسنة النبوية على أحكام عمومية شاملة عن المرأة ، كما يتضمنان توجيهات محددة فيما يتصل بالعلاقات بينهما . وفيما يلى قبس من آيات الكتاب وما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم . . لنتدبرها قبل أن نبدأ فى تبيان النظرة الإسلامية تجاه قضية المرأة .

آيات قرآنية

• ... ﴿ وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾[1] .

•... ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة . والله عزيز حكيم ﴾[2] .

• ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر : نصيبا مفروضا ﴾[3] .

• ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . . ﴾[4] .

• ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾[5] .

• ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك

---

(١) النساء : ١٩

(٢) البقرة : ٢٢٨

(٣) النساء : ٧

(٤) الروم : ٢١

(٥) غافر : ٤٠

يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾[1] .

• ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[2] .

• ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله . إن الله عزيز حكيم ﴾[3] .

• ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفّرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله . والله عنده حسن الثواب ﴾[4] .

أحاديث

• « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى . ما أكرم النساء إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم »[5] .

• « لايفرك مؤمن مؤمنةً ، إن كره منها خلقا رضى منها آخر »[6] .

• « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم لنسائهم خلقا »[7] .

---

(١) النساء : ١٢٤

(٢) النحل : ٩٧

(٣) التوبة : ٧١

(٤) آل عمران : ١٩٥

(٥) **كنز العمال** ، مكتبة التراث الإسلامى (حلب ، ١٣٩٧ /١٩٧٧) /١٦ /٣٧١ . وقد ورد الجزء الأول من الحديث فى سنن ابن ماجه ، كتاب النكاح /٥٠ ، باب حسن معاشرة النساء ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، ط . دار إحياء التراث العربى (بيروت ١٩٧٩) ١ /٦٣٦ .

(٦) **صحيح مسلم** ، كتاب الرضاع ، باب الوصية بالنساء ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، ط . المكتبة الإسلامية (استانبول ، ب .ت) ٢ /١٠٩١ .

(٧) **صحيح الترمذى** ، أبواب الرضاع ، باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها ، ط . دار الكتاب العربى (بيروت ، ب .ت) ٥ /١١٠ .

وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم المرأة المثالية على الوجه التالى :

• عن أبى هريرة قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى النساء خير ؟ قال : « التى تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فى نفسها ولا فى مالها بما يكره »[1] .

ويمكن تقدير مدى تكريم الإسلام للمرأة من خلال الروايات الآتية :

• عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدنيا كلها متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »[2] .

• عن ثوبان قال : لما نزلت ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ...** ﴾ إلخ[3] كنّا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، فقال بعض أصحابه أُنزل فى الذهب والفضة ما أنزل ، لو علمنا أى المال خير فنتخذه . فقال : « أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه »[4] .

• عن أبى أُمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة . إن أمرها أطاعتْه ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله »[5] .

• عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا ، وزوجة لا تبغيه خوفا فى نفسها ولا ماله »[6] .

---

(١) **سنن النسائى** ، كتاب النكاح ، ط . دار الكتب العلمية (بيروت ب .ت) ٦ /٦٨ .
(٢) **المصدر السابق** ص٦٩ .
(٣) التوبة : ٣٤
(٤) **صحيح الترمذى** ، أبواب التفسير / سورة التوبة ، ١١ /٢٣٨ .
(٥) **سنن ابن ماجه** ، كتاب النكاح / ٥ ، باب أفضل النساء ، ١ /٥٩٦ .
(٦) الهيثمى ، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، كتاب النكاح ، باب فى المرأة الصالحة ، ط . دار الكتاب العربى (بيروت ، ب .ت) ٤ / ٢٧٣

• عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ... « واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا »[1] .

• « حُبِّبَ إلىَّ من الدنيا النساء والطيب وجُعلت قرة عينى فى الصلاة »[2] .

• ... « إنما النساء شقائق الرجال »[3] .

• ... « فاتقوا الله فى النساء »[4] .

• « الجنة تحت أقدام الأمهات »[5] .

• « من عَالَ ثلاثَ بناتٍ فأدّبهن وزوّجهن وأحسن إليهن فله الجنة »[6] .

• « من كانت له أنثى فلم يئدها و لم يهنها و لم يؤثر ولده عليها (يعنى الذكور) أدخله الله الجنة »[7] .

• « ألا أدلكم على أفضل الصدقة ؟ ابنتك مردودة إليك ، ليس لها كاسب غيرك »[8] .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب النكاح ، باب الوصاة بالنساء (فتح البارى شرح البخارى ٩ / ٢٠٦ - ٢٠٧)

(٢) سنن النسائى ، كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ، ٧ / ٦١ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الطهارة ، ط . دار إحياء التراث العربى (بيروت ، ب .ت) ١ / ٦١ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب المناسك / ٨٤ ، باب حجة رسول الله ، ٢ / ١٠٢٥

(٥) جلال الدين السيوطى ، والجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ، ط . دار الفكر (بيروت ، ب .ت) ١ / ٥٣٦ . وذكر محمد ناصر الدين الألبانى أن « الصحيح » هو : « . . والزمها فإن الجنة تحت أقدامها » يعنى الوالدة . (صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ط . المكتب الإسلامى (بيروت ، ١٤٠٢ / ١٩٨٢) ١ / ٣٩٥)

(٦) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب فى فضل من عال يتيما ، ٤ / ٣٣٨ .

(٧) المصدر السابق ص٣٣٧ .

(٨) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب / ٣ ، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات ، ٢ / ١٠ - ١٢٠٩ .

• « من ابتلى بشىء من هذه البنات كن له سترا من النار »[1] .

مواصفات المرأة المؤمنة

ينبغى أن نتمعن فى الآية القرآنية التالية لكى نحدد الوضعية المشتركة للرجل والمرأة :

﴿ ... أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض . . ﴾[2] .

لقد استخدمت فى الآية الكريمة كلمات « بعضكم من بعض » للدلالة على المرأة والرجل ، باعتباره وصفا دقيقا وشاملا لوضعية كل من الرجل والمرأة . ويمكننا أن نعبر بكلمة أخرى فنقول : الرجل والمرأة شريكان مساهمان لبعضهما البعض على مدى الحياة . وكلاهما يشكلان جزءا من الآخروهما يقومان بدور الزميل للآخر على قدم المساواة . وبالرغم من تباينهما فى الوضع الجنسى على المستوى الأحيائى (البيولوجى) – لكون أحدهما ذكرا والآخر أنثى – إلا أنهما يتماثلان تماما على المستوى البشرى ، ويتمتعان بدرجة متساوية ، ولا تمييز بينهما فيما يكلفان به من واجبات وحقوق .

وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث له هذا الوضع بأسلوب آخر حين قال : « ... إنما النساء شقائق الرجال »[3] والشق معناه الصدع والخرق ، وهو النصف من كل شىء . ولو شقت قطعة خشب من وسطها لتوزعت إلى جزأين متساويين . والشقيق جزء واحد من شىء مشقوق الى جزأين ويقال للأخ : « الشقيق » وللأخت : « الشقيقة » .

---

(١) صحيح الترمذى ، أبواب البر والصلة ، باب ما جاء فى النفقة على البنات والأخوات ، ٨ / ١٠٥ .

(٢) آل عمران : ١٩٥ .

(٣) سنن ابى داود كتاب الطهارة ١ / ٦١ .

وبناءً على هذا التوضيح اللغوى ، فإن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يعنى أن النساء هن النصف الثانى - أو الآخر - من الرجال . وتصف الحضارة الحديثةُ المرأةَ بـ« النصف الأفضل Better Helf » ، وهو تعبير أدبى ، وليس تعبيرا علميا . أما وصف النبى صلى الله عليه وسلم بأن المرأة تشكل النصف الثانى - أو الآخر - من الرجل فهو أقرب إلى الصواب ، وأصدق تعبيرا عن الواقع العلمى ، وهو يوضح موقف الإسلام الشامل عن المرأة . ويمكن اعتبار هذا الكتاب إيضاحا وتفصيلا لمجمل ما جاء فى هذا الحديث النبوى الكريم .

مبدأ توزيع العمل بين الرجل والمرأة

لقد اتخذ الإسلام مبدأ توزيع العمل إلى حد ما لأجل تحديد إطارَىْ عمل الجنسين فى الحياة الاجتماعية . فدائرة نشاط الرجل من حيث المبدأ تقع خارج البيت ، بينما دائرة نشاط المرأة تقع داخل البيت أساسا . ولم يتم هذا التوزيع بدافع من التمييز بين الجنسين بل هو مراعاة لمميزاتهما الجنسية ، ولإيجاد المناخ اللازم لأجل أن يستخدم كل منهما مواهبهما الطبيعية على الوجه الأكمل ، وبدون إحداث أى خلل فى نظام الأسرة أو المجتمع . وبعبارة أخرى : لقد أخذ بهذا التباين فى الاعتبار على أساس « ترتيبات إدارية » وليس لأجل تحديد أولوية جنس على الآخر .

إن متطلبات الحصول على المغفرة والرضا الإلهيين واحدة بالنسبة إلى كل من النساء والرجال . وكذلك تتماثل الأعمال المطلوب منهما للنجاة فى الآخرة .

لقد أودعت العبقرية الإلهية التباينَ الأحيائى (البيولوجى) فى المرأة والرجل لأجل إدارة نظام الحياة على الوجه الأمثل ، وفى إطار عمل منفصل لكليهما فى بعض شئون الحياة ، إلا أن المستلزمات الأساسية للظفر بمرضاة الله والفوز فى الآخرة مماثله بالنسبة إلى الجنسين .

وإسلام المرء يبدأ فى الواقع من اكتشافه الواعى لله سبحانه وتعالى . وهذا

ما يوصف بالإيمان بالله . ويستلزم هذا الإيمان – لو كان حقيقيا – خضوع كل الرجال أو النساء أمام الله ، وتسليم أنفسهم إلى الله وتسخير كل ما يملكونه لله ، وتحمل المصاعب لأجل مرضاة الله ، والتخلى عن الكذب ، والتحلى بالصدق . . فهم يمتنعون عن تناول الطعام والشراب خلال شهر من كل عام ، ويكبحون جماح أهوائهم النفسية امتثالا لأوامر الله . وشعورهم بالعبودية وإدراكهم الواعى للذات الإلهية يجعلهم ممن يذكرون الله فى كل لحظة وبكل مناسبة .

قواسم مشتركة بين المؤمن والمؤمنة

هذه هى المواصفات المطلوبة عند الله فى سائر البشر مهما كانوا رجالا أم نساءً وقد تناولها القرآن على الوجه الآتى :

﴿ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾[1] .

وتحتوى الآية الكريمة أعلاه على كافة المواصفات الأساسية التى يجب أن يتحلى بها كل رجل أو كل امرأة يود الانخراط فى سلك الواصلين من عباد الله . ويمكن شرح هذه المواصفات كما يلى :

الإسلام : هو نقطة البداية على الطريق نحو الله ، وهو يعنى أن تقتنع النفس البشرية بطاعة الله ، وأن يصوغ الإنسان حياته على أساس تنفيذ أوامر الله فى كل شأن من شئونه .

الإيمان : هو الاكتشاف الواعى من قبل الإنسان للذات الإلهية خالقاً ومعبوداً أوحد . وهو عبارة عن انصهار الفكر الإنسانى فى الفكر الإلهى ، وبلوغ الإنسان

---

(١) الأحزاب : ٣٥ .

مرحلة اليقين بأن ما كشف الله عنه بواسطة رسوله هو أعظم حقيقة فى هذا الكون .

القنوت : هو الامتثال المخلص للأوامر الإلهية أى اتباع النهج الذى دعا إليه الله ورسوله بكامل التركيز العقلى وانشراح الصدر .

الصدق : هو التطابق بين القول والعمل ، أى أن ينطق الإنسان بلسانه ما هو عاقد العزم على تنفيذه فعلا ، وأن يعمل بما سبق أن عبر عنه بقوله ، وأن يلتزم طريق الاستقامة الأخلاقية فى حياته الخاصة وبين الناس .

الصبر : هو اتباع أحكام الدين وعدم التخلى عنها وتحمل كافة المصاعب فى سبيلها ، ومراعاة الالتزامات الدينية فى مواجهة أهواء النفس وإغواء الشيطان ، وعدم الابتعاد عن النهج الإلهى بدوافع غير إلهية .

الخشوع : هو التواضع والذل أمام الله ، وهى حالة تتولد عن الاستسلام أمام العظمة الإلهية واعتبار الله ذا سلطات شاملة فوق الجميع . وأبرز جوانب حياة الخاشعين هو أنهم يعيشون فى جو من خشية الله ، ويحملون مشاعر تدفعهم إلى الخضوع التام أمام الله ، والتعامل مع الناس بالتواضع والرفق والعطف .

الصدقة : هى أداء حقوق العباد فيما يملكه المسلم من أموال ، فكما أنه ينفق منها لإشباع حاجاته ، كذلك هو لا يهمل مد يد العون إلى المحتاجين .

الصوم : هو أن يمتنع المسلم عن الطعام والشراب لأجل الله . والصائم والصائمة يعيشان حالة نفسية تقودهما إلى أن يخوضا تجربة الافتقار إلى الله ، ويحمدا الله على مارزقهما من نعمه .

حفظ الفرج : هو اتباع طريق الاستعفاف والاستقامة فى الحياة الخاصة ، وتجنب الفواحش والمنكرات ، ومراعاة مشاعر الاستحياء التى أودعها الله فى الطبيعة البشرية .

ذكر الله : هو الاكتشاف الحقيقى للذات الإلهية ، وهو يؤدى بالإنسان إلى

الانصراف التام إلى ذكر الله . ومن يدرك اللهَ على حقيقته يذكره فى كل مناسبة ولحظة ، بقلبه ولسانه أينما كان .

وفى سورة التحريم (الآية ٥) أضيفت إلى مواصفات المرأة المؤمنة صفات ثلاث أخرى وهى : التوبة ، والعبادة ، والسياحة .

والتوبة : تعنى الرجوع ، أى العودة إلى الله تعالى بعد ارتكاب الخطيئة وهى من أبرز مزايا المؤمن والمؤمنة . وبما أن الدنيا دار اختبار ، والمغريات وأهواء النفس تؤدى بالإنسان إلى الوقوع فى الأخطاء مرة بعد أخرى ، فالأسلوب الأمثل هو أن يعود الإنسان إلى الله ، بعد كل زلة ، مستغفرا وتائبا بدافع من الخوف أمام مقدرته وجبروته . والتوبة اعتراف بعظمة الله وكبريائه ، وهو موقف إنسانى يقابل بالتقدير المماثل من عند الله تعالى .

والعبادة : تعنى عملا يمارس بدافع من الإيمان بعظمة وجود ماوراء الطبيعة ، وهى التعبد . وهذا العمل التعبدى يجب أن يكون موجها بالكامل إلى الله سبحانه وتعالى وهو لا يجوز لسواه . والمؤمن والمؤمنة يتعبدان لله وحده .

والسياحة : يوضحها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم على النحو الآتى :

عن أبى أمامة أن رجلا قال : « يارسول الله ائذن لى فى السياحة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله »[1] .

والسياحة أن ينشط الإنسان فى سبيل الله ، كارتحال لطلب العلوم الدينية ، والهجرة من مكان إلى آخر لأجل دين الله ، وزيارة المواقع الطبيعية والأماكن الأثرية والتاريخية لتكون درسا وعبرة ، والسعى لأجل دعوة الناس إلى دين الله .

وقال الراغب الأصفهانى فى **المفردات** : « سائحات أى صائمات قال بعضهم : الصوم ضربان : حقيقى وهو ترك المطعم والمنكح ، وصوم حكمى وهو حفظ الجوارح عن المعاصى كالسمع والبصر واللسان . فالسائح هو الذى يصوم هذا الصوم دون الصوم الأول ، وقيل : السائحون هم الذين يتحرون ما

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ٣ / ٥ .

اقتضاه قوله (الحج /٤٦) ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ﴾[1] .

والمواصفات السالفة الذكر لا تعتبر حكرا على جنس دون آخر ، بل هى ترتبط بالرجل والمرأة كليهما ، لكونهما من أساسيات الإسلام ، وطريق النجاح والخلاص للنساء والرجال على حد سواء .

مثال المرأة المؤمنة

تساهم النساء فى النشاط الدينى من خلال قيامهن بدورين : أحدهما عام ، والآخر خاص بهن ، شأنهن فى ذلك شأن الرجال .

والدور العام المطلوب من كل امرأة يحتم أولا : أن تقوم على المستوى الشخصى بأداء كافة واجباتها نحو الله وعباده ، أى أن تقوم بإصلاح معتقداتها ، إزاء الذات الإلهية بصفة خاصة ، وأن تمتثل لأوامر الله ، وأن تلتزم طريق العدل بكل مناسبة من مناسبات الحياة ، وأن تجاهد النزوات ووساوس الشيطان ، وأن تدفع الالتزامات البدنية والمالية المقررة من عند الله ، وأن ترجح دائما قضية الفوز فى الآخرة على مكاسب الحياة الدنيوية ، وأن تعيش فى منزلها ، وبين أفراد عائلتها متحلية بالأخلاق الإسلامية ، وأن تضع نصب عينيها دائما ما تقتضيه توجيهات الإسلام لكل شأن من شئون الحياة .

وثانى أهم الواجبات الملقاة على عاتق المرأة أن تقوم بتوجيه وتربية أولادها . فكل امرأة تخوض تجربة الأمومة ؛ لترتبط هى ومولودها برباط لا ينفصم . وهذه العلاقة الوثيقة بين الأم ، وأولادها تؤدى إلى الإصلاح ، وقد تتسبب فى الفساد . وواجبها كامرأة مسلمة أن تستغل هذه العلاقة للإصلاح والبناء فقط .

والأمر الثالث الهام لكل امرأة هو ألا تتحول إلى مشكلة بالنسبة إلى زوجها وذويها وأقاربها . فـ« الأعمال المطلوب عدم إنجازها » أحيانا تكون أجدى وأهم

---

(١) تحقيق محمد سيد كيلانى ، ط . دار المعرفة (بيروت ، ب . ت) ص٢٤٦ .

للحياة من « الأعمال المطلوب إنجازها » . وقد تقصر المرأة فى هذا الشأن لكونها عاطفية أكثر . وكثيرا ماتثير النساء مشكلات لا لزوم لها فى علاقاتهن مع أزواجهن وأفراد عائلاتهن ، مما يتسبب فى انعدام السكينة والسعادة عن العائلة . ويبدو المنزل مقفرا رغم أنه يضم بين جنباته جميع أفراد العائلة وكافة وسائل الراحة والرفاهية . إن أكبر إنجازات المرأة أن تمتنع عن إثارة المشكلات داخل البيت والأسرة .

وبإمكان المرأة أن تقوم بإنجاز أعمال أخرى لو كانت تتمتع بمواهب أكثر وفرص أوسع ، وهو ما أطلقنا عليه بـ« الدور الخاص » للمرأة ، ونجد نماذجه بكثرة فى أحداث التاريخ الإسلامى .

وكانت عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم سيدة ذكية ، تتمتع بذاكرة قوية وتعلمت كثيرا من خلال معايشتها الرسول صلى الله عليه وسلم . ويمكن أن تقارن ذاكرتها بما يطلق عليه الآن وصف « الذاكرة الفوتوغرافية » ، أى الذاكرة القادرة على الاحتفاظ بانطباعات حية ، وتفاصيل دقيقة . لقد احتفظت السيدة عائشة فى ذاكرتها جميع ما سمعته من الرسول صلى الله عليه وسلم من أقوال ، وما شاهدته من أعمال . ولكونها أصغر سنا من الرسول صلى الله عليه وسلم بكثير فقد عاشت بعد الرسول صلى الله عليه وسلم حوالى خمسين سنة ، وأصبحت تسجيلا حيا لأقوال الرسول وأعماله . وظلت تنقل بدقة متناهية آثار السنة النبوية لمدة نصف قرن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . وعبد الله بن عباس الذى كان من أكثر أصحاب الرسول غزارة فى العلم ، وكان يلقب بحبر الأمة ، ويحتل مكانه البارز فى مجال تفسير القرآن ، قد تتلمذ على السيدة عائشة ، وتعلم على يديها قدرا كبيرا من العلوم الدينية بالإضافة إلى آخرين من الصحابة والتابعين الذين تفقهوا فى الدين بواسطة أم المؤمنين عائشة . وهى حالة تعتبر أسوة لسيدة مسلمة تخصصت فى علوم الدين ، وأثبتت دورها القيادى فى هذا المجال لصالح الناس .

كانت مهور الزواج متدنية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وارتفعت

قيمتها فى الفترة اللاحقة بسبب الرخاء الذى عم المجتمع الإسلامى . وقد أعرب سيدنا عمر رضى الله عنه عن استيائه إزاء المغالاة فى المهور منوها ، أثناء خطابه من على منبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلى أن مهور أزواج الرسول عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم تكن تزيد عن أربعمائة درهم ، وحذر الناس من مصادرة المبالغ الزائدة عن مهر أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم وإيداعها فى بيت مال المسلمين .

وما ان أنهى سيدنا عمر خطابه حتى نهضت امرأة من بين الجموع المحتشدة فى مسجد الرسول بالمدينة وقالت : يا أمير المؤمنين أكتاب الله أحق أن يتبع أم كلامك أنت ؟ فأجاب عمر : كتاب الله . فقالت المرأة : إنك أنذرت الناس بشأن عدم المبالغة فى المهور ، بينما ورد فى كتاب الله : ﴿ ... **وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا** .. ﴾[1] ، فما كان من عمر إلا أن اعترف بعدم صحة موقفه قائلا : « كل أحد أفقه من عمر »[2] . وهى حالة تبين أن بإمكان المرأة أن تدلى بدلوها فى قضية دينية اجتماعية على ملأ من الناس .

كان أحمد بن محمد أبو جعفر الطحاوى (٢٣٩ - ٣٢١) من كبار أئمة الفقه والحديث وكتابه **شرح معانى الآثار** يعتبر من أهم المراجع ، ولا يزال يحظى باهتمام الدارسين . ويذكر أن الإمام الطحاوى أملى على ابنته كتابه هذا حيث كانت تقوم بتدوين ملاحظاته وشروحه . وفى هذا النموذج نرى المرأة تساعد أحد ذوى قرباها فى مجال البحث العلمى والدراسات الدينية .

ومن خلال هذه المواقف يمكن لنا تقدير الفرص المتاحة أمام المرأة لإحراز التقدم فى حدود إلتزامها بتعاليم الإسلام .

---

(١) النساء : ٢٠

(٢) البيهقى ، **السنن الكبرى** ، كتاب الصداق ، ط . دار الفكر (بيروت ، ب .ت) ٧ / ٥٣٣ .

تكريم الإسلام للمرأة

هناك أمران اثنان يشكلان قاعدتين أساسيتين للإسلام : مخافة الله ، وتكريم الإنسان ، ينوه بهما القرآن على النحو التالى :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[1] .

وقد فسر البعض قوله تعالى **﴿ خلق منها زوجها ﴾** على أساس أن الله خلق آدم من الطين أولا ، ثم استخرج أحد الضلوع من قفصه الصدرى لتخلق به زوجته حواء . وهذا التفسير لا أساس له من الصحة ، ذكر فى التوراة ولم يرد فى القرآن . ورواية التوراة عن خلق حواء وردت كالآتى :

« ... فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام . فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما . وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأةً وأحضرها إلى آدم . فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى . هذه تدعى امرأة لأنها من إمرئ أخذت ... »[2] .

وقد أدخل بعض المفسرين رواية التوراة هذه فى التراث التفسيرى لتوضيح مفاهيم الآيات الواردة فى القرآن عن قصة خلق آدم وحواء . وقد فعلوا هذا رغم أنه قد تقرر بصورة لا تقبل الجدل أن التوراة قد تعرضت للتحريف والتشويه ، وتم خلط وصايا الأنبياء بكلام البشر العاديين ، ولأجل ذلك لا يشكل التوارة مصدرا موثوقا به ، ولا يجوز تفسير الآيات القرآنية على ضوئها .

ولا تدل الآية القرآنية السالفة الذكر ، أو آيات أخرى مثلها ،

---

(١) النساء : ١ .

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح الثانى ، الآيات ٢١ - ٢٣ .

على أن حواء خلقت من أحد « ضلوع » آدم . وقد وردت فى الآية « منها » وليس « من ضلع آدم » . وفسر كبار المفسرين « منها » « على أساس » من جنسها ، أى من جنس النفس البشرية ، وليس من جسد آدم . وقد ذهب أبو مسلم الأصفهانى إلى جانب آخرين من المفسرين إلى أن المراد من قوله تعالى : « وخلق منها زوجها » أى « من جنسها »[1] . وقال صاحب **البحر المحيط** : « وتحتمل أن يكون المعنى « من جنسه » لا من نفسه حقيقة »[2] .

ويستشف من آيات قرآنية أخرى أن « منها » تعنى « من جنسها » . فقد وردت فى القرآن كلمة « نفس » بمعنى « جنس » فى مناسبات عديدة . وتقدم الآيات القرآنية التالية إيضاحا أكثر لما ورد فى أول سورة النساء :

﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا .. ﴾[3] .

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها . . ﴾[4] .

﴿ فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا ﴾[5] .

ونلاحظ فى هذه الآيات أن كلمة « أزواج » استخدمت لزوجات عامة الناس كما استخدمت كلمة « زوج » لحواء زوجة آدم . وبناءً على ذلك فإن حواء خلقت من « نفس » آدم كما خلقت زوجات الرجال الآخرين من « أنفسهم » . ومن الواضح ألا يكون معناها أن زوجة كل رجل استخرجت من جسده وبالتالى لا

---

(١) انظر : محمد رشيد رضا ، **تفسير المنار** (دار المعرفة ، بيروت ، ب .ت) ٤ / ٣٣٠
(٢) ابن حيان الأندلسى ، **تفسير النهر الماد من البحر** (على هامش **تفسير البحر المحيط** ، ط٢ (دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨) ٣ / ١٥٣ .
(٣) النحل : ٧٢
(٤) الروم : ٢١
(٥) الشورى : ١١

يمكن توضيح كلمة « نفس » إلا بمعنى « جنس » ، أى أن الله تعالى خلق زوجاتكم من جنسكم نفسه ، ليؤدين مهام زميلاتكم فى الحياة .

وكما أن زوجات الرجال الآخرين هن بنات جنسهم ، ولَسْنَ يشكلن جزءا من أجسادهم على المستوى الأحيائى ، فكذلك حواء زوجة آدم كانت من جنسه ، لا أنها استخرجت من داخل جسده . وقد خلق الله زوجة آدم بمشيئته كخلقه آدم . كما خلق زوجات الرجال الآخرين بمشيئته الخاصة كخلقة هؤلاء الرجال .

أحاديث نبوية

أما بالنسبة إلى الأحاديث النبوية التى وردت فى هذا الشأن وتنص على كلمة « ضلع » فإنها أولا لم تتناول قصة خلق آدم وحواء ، وإنما وردت بشأن النساء بصفة عامة . أى أنها تصف الوضعية التكوينية للمرأة بصفة عامة وليس الوضعية التكوينية للسيدة « حواء » على وجه الخصوص . وتقول إحدى هذه الروايات :

« استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع »[1] .

وليس معناها أن المرأة خلقت فى الواقع من الضلع ، لعدم توافق هذا المعنى مع سياق الكلام ، لأن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يستهدف التأكيد على المعاملة الطيبة مع النساء ، ولأجل هذا سيكون التوضيح الموافق للغاية الأصلية لحديث الرسول هو الأقرب إلى الصواب . فالمقصود من « أنهن خلقن من ضلع » هو المعنى المجازى وليس الظاهر اللفظى ، أى أن وضع المرأة هو كوضع الضلع ، أو أنها مثل الضلع . وقد وردت رواية أخرى بالصياغة ذاتها :

« عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المرأة كالضلع إن أقمتَها كسرتها . . »[2] .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب النكاح ، باب الوصاة بالنساء ، (فتح البارى شرح صحيح البخارى ٩ / ٢٠٧) .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب النكاح باب المداراة من النساء (فتح البارى شرح صحيح البخارى ، ٩ /٢٠٦) .

فرواية البخارى هذه تذكر فى نص الحديث « الضلع » أى أن المرأة مثل الضلع . وشأنها شأن الضلع ، لا أنها خلقت من الضلع . ويلاحظ أن نص الحديث يتضمن وجه الشبه بين المشبَّه والمشبَّه به ، وهو أن أية محاولة لتقويم عَوَجِها ستؤدى إلى كسرها .

وتستهدف الصياغتان - « المرأة خلقت من الضلع » و « المرأة كالضلع » - الدلالة على معنى واحد ، وتباينهما اللغوى الظاهرى يرجع إلى تنوع أساليب الكلام الشائع فى أغلب اللغات العالمية ، إذ ان أداة التشبيه تحذف أحيانا لأجل تقوية التشبيه بين المشبه والمشبه به . وقد يقال للشخص الجسور : إنه مثل الأسد ، كما قد يقال لأجل التأكيد على جرأته : إنه الأسد . وهو أسلوب شعرى شائع حتى فى اللغة الأردية .

ويصف علماء النفس والأحياء المرأة بأنها « الجنس الناعم » لاتسامها بالضعف والوهن إزاء الرجل ، وانفعالها السريع إزاء الأحداث لكونها مرهفة المشاعر . وهو واقع يدركه الجميع مثقفا كان أم جاهلا . والأب قد يكون حازما فى تعامله مع الابن ، ولكن ينبغى التصرف مع البنت بالرفق لعدم قدرتها على تحمل القسوة . وتشير الإحصائيات إلى الارتفاع فى معدل حوادث انتحار النساء فى مقابل الرجال . فقد يسبب حادث بسيط فى إقبالهن على الانتحار ، أو إصابتهن بالانهيار العصبى .

وهذه هى الحقيقة الثابتة التى تناولها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بالأسلوب المجازى . والمعروف أن القفص الصدرى للإنسان يتكون من ضلوع معوجّة إلى حد ما . والصواب بقاؤها على عَوَجها . ولن تجد طبيبا جراحا يجرى عملية تجميل لتقويم اعوجاجها .

وبناء على هذا الوضع الطبيعى - المعروف من قبل الجميع - لجزء من جسد الإنسان شبّه به الرسول صلى الله عليه وسلم وضعَ المرأة ، وأمرنا بالتعامل مع النساء بما يلائم طبائعهن ، والتصرف معهن على أساس أنهن الجنس الناعم

وعاطفيات أكثر من الرجل . وقد خلقهن الله كذلك بمشيئته لدواعٍ خاصة ، مما يتوجب على الرجال مراعاة الرفق فى التعامل مع النساء دائما ، وإبلاغهن بأمر ما بالرفق والأسلوب الجميل . وإن كنت قاسيا فى تعاملك مع المرأة فهى لن تتحمل ذلك بوضعها النفسى والعضوى ، وستنجرح مشاعرها كما ينكسر الضلع لدى محاولة تقويمها .

وكان الرسول الكريم قد لاحظ ذات مرة فى إحدى رحلاته أن الجمال التى تحمل هوادج النساء تسرع من خطاها فأمر بابطأ سيرها رفقا بالنساء قائلا :

« ويحك يا أنجشه ! رويدك بالقوارير »[1]

أبحاث جديدة

لقد تقرر فى العصر الحاضر على مستوى البحث العلمى الدقيق أن هناك فروقا أساسية بين الرجل والمرأة . وتتضمن **دائرة المعارف البريطانية**[2] بحثا خاصا عن أوضاع النساء ، يقول : إن نتائج الدراسات المعاصرة تبين وجود فروق أساسية بين الجنسين من ناحية التكوين الجسدى :

> فيما يتعلق بمقومات الشخصية فإن الرجال يتميزون بنزعة أكبر نحو العدوان ، والسيطرة ، والإنجاز ، بينما النساء يتميزن بنزعة أكبر نحو التبعية ، والتوجه الاجتماعى ، والشعور بالإحباط بسهولة بالمقارنة مع الرجال .

ويقول الخبراء : إن الفروق بين الجنسين تعود إلى الجينات (المورِّثات » ، وليس إلى العوامل الاجتماعية . وكون المرأة عاطفية وانفعالية أكثر من الرجل هى

---

(١) **صحيح البخارى** : كتاب الأدب ، باب ما جاء فى قول الرجل ويلك (**فتح البارى شرح صحيح البخارى** ١٠ / ٤٥٤) .

(٢) ١٩ / ٩٠٧ . وقد سبق أن أورد المؤلف بعض الأمثلة الدالة على الفروق على ص٥٢ – ٥٦ أعلاه (المراجع)

نتيجة طبيعية لهورمونات متميزة . وتباين هورمونات الذكر عن الأنثى يتحدد فى المرحلة الأولى لتكون الجنين فى رحم الأم[1] .

وبما أن الإسلام دين الفطرة ، فنجد أن كافة أحكامه تنبع من حقائق طبيعية . والواقع أن صياغة الدواعى الطبيعية فى إطار قانونى هى الشريعة الإسلامية بعينها . وتوجيهات الإسلام عن المرأة تنطلق من هذا المبدأ الأساسى ذاته . والأبحاث المعاصرة فى مجالات علوم النفس والأحياء ووظائف الأعضاء تؤكد على أن المرأة تميل بطبيعتها إلى الانفعال . وقد خلقها الله ناعمة نسبيا لدواع اجتماعية خاصة .

وهذا هو الواقع الطبيعى الذى أُخذ بعين الاعتبار لدى صياغة توجيهات الإسلام عن المرأة . فالشريعة الإسلامية تقضى بضرورة التعامل مع النساء بالرفق تفاديا لإصابتهن بالإحباط ، وانجراح مشاعرهن ، وليؤدين دورهن المتميز فى الحياة على الوجه الأكمل . فالنساء لسن كالحديد فيقاومن الضربات تلو الضربات ، بل هن كالضلع الذى ينكسر بسهولة . فينبغى مراعاة وضعهن الطبيعى هذا ، لأن اعتبارهن كالحديد وممارسة العنف معهن يقودهن إلى الانهيار .

ملاحظات كبير قضاة الهند

سجل تشندرا تشود كبير قضاة الهند آنذاك ، لدى نطقه الحكم فى قضية محمد أحمد – شاه بانو[2] ملاحظة شخصية تقول :

> إن بعض الأسئلة التى تثور فى ضوء القانونين المدنى والجنائى هى ذات أهمية بعيدة المدى لقطاعات كبيرة من المجتمع تعرضت للمعاملة المجحفة بصورة تقليدية . والنساء إحدى هذه القطاعات .

---

(١) تايم ، عدد ٢٠ مارس ١٩٧٢ .

(٢) وهى القضية الجنائية رقم ١٠٣ / ٨١ بتاريخ ٢٣ أبريل ١٩٨٥ . وقد أثار حكم القضاء فيها رد فعل عنيفا لدى مسلمى الهند ، فقد اعتبروها تدخلا من القضاء فى شئون الأحوال الشخصية الإسلامية ، وذلك بإعطاء النفقة لمطلقة مسلمة بعد انقضاء العدة باعتبارها « متاعا » . ورضخت الحكومة لمطالب المسلمين وسنّت قانونا خاصا لحماية حقوق المطلقة المسلمة فى ضوء الشريعة الإسلامية (المراجع) .

وكان مشرع الديانة الهندوسية « مانو » قد قال : « المرأة لا تستحق الاستقلال » . ويقال « إن الجانب المهلك من الإسلام هو حطه من قيمة المرأة » . وينسب إلى النبى أنه قال : « المرأة خلقت من ضلع معوج ، ولو حاولت تقويمها لانكسرت ولذلك عاملوا زوجاتكم برفق » .

ولا يعنى ما ورد فى ملاحظة كبير قضاة الهند السابق أنه يشك فى صحة نسبة هذا القول الى الرسول صلى الله عليه وسلم . وإنما هو يقصد أنه بالرغم من قول الرسول أن المرأة خلقت من ضلع أعوج فلا ينبغى أن يثير من مخاوف أنصار تحرر المرأة لعدم تطابقه مع الواقع . فهو فى حقيقته ينفى صحة نسبته إليه .

وبوسع رجال القانون تقييم ملاحظات كبير قضاة الهند ، ومدى ارتباطها – بمنظور قانونى بحت – بالقضية المعروضة على المحكمة ، إلا أنه من المؤكد أن ملاحظاته هذه لا تطابق واقع البحث العلمى إطلاقا .

لقد استدل كبير قضاة الهند بحديث الرسول لدعم ما ادعاه بأن الإسلام يدعو إلى التعامل المجحف إزاء فئة من المجتمع (أى النساء) ، مع أن حديث الرسول – خلافا لادعاء كبير القضاة تماما – يطالب بقوة بالتعامل العادل مع النساء . فملاحظات كبير القضاة تطابق حقا ما نسب إلى « مانو » عن المرأة ، إلا أنها تناقض بشدة ماجاء فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

إن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد بوضوح على التعامل مع النساء بالرفق والحسنى ، فكيف يمكن الادعاء بشأنه أنه يوصى بالتعامل المجحف مع النساء ، أو التصرف إزاءهن باعتبارهن فى درجة أدنى من الرجال على غرار ما ذكر فى قول المشرع الهندوسى « مانو » .

وفيما يتعلق بكون المرأة « الضلع » فقد ورد فى كلام الرسول كتعليل للحث على التعامل الأفضل مع النساء لا نفيا لذلك التعامل الأفضل . وقد ذكرنا آنفا أنه مثل وأسلوب للكلام شبهت خلاله المرأة « بالضلع » لأجل وضعها النفسى

المتميز ، وللتأكيد على ضرورة معاملتها بالرفق وعدم التعسف معها ، لأن العسف يناقض طبيعة الأنثى ، ويسبب الفساد ، ولا يؤدى إلى الإصلاح .

خلاصة القول أن الآية القرآنية الواردة فى أول سورة النساء (« خلق منها زوجها ») توضح أن الله خلق آدم من النوع نفسه الذى خلق منه زوجته حواء ، مستهدفا إيجاد التوافق بينهما . فلو أنهما خلقا من نوعين مختلفين ، كأن يخلق أحدهما من الطين والآخر من النار لانعدم التوافق بينهما ، ولأدى إلى اضطراب الحياة العائلية ، ولما أمكن تشييد الحضارة الإنسانية بجهودهما المشتركة .

ويهدف حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (أن المرأة خلقت من ضلع) إلى التأكيد – من خلال استخدام أسلوب الاستعارة – على ضرورة التعامل مع النساء بالحسنى نظرا إلى صياغتهن الطبيعية المتميزة . ولقد أوصى به الرسول فى مناسبات كثيرة وبأساليب مختلفة ، والتزم به طوال حياته .

وكانت النساء فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة يؤدين صلوات الليل مع الجماعة فى المسجد ، وأحيانا كن يصحبن معهن الأطفال الصغار . ورغم تركيز الرسول صلى الله عليه وسلم بصفة خاصة كان يوجزها لدى سماعه بكاء طفل من هؤلاء الأطفال . وذكر البخارى فى صحيحه عن النبى الكريم صلى الله عليه وسلم قوله :

« إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى فأتجوَّز فى صلاتى كراهيةَ أن أشق على أمة »[1] .

وقد شبّه الرسول صلى الله عليه وسلم وضع المرأة « بالضلع » فى حديثه مستخدما الأسلوب المعهود للكلام من استعارة ومجاز . والسبب وراء ما أثير حوله من الشكوك هو تقييمه على ضوء ما ورد فى التوراة ، مع أن حديث الرسول

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الصلاة ، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبى ، (فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢ / ١٦٠) .

المشار إليه لا يمت برواية التوراة بأية صلة . لقد تناول الرسول فى حديثه واقعا طبيعيا ، وهو ما عبّر عنه آخرون ، كل بأسلوبه . وقد وصف الأديب الإنجليزى ميثوآر نولد هذا الوضع بقوله : « تجدى مع النساء حجة القلب لا العقل » .

مراسلة

لقد تناولنا فيما سبق ملاحظات السيد تشندرا تشود كبير قضاة الهند السابق ، والتى أدلى بها لدى نطق الحكم فى قضية محمد أحمد – شاه بانو الخاصة بالطلاق ونفقة الإعالة . وقد قمنا بتوجيه الرسالة التالية بشأن تلك الملاحظات إلى القاضى المذكور :

* * *

١٤ مايو ١٩٨٦

عزيزى السيد تشندرا تشود

أعطى لنفسى حرية مخاطبتكم لأنه بعد قراءة حكمكم فى قضية محمد أحمد -- شاه بانو أجد أن واحدة من ملاحظاتكم لا تتسم بالعدل إزاء الإسلام . فأنتم تزعمون أن المرأة تعرضت لمعاملة اجحفة بصورة تقليدية و[illegible] [illegible] [illegible] من الإسلام هو حطه من قيمة المرأة » . وللتأييد على هذا تنقلون عن « مانو » قوله : « إن المرأة لا تستحق الاستقلال » ، وأن رسول الإسلام قد قال : « المرأة خلقت من ضلع معوج ولو حاولت تقويمها لانكسرت ولذلك عاملوا زوجاتكم برفق » .

وبينما قول « مانو » يؤكد على بيانكم ، إلا أننى يجب أن أشير إلى أنكم قد أسأتم كثيرا فى النقل عن الرسول ، فلم يرد فى الأحاديث أن المرأة قد خلقت من ضلع أعوج ، بل يرجع هذا إلى رواية قديمة فى التوراة حول خلق الله الحياة البشرية ، أما كلمة « ضلع » التى استخدمها الرسول فهى مجاز بحت . والكلمات التى استخدمها هى : « المرأة كالضلع ، إن أقمتها كسرتها » .

وتقول **دائرة المعارف البريطانية** : « فيما يتعلق بمقومات الشخصية فإن الرجال يتميزون بنزعة أكبر نحو العدوان والسيطرة والإنجاز ، بينما النساء يتميزن بنزعة أكبر نحو التبعية ، والتوجه الاجتماعى ، والشعور بالإحباط بسهولة بالمقارنة مع الرجال » (٩٠٧/١٩) .

ولعل الرسول بفهمه العظيم للطبيعة البشرية كان يتمتع بإدراك عميق للفروق البيولوجية والنفسية الأساسية بين الرجال والنساء ، وخصوصًا ضعف النساء وسلبيتهن . ولذلك وجد من الضرورى أن يأمر الرجال الأقل حظًا من هذا الإدراك أن يعاملوا زوجاتهم برفق .

ولا يمكننى أن أرى كيف يمكن استنتاج الحط من قيمة المرأة من قول كهذا .

والآن ، وقد أوضحت هذه النقطة لكم ، يجدر بكم على الأقل أن تتراجعوا عن بيانكم أو أن تعدلوه .

المخلص / وحيد الدين خان

رئيس المركز الإسلامى بدلهى الجديدة

وكما أوضحنا آنفا ، فإن ملاحظات كبير القضاة السابق لا أساس لها من الصحة على المستوى العلمي الدقيق . ولكن أغرب ما فى الامر أنه امتنع عن الرد والتزم الصمت لدى لفت انتباهه إلى هفوته برسالة مكتوبة . فقد تم توجيه رسالة مسجلة إليه بتاريخ ١٧ ابريل ١٩٨٦ ، كما أعيد إرسالها فى ١٤ مايو ١٩٨٦ . ولم نتلق الرد على أى من الرسالتين . وفشلت جميع الاتصالات الهاتفية فى إقناعه على تحديد موعد لتبادل الآراء حول الموضوع ، مما يضطرنا إلى نشر نص الرسالة الموجهة إليه غير مرفق بها رده .

الإنسان يعتبر نفسه عادلا لدى نطق الحكم على الآخرين ، ولكنه يتحول إلى شخص غير عادل لو كان الأمر يتعلق بنطق الحكم على نفسه .

منزلة المرأة فى الإسلام

تتمتع المرأة فى الإسلام بالمرتبة ذاتها التى يتمتع بها الرجل . وقد ورد فى القرآن ﴿ ... **بعضكم من بعض** ... ﴾[1] للدلالة على وضعيتهما المشتركة . فلا يوجد أى تمييز بينهما فى الوضع الاعتبارى ، والحقوق ، وجوائز الآخرة . ومع ذلك ، فالرجل فى نظر الإسلام هو الرجل ، والمرأة هى المرأة . . . وهما يساهمان فى إدارة شئون الحياة على قدم المساواة . وقد شرع الإسلام مبدأ توزيع إطار العمل لكل منهما وليس التماثل فى إطار العمل .

ولا يجد الإسلام مبررا لشعور أى من الجنسين بالنقص إزاء الجنس الآخر ، ولايحبِّذ محاكاة الآخر لتعويض هذا النقص . . وقد ورد فى الحديث :

« لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال »[2] .

---

(١) آل عمران : ١٩٥

(٢) **صحيح البخارى** : كتاب اللباس ، باب المتشبهين إلخ (**فتح البارى شرح صحيح البخارى** ١٠ / ٢٧٣) .

وهكذا فإن خلق الإنسان موزع بين جنسَي الرجل والمرأة ، يرجع إلى التخطيط الإلهى مباشرة ، كما أن دفع عجلة التقدم فى الحياة البشرية يعتمد على هذا التوزيع . ولو حاول أى من الرجل ، والمرأة مخالفة هذا التوزيع فكأنه يخالف نظم الطبيعة . وسيكون هذا إجراءً تخريبيا محضا ، ولن يُعَدّ عمليةً بناءة بأية حال من الأحوال .

فالإسلام لاينظر إلى الرجل والمرأة على أن كلا منهما « بديل » للآخر ، وإنما يرى أنهما « يكملان » بعضُهما البعضَ ، أى أن الرجل ليس هو المرأة وليست المرأة هى الرجل ، بل توجد فروق بيولوجية بينهما لا يمكن تجاوزها . وهذا مراعاة لمبدأ توزيع العمل الذى اقتضته الحكمة الإلهية ، حيث تعوض المرأة جوانب النقص فى الرجل ، ويوفر الرجل ما تفتقر إليه المرأة .

وتصور الإسلام عن الرجل والمرأة يصدر عن تباينهما المؤكد فى الصياغة الطبيعية . فمن الحقائق الأحيائية أن الرجل والمرأة يتباينان تكوينيا . فالرجل من ناحية تكوينه أقدر على القيام بالأعمال « الخارجية » ، بينما فى المرأة من ناحية تكوينها تناسب أكثر للأعمال « الداخلية » . وقد تمت صياغة كافة القوانين الإسلامية على أساس هذا « التباين » الطبيعى و « التوزيع » فى إطار العمل . وتوجيهات الإسلام بالنسبة إلى الوضع الاجتماعى لكل من الرجل والمرأة تصدر عن مبدأ توزيع العمل ، وليس على أساس التماثل فى العمل .

اتفاقية ثنائية مدى الحياة

لقد وصف القرآن أمر الزواج بأنه « ميثاق غليظ »[1] أى عقد ثابت . ومن خلاله يمكن تقدير موقف الإسلام إزاء العلاقة المتوطدة بين الرجل والمرأة فى إطار الزواج والتى تعتبر اتفاقية ثنائية للحقوق والواجبات يرتبط رجل وامرأة من خلالها برباط دائم وحاسم ، ليساند أحدهما الآخر ، ويقطعا معا رحلة الحياة .

---

(١) الإشارة الى الآية ٢١ من سورة النساء .

ويجرى إبرام الاتفاقيات دائما بين طرفين . واتفاقية الزواج هى الأخرى تعقد بين طرفين . وقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن لكم من نسائكم عليكم حقا »[1] .

ولإلقاء مزيد من الضوء على هذا الموضوع نورد هنا مقتطفات أخرى من الكتاب والسنة :

المرأة مصدر خير للحياة فى كل الأحوال

﴿ وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾[2] .

تكشف هذه الآية الكريمة عن واقع معاش وهو أن كل شيء لا يحظى بالكمال من كل الأوجه فى هذا العالم . فلو كانت امرأة ما متفوقة فى ناحية فإنها تعانى من النقص فى نواحى أخرى ، وإن كان ينقصها شيء فهى ستكون قد حصلت على قصب السبق فى مجال آخر . . ولأجل هذا ينبغى عدم التبرم مما ينقص شخصية امرأة ما بل ينبغى الأخذ فى عين الاعتبار جانبها المضيء والتعامل معها بالحسنى . وهذا هو السر الحقيقى وراء تحقيق النجاح فى عالمنا المعاصر . فالرجل الذى يخوض هذه التجربة بنجاح داخل أسوار منزله هو الذى يحقق النجاح فى العالم الخارجى أيضا . إن سر النجاح يكمن فى العثور على شعاع الأمل فى الظلام الدامس ، وكافة الرجال يتلقون هذا الدرس المهم فى محيط منازلهم .

تكريم الأم أكثر من الأب

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال :

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب النكاح / ٣ ، باب حق المرأة على الزوج ١ /٥٩٣ .

(٢) النساء : ١٩

ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك »[1] .

إن تكريم الأم أكثر من أى شخص آخر بسبب أمومتها يشير إلى نوعية المجتمع الذى يسعى الإسلام إلى بنائه . إن أفضل الأسر والمجتمعات فى نظر الإسلام هى التى تحظى فيها المرأة بأكبر قدر من التكريم . فالرجل الذى يعامل سيدة بإجلال وإكرام لكونها أمة سيتصرف بالضرورة مع نساء أخريات بالتقدير والاحترام . وهكذا تحصل المرأة فى كافة مواقع المجتمع بشىء من التكريم الذى تحظى به الأم داخل أسوار البيت .

حرية التعبير للمرأة

قام عمر رضى عنه يدعو الناس إلى الكف عن المبالغة والمغالاة فى المهور ، كما سبق ، فانبرت إليه امرأة تقول له : ليس هذا لك ياعمر فإنه تعالى يقول : « . . وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا »[2] فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ »[3] .

لقد كان عمر بن الخطاب على رأس الدولة الإسلامية حين أعربت امرأة عادية عن معارضتها لرأى الخليفة على مشهد من الناس ، مما أجبره على التراجع عن رأيه . وهذا الموقف يوضح أن المرأة تتمتع بأكبر قدر من الحقوق فى المجتمع الإسلامى . إن من أعلى مستويات الحقوق أن يتمتع الفرد بالحرية التامة فى التعبير عن آرائه . والمجتمع الإسلامى يكفل للمرأة هذا الحق فى أوسع معانيه .

التدبير المنزلى ليس عملا أقل شأنا

عن أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها قالت : يارسول الله : أنا وافدة النساء

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الأدب ، باب من أحق الناس بحسن الصحبة (فتح البارى شرح صحيح البخارى ، ١٠ / ٣٢٩ - ٣٣٠) .

(٢) النساء : ٢٠ .

(٣) ابن حجر العسقلانى ، فتح البارى شرح البخارى ٩ / ١٦٧ .

إليك . إن الرجال فضّلوا علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج والعمرة والرباط . قال انصرفى أيتها المرأة وأعلمى من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله[1] .

لا تأخذ أعمال التدبير المنزلى حقها من التقدير والتكريم فى الزمن الحديث ، بينما الأعمال المتعلقة بخارج المنزل تلقى تقديرا أكثر من اللازم ، وهذا يرجع إلى تشوه المفاهيم فى المجتمعات المعاصره . أما الإسلام فيشيد بالأعمال المتعلقة بداخل المنزل وخارجه على حد سواء . والواقع هو أن هذين النوعين من الأعمال يتمتعان بأهمية مماثلة . فلا يحق لجانب أن يعتبر نفسه متفوقا ، فيتصرف بالغرور ، أو الشعور بالعظمة . كما لا يليق بالجانب الآخر أن يعانى من مركب النقص ، ويعد نفسه حقيرا .

أهمية دور المرأة فى بناء المجتمع

يروى جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن عرش إبليس على البحر ، فيبعث سراياه فيفتنون الناس . فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة . يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا كذا ، فيقول : ماصنعت شيئا . ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركتُه حتى فرّقتُ بينه وبين امرأته . فيدنيه منه ويلتزمه ويقول : نِعْمَ أنت »[2] .

ويبين حديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، هذا عن أمضى أسلحة الشيطان لإشاعة الفوضى فى مجتمع إنسانى ما ، وهذا السلاح هو بث الفرقة والشقاق بين الرجل والمرأة .

وكانت هذه الفتن ذات تأثير محدود فيما مضى ، تحدث على نطاق ضيق بين

---

(١) **كنز العمال** ، ١٦ / ٤١١ .

(٢) **صحيح مسلم** ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، ٤ / ٢١٦٧ .

رجل ما وامرأته ، ويتضرر بها أفراد عائلة واحدة فقط . إلا أن الأفكار المستحدثة ، على اختلاف أنواعها فى الوقت الحاضر ، تعرض للخطر أجيالا ، بل ومجتمعات إنسانية بأكملها . إن الحرية المصطنعة للنساء ، وفكرة « المساواة » غير الطبيعية يجرى تعميمها حاليا على أوسع نطاق ؛ لتطال نتائجها السلبية شعوبا وأقواما بأسرها .

وقد نتج عنها شيوع فكرة العزوف عن الزواج وازدراء الحياة الزوجية . كما أصبح الرجال والنساء فى المجتمعات الحديثة « المتقدمة » يلجأون إلى الطلاق لأتفه الأسباب ، مما يؤدى إلى تفكيك الأسر ، وتشريد الأولاد بسبب حرمانهم من عطف الأبوين ، وانضمامهم فى نهاية الأمر إلى عصابات الإجرام . وقد سبب الانحلال الجنسى فى ظهور أمراض فتاكة متعددة ، كما أن شيوع فكرة عدم الارتباط برباط عائلى على نطاق واسع فى الوقت الحاضر تعتبر أكثر المشكلات الاجتماعية المعاصرة خطورة ، بدون شك .

إن فساد العائلة يصيب المجتمع ، وبالتالى الأمة كلها بالفساد . ويحدث هذا على أوسع نطاق فى الوقت الراهن . وسببه الأوحد هو تعرض الروابط الزوجية للازدراء حاليا ، واعتبار تربية الأولاد والالتزامات العائلية عملا حقيرا .

المرأة والسلطة السياسية

أنتجت هوليود عام ١٩٦٤ فيلما بعنوان « قبلاتى لرئيستى » Kisses For My president يتناول حكاية امرأة امريكية متزوجة انتخبت رئيسة للولايات المتحدة . وأصبحت حاملا بعد فترة قصيرة من توليها الرئاسة ، فأصابها الهلع واضطرت الى أن تغادر مقر الرئاسة إلى منزلها وتستقيل من منصبها فى النهاية .

إن تفويض المرأة أعلى منصب فى الدولة لم يكن أكثر من دعابة فى العالم الغربى المعاصر حتى الآن . وتظهر نتائج استطلاع أجرى سنة ١٩٧٢ أن غالبية الناخبين تفضل أحد السود رئيسا للولايات المتحدة على أن تتولى امرأة منصب الرئاسة . وسفَّه رجل الفكرة قائلا : لو أنجبت الرئيسة طفلا فستصدر عن المستشفى نشرة طبية تقول : « الرئيسة ومولودها يتمتعان بصحة جيدة ! » .

ويتطلع عامة الناخبين من حيث المبدأ إلى أن تمتلك المرأة المرشّحة للرئاسة المواهب نفسها التى يتصف بها الرجل المرشح للرئاسة من كفاءة وطموح وخبرة وجرأة وذكاء . إلا أن المرأة المرشحة للرئاسة لا تحظى بثقة أغلبية الناخبين لشكهم فى تحليها بهذه الأوصاف « الرجولية » .

وهناك عدد من الباحثين فى العلوم والطب يعارضون بشدة تفويض المرأة أعلى منصب تنفيذى فى الدولة ، وذلك بمنظور علمى بحت . وعلى سبيل المثال : تعرض الطبيب الجراح إيدغار برمان لانتقادات لاذعة من قبل أنصار الحركة النسائية حين أعرب عن رأيه سنة ١٩٧٠ بأن التركيب الكيميائى لهورمونات النساء تجعلهن أكثر عاطفية من أن يصلحن لتولى مقاليد الحكم [١] .

وتظهر نتائج احد الاستطلاعات التى أجريت عام ١٩٨٧ فى هذا الشأن أن ثلث الناخبين يرون أن الرجل أفضل من المرأة للاضطلاع بمهام الرئاسة فى الولايات المتحدة . وقد أجرى هذا الاستطلاع بناءً على رغبة إحدى منظمات حقوق المرأة التى أشارت فى بيانها إلى أن ثمانية فى المائة من الناخبين فقط يجدون المرأة أنسب لتولى سدة الحكم فى البيت الأبيض ، وأن ٤٩ فى المائة ممن شملهم الاستطلاع يعتقدون عدم وجود أى تباين بين الجنسين ، بينما أعرب ٣١ فى المائة عن رأيهم فى أحقية تولى الرجل منصب الرئاسة . وتشير نتيجة هذا الاستطلاع إلى أن المرأة قد تكون أجدر بدور نشط فى مجالات العمل الاجتماعى كإزالة الفقر ، والتوعية الصحية والتعليمية ، والحملة ضد المخدرات ، والدفاع عن الحقوق المدنية [٢] .

وكان كسرى ملك الفرس قد توفى خلال عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فقررت حاشيته تنصيب ابنته ملكة على فارس . ولما علم النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) مجلة تايم ، عدد ٢٠ مارس ١٩٧٢ .
(٢) تايمز أوف إنديا ، ١٤ أغسطس ١٩٨٧ .

بالأمر قال : « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة »[1] والأبحاث العلمية المعاصرة تدعم المبدأ الذى تبناه الإسلام قبل أربعة عشر قرنا والذى قال : بأن المرأة لا تصلح لتولى أعلى سلطة سياسية فى الدولة . فالأمر الذى كان يبدو « خبرا » أو « رأيا » آنذاك ، تحول اليوم إلى حقيقة علمية ثابتة . والشىء الذى أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق الإلهام تقرر أمرا واقعا بفضل الأبحاث والتجارب الإنسانية المعاصرة ، الأمر الذى يدل على أن مبادىء الإسلام قائمة على الحقائق الطبيعية وليست على افتراضات وقياسات محضة .

شهادة المرأة

يقضى قانون الشهادة فى الإسلام بأن شهادة امرأتين تساوى شهادة رجل واحد . وقد تناولها القرآن لدى توضيح موقف الإسلام إزاء مشكلة الديون فى الحياة الاجتماعية :

﴿ . . واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء : أن تضل إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى ﴾[1] .

وتقرر نتائج الأبحاث العلمية المعاصرة أن قانون القرآن طبيعى للغاية لكونه يطابق الواقع الأحيائى تماما . ومن هذه الأبحاث ما توصل اليه عالم سوفييتى من أن الرجال

> يتمتعون بقدرة أعظم على حفظ المعلومات الرياضية ومعالجتها ، أما النساء فمقدرتهن أعظم فيما يتعلق بالكلمات طبقا للعالم السوفييتى فلاديمير كونوالوف الذى قال فى تصريح لوكالة تاس :

---

(١) **صحيح البخارى** ، كتاب المغازى ، باب كتاب النبى الى كسرى وقيصر (**فتح البارى شرح صحيح البخارى** ٨ / ١٠٤ - ١٠٥) .

(٢) البقرة : ٢٨٢ .

« الرجال يهيمنون على الموضوعات الرياضية بسبب خواص ذاكرتهم ، والجنس الأقوى يظهر صعوبات أكبر فى معالجة المواد اللغوية ، واستخدامها »[1] .

والآية القرآنية المذكورة تتناول قضية الدَّين ، أى إتمام صفقة ما مع تأجيل تسديد المستحقات أو الدين . ويأمر الإسلام فى هذه الحالة أن يشهد على معاملة كهذه رجلان ، أو رجل وامرأتان . ومن الواضح – فى وضع كهذا – التأكيد من قوة ذاكرة الشهود ، بعد التحقق من اتصافهم بالصدق والعدل . وبما أن ذاكرة المرأة أضعف بالنسبة إلى الرجل على المستوى البيولوجى ، فكان إحلال امرأتين مكان رجل واحد للشهادة على أمرها أقرب إلى الواقع . والتمايز بين المرأة والرجل فى قضية الشهادة يرجع إلى الضرورة ، وليس بدافع تفضيل جنس على آخر .

ميزة نسبية وليست أولوية

قال الله تعالى : ﴿ **الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض** ﴾[2] . ومعنى الفضيلة هنا الميزة . فإدارة نظام البيت بأسلوب أمثل تحتم على أن يكون هناك مشرف مسئول . ومسئولية الإشراف هذه ينبغى أن يتولاها شخص من داخل الأسرة يعتبر الأقدر على القيام بها . والمعروف أن الرجل يتمتع بكفاءة أكبر بهذه المهمة بسبب تكوينه الطبيعى . والآية القرآنية لا تقرر الأولوية المطلقة للرجل بل تشير إلى مزايا يتصف بها الرجل ، وتجعله أجدر للاضطلاع بمهام الإشراف على الشئون المنزلية .

و« فضل بعضهم على بعض » أسلوب عربى معهود للكلام ، وقد ورد فى مناسبات عديدة فى القرآن . وعلى سبيل المثال : تنتج مزارع مماثلة ووسائل رىّ واحدة مواسمَ زراعية مختلفة وأنواعا عديدة من الفواكه . وقد جاء فى القرآن :

---

(١) تايمز أوف إنديا ، ١٨ يناير ١٩٨٥ (نقلا عن اليونايتد بريس) .

(٢) النساء : ٣٤ .

﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد . ونفضّل بعضها على بعض فى الأُكل ﴾[1] .

وقد فسر عامة المفسرين « التفضيل » فى هذه الآية بالتنوع والتباين . وليس معناه أن نوعا من الفواكه يتمتع بالأولوية المطلقة على سائر أنواعها . وما تهدف إليه الآية الكريمة هو أن لكل فاكهة ميزة لا توجد فى غيرها . فكل فاكهة تتمتع بلون ومذاق يختلفان عن سائر الفواكه الأخرى . وقد أودع مثل هذا التباين فى جنسى الرجل والمرأة أيضا . فأحدهما يتمتع بميزة نسبية ، والآخر بميزة نسبية أخرى .

ولأجل ذلك ، فالله تعالى قد أوصى بعدم التنافس فيما فضل أحدهما على الآخر **﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض . للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾** .[2] فكل واحد منهما يمتاز بوصف لا يتمتع به الآخر . ولذلك ينبغى عدم الغيرة وتجنب الحسد إزاء كفاءات الجنس الآخر . بل ينبغى أن يستخدم كل فرد ما يتصف به من ميزات لبناء الحياة والمجتمع . فيجب على كل جنس استغلال مواهبه الخاصة به للقيام بدوره فى بناء الحياة والنهوض بها .

صحيح أن المرأة تعانى من بعض نقاط الضعف عضويا ، إلا أن قلة القدرة الجسدية لا تعنى الحطّ من قيمتها أو شأنها . فالعين أكثر أعضاء جسدنا وهنا وضعفا ، والظّفر يعتبر أقوى منها وضعا . ولكن هذا لا يعنى أن الظفر يتمتع بالأولوية وأن العين تعانى من نقص .

وكما ينفرد نوعان من أنواع الفاكهة بمزايا خاصة بكل منهما ، ولا يستلزم هذا اعتبار أحدهما أفضل من الآخر ، فكذلك شأن المرأة والرجل . فكلاهما يتمتع

---

(١) الرعد : ٤ .

(٢) النساء : ٣٢ .

بميزة لا توجد لدى الآخر ، وكلاهما يحظى بالأولوية - النسبية - بسبب أو آخر . ويجب عليهما أن يحددا دورهما فى الحياة على أساس الاعتراف بهذه المزايا النسبية . لقد خلق الله كلا من جنسى المرأة والرجل ليؤدى دوره المنوط به على وجه أكمل ، وسر نجاحه يكمن فى أن يسخر نفسه لما خلق من أجله .

كلمة امرأة حمقاء

نشرت الصحف الهندية تفاصيل قضية للطلاق ونفقة الإعالة رفعتها سيدة تدعى نادرة بيغوم من أهالى مدينة بلاسبور بولاية مهاراشترا بالهند . لقد طلقها زوجها بعد أن أنجبت له بنتا ، وهى تحاول الآن الحصول على نفقة الإعالة من زوجها السابق عن طريق القضاء .

وطبقا لما نشرته صحيفة **تايمز أوف إنديا** (١ مايو ١٩٨٦) فإنه لدى سؤال السيدة المذكورة عن الدوافع وراء رفعها الدعوى أمام المحكمة مقتفية بذلك خطوات السيدة شاه بانو ،[١] وأنه حتى لو حكمت المحكمة بتنفيذ المادة ١٢٥ من القانون الجنائى الهندى ، القاضية بضرورة توفير نفقة الإعالة من قبل الزوج السابق لمطلقته ، فإن هذا الحكم سيعتبر مخالفا للشريعة الإسلامية ، أجابت السيدة نادرة بمرارة : « ماذا حقق لى الإسلام لألتزم بمبادئه ؟ » وباءت بالفشل جميع المحاولات لإقناع السيدة نادرة بالتنازل عن الدعوى . ورفضت نادرة كافة عروض التسوية حتى بعد موافقة زوجها السيد قريشى على إعادتها إلى بيت الطاعة ، وأصرت على مواصلة عرض القضية أمام المحكمة لأجل الحصول على نفقة شهرية قدرها خمسمائة روبية فقط . وأشارت إلى أنها ، خلافا للسيدة شاه بانو ، أصغر سنا (٣٠ سنة) ، ومتعلمة (خريجة جامعة) !

تصريحات السيدة نادرة هذه كلمة سوء فى حق الإسلام من قبل امرأة حمقاء

---

(١) هى مطلقة من مدينة إندور بالهند ، رفعت قضية ضد زوجها تطالبه بدفع نفقة الإعالة وقد سبق الإشارة إلى قضيتها ، راجع ١٤٧ من هذا الكتاب .

لا تعتبر مثفقة بأى حال من الأحوال . . لأنها لو كانت درست التاريخ لعرفت أن الإسلام هو الذى وفر للمرأة كل ما تتمتع به من حقوق الآن ، ومنها قدرتها على التفوه بـ« ماذا حقق لى الإسلام ؟ » فلم تكن المرأة تتمتع بحرية الكلام على ملأ من الناس قبل الإسلام .

مواقف مشرفة لنساء الإسلام

تاريخ الإسلام حافل بمواقف مشرفة للنساء تكشف عن مدى التقدير والاحترام اللذين كانت المرأة تحظى بهما فى المجتمع الإسلامى ، والإنجازات العظيمة التى حققتها فى إطار التزامها بتعاليم الإسلام . .

فزوجة الرسول السيدة عائشة بنت أبى بكر كانت سيدة فى غاية الذكاء وقوة الذاكرة . ولم تتعرض خصائصها هذه للضياع ، أو الإهمال فى الإسلام ، بل وجدت لأجل استغلالها مجالا أسمى وأوسع . . فقد كانت تصغر كثيرا الرسول صلى الله عليه وسلم حتى عاشت طويلا بعد وفاته كمصدر موثوق به لدى الأمة للاطلاع على تعاليم الدين الحنيف .

وتم حصر ما روته السيدة عائشة من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فبلغت (٢٫٢١٠) أحاديث . وكانت تحتفظ فى ذاكرتها بأحاديث وخطب النبى صلى الله عليه وسلم بدقة متناهية ، وكانت تمتلك موهبة غير عادية لاستنباط الأحكام الشرعية من تلك الأحاديث . ويقال : إن أحد أرباع أحكام الشريعة الإسلامية يعتمد على ماروى عن عائشة رضى الله عنها . وكانت بمقدرتها العلمية وتفقهها فى الدين موضع ثقة الجميع . وكان الصحابة يرجعون إليها للاستفسار بشأن الأحاديث والأحكام الشرعية . ويقول أبو موسى الأشعرى : « ما أشكل علينا - أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم - حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما »[1] .

---

(١) صحيح الترمذى ، أبواب المناقب ، فضل عائشة رضى الله عنها ، ١٣/ ٢٥٧ .

ولا تقدر أهمية هذه الأمور فى الواقع لأنها تحدد أولوية سيدة ذات شأن فى تاريخ الإسلام ، وإنما أهميتها الحقيقية كمؤشر على مدى التقدير والمكانة المرموقة التى تتمتع بها المرأة فى الإسلام ، والمجال الأوسع المتوفر فى إطار الإسلام لإبراز كفاءاتها . فمثل هذه الوقائع تشكل معالم على تفوق الإسلام ، وليس على تفوق شخص بعينه .

وقد أوجد الإسلام المناخ الملائم لتنمية مواهب السيدة عائشة إلى حد أنها قامت بإنجازات سياسية واجتماعية هامة .

وفيما يلى مزيد من مواقف مشرفة للنساء فى تاريخ الإسلام :

امرأتان مثاليتان

روى البخارى عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة »[1] .

وذكر فى **فتح البارى شرح البخارى** عن الطيبى قوله : « إن الضمير الأول راجع الى الأمة التى كانت فيها مريم والثانى إلى هذه الأمة »[2] . ويعنى الحديث الآنف الذكر أن مريم كانت خير نساء اليهود ، وأن خديجة كانت أفضل نساء الإسلام .

ويوضح الأثران التاليان السبب وراء هذه الفضيلة لخديجة فى تاريخ الإسلام :

روى عن عائشة أنها قالت : ماغِرتُ على نساء النبى صلى الله عليه وسلم إلا على خديجة ، وإنى لم أدركها ، قالت : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذبح الشاة فيقول أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة . قالت فأُغضبته يوما فقلت :

---

(١) **صحيح البخارى** ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب تزويج النبى صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضى الله عنها (**فتح البارى شرح صحيح البخارى** ٧ / ١٠٤ - ١٠٥) .

(٢) ابن حجر العسقلانى ، **فتح البارى شرح البخارى** ، ٧ / ١٠٦ .

خديجة ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى قد رزقت حبها »[1] .

وروى عن عائشة كذلك ، أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة فأحسن الثناء عليها ، قالت فِغرتُ يوما ، فقلت : ما أكثر ما تذكر حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيرا منها ، قال : ما أبدلنى الله خيرا منها ؟ قد آمنت بى إذ كفر بى الناس ، وصدّقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله أولادها وحرمنى أولاد الناس »[2] .

لماذا تتمتع السيدتان الجليلتان مريم وخديجة بوضع « المرأة المثالية » فى التاريخ البشرى ؟ ذلك أنهما قامتا بتسليم كامل نفسيهما إلى الله ، وصهرتا رغباتهما الشخصية فى سبيل مرضاة الله .

لقد كان آخر عهد اليهود يقتضى ظهور سيدة لتكون أما لرسولٍ معجزة كالسيد المسيح ، فولادة آخر أنبياء اليهود بدون أب تعود إلى التخطيط الإلهى . وتحقيق هذا الهدف كان يتطلب تواجد سيدة عفيفة وطاهرة بدون جدال ، وفوق مستوى الشبهات . وقد برهنت السيدة مريم من خلال حياتها غير العادية على أنها مؤهلة لتكون والدة للسيد المسيح .

وكذلك الظروف التى كان يواجهها خاتم الأنبياء والمرسلين كانت تحتم تواجد سيدة تقوم بتسليم نفسها ومالها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا تعرب عن تذمرها إزاء أية مشكلة إطلاقا . وقد اختار الله السيدة خديجة للقيام بهذا الدور الهام بسبب مواهبها المميزة . لقد سخرت حياتها وممتلكاتها ، وتخلت عن رغد عيشها لأجل توفير الراحة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولم تعرب عن استيائها قط فيما واجهتها من المصاعب والمحن . وبسبب مزاياها الشخصية هذه نالت السيدة خديجة التقدير الإلهى ، لتؤدى مهام قرينة خاتم الأنبياء والمرسلين .

---

(١) **صحيح مسلم** ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل خديجة رضى الله عنها ، ٤ / ١٨٨٨ .

(٢) الهيثمى ، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، كتاب المناقب ، باب فضل خديجة بنت خويلد زوجة رسول صلى الله عليه وسلم ، ٩ / ٢٢٤ .

وكانت السيدة خديجة بنت خويلد أولى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم . وحين اختاره الله لمهام النبوة ، وأبلغه الملاك جبريل الوحى من عند الله للمرة الأولى ، أصابه الذعر . وقد وقع هذا فى مغارة حراء فنزل من الجبل وتوجه صوب منزله حيث أبلغ خديجةَ بما حدث ، معربا عن مخاوفه إزاء خطر يحدق بحياته . وقد احتفظ التاريخ بنص إجابة خديجة على الوجه التالى :

« كلا ، والله ، لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم ، وتقرى الضيف ، وتحمل الكَّل ، وتصدق الحديثَ ، وتكسِب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق »[1] .

ورأت خديجة أن تسأل فى هذا الشأن بعض النصارى ؛ لأنهم يؤمنون بالكتب السماوية وهم على علم بالوحى والنبوة . فتوجهت إلى راهب مسيحى كان يقيم بالقرب من مكة . فسأل الراهب عن سبب قدوم سيدة جليلة من قريش إلى صومعته فقالت : أقبلت إليك لتخبرنى عن جبريل . . فقال : « جبريل أمين الله ورسوله إلى أنبيائه ورسله ، وهو صاحب موسى وعيسى » . ثم أتت عبدا لعتبة بن ربيعة يقال له عداس (وكان نصرانيا من أهل نينوى) فسألته فأخبرها بمثل ما أخبرها الراهب وأكثر ، ومما قاله : « جبريل كان مع موسى حين أغرق الله فرعونَ وقومه ، وكان معه حين كلمه الله على الطور ، وهو صاحب عيسى بن مريم الذى أيده الله به »[2] .

ثم ذهبت خديجة إلى ورقة بن نوفل الذى كان قد اعتنق الديانة المسيحية فى الجاهلية واطلع على تعاليمها من خلال دراسته للإنجيل بالعبرانية . فأخبرته بما جرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ورقة : « لئن كنت صدقت يا خديجة فقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة »[3] . ثم

---

(١) ابن كثير ، السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، ط . دار الفكر (بيروت ، ١٣٩٨ / ١٩٧٨) ١ / ٣٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص٤٠٤ .

اصطحبت السيدة خديجة الرسول الكريم إلى ورقة فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : « أبشِر ، ثم أُبشرْ ، فأنا أشهد أنك الذى بشّر بك ابنُ مريم وأنك على ناموس موسى ، وأنك نبى مرسل ، وانك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، ولئن أدركنى ذلك لأجاهدن معك »[1] .

وتتطلب رسالة الإسلام فى كل زمان ظهور أمثال النساء والرجال ؛ لينخرطوا فى المشاريع الإلهية على مستوى عالم الاختبارات المعاصر ، ويتكاتفوا بجهودهم لتنفيذ المرضاة الربانية . ومما لا شك فيه أنها خطوة تتطلب مثابرة وأناة بالغتين ، إلا أنها تلقى جزاء أجزل وثوابا أعظم أيضا بدون شك . وهو أمر وصف فى القرآن بدرجة « مناصرة الله » . ولا توجد مرتبة أعلى منها لمؤمن ، أو مؤمنة .

الحرية الكاملة

الظهار أن يقول شخص لزوجته وهو فى حالة غضب : « أنتِ علىّ كظهر أمى » . وقد جرت لدى العرب فى الجاهلية عادة التفوه بمثل هذا الكلام للإعراب عن مشاعر الغضب إزاء الزوجة . وكان الاعتقاد السائد أن الزوجة تصبح محرمة على زوجها فى هذه الحالة .

وقد حدث فى المدينة أن احد الصحابة وهو أوس بن صامت قال لزوجته خولة بنت ثعلبة مثل هذا الكلام مما بدا أنها أصبحت محرمة على زوجها ، الأمر الذى أثار من قلقها لكونها أما لعدد من الأطفال . فتوجهت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخبرته بما حدث . وبما أن القرآن لم يكن يتضمن حكما فى هذا الشأن آنذاك ، فأعرب الرسول عن اعتقاده بأنها أصبحت محرمة على زوجها فبدأت خولة بالعويل والبكاء خوفا من تفكك العائلة ، وتشرد الأطفال . وأصرت أمام الرسول صلى الله عليه وسلم على أن زوجها لم يطلقها ، ولم يستخدم الكلمات المعتادة فى حالة الطلاق . ولدى فشلها فى إقناع الرسول صلى الله عليه

---

(١) المصدر السابق ، ص٣٩٩ .

وسلم تضرعت وتظلمت إلى الله لإنقاذها من مأزقها[1] .

ونزلت سورة المجادلة لتبين حكم الإسلام فى شأن الظهار مستهلة بهذه الكلمات : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما . إن الله سميع بصير** ﴾[2] .

والسيدة خولة هذه مرّ بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته والناس معه ، على حمار ، فاستوقفته طويلا ووَعَظَتْه وقالت : ياعمر قد كنت تدعى عميرا ، ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين . فاتق الله ياعمر . فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت . ومن أيقن بالحساب خاف العذاب . وعمر واقف يسمع كلامها . فقيل له : ياأمير المؤمنين ، أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستنى من أول النهار الى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة . أتدرون من هذه العجوز ، هى خولة بنت ثعلبة ، سمع الله قولها من فوق سبع سماوات ، وأيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر[3] .

توزيع العمل

لقد حدد الإسلام إطار عمل منفصلا لكل من المرأة والرجل : هى للبيت ، وهو لأعمال خارج البيت . وصحة هذا التوزيع لا ترجع إلى تباين الجنسين على المستويين البيولوجى والعضوى فحسب ، بل تهدف ، كذلك إلى تحقيق مصالح اجتماعية عديدة ، من بينها : أن هذا التوزيع يوفر لكل من الجنسين زميلا جديراً بالثقة ، ليؤدى أحدهما دور المستشار المثالى للآخر . وتشكل الأسرة السلالة البشرية ، ويتكون المجتمع بالتآلف بين هذه الوحدات ، وكلاهما – أى الأسرة

---

(١) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** (ط . دار بيروت ، بيروت ، ١٣٩٨ / ١٩٧٨) ٨ / ٣٧٨ – ٣٨٠ .

(٢) المجادلة : ١

(٣) القرطبى ، **الجامع لأحكام القرآن** ط٢ ، دار الشام للتراث (بيروت ب .ت) ١٧ / ٢٦٩ – ٢٧٠ .

والمجتمع - يحظى ببالغ الأهمية فى نفسه . وقد أظهرت التجارب أن الإنسان يواجه من حين لآخر على هذين المستويين من الحياة مشكلات عويصة لا يقدر على اتخاذ قرار حاسم بشأنها بسبب انغماسه فيها . حينذاك يشعر المرء بحاجته إلى مستشار لا يكون متورطا فى المشكلة ويستطيع أن يبدى إزاءها برأيه بكل نزاهة .

وتتحقق هذه المصلحة على خير وجه بتوزيع أدوار العمل بين المرأة والرجل . لأن انصرافهما إلى مجالى عملهما ، وعدم ارتباطهما بشئون الآخر مباشرة ، يتيح لكل جانب وضعا يساعده تفهم مشكلات الجانب الآخر بعقلية متفتحة ، ومده بتوجيهاته المحايدة .

ولإيضاح هذا الأمر نورد هنا نموذجين لموقف المرأة فى حياة الرسول وتاريخ الإسلام :

كما سبق أن أشرنا إليه ، فقد عاد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل عليه الوحى لأول مرة ، وقال لأهله : زملونى . فألقوا عليه غطاءً . وحين ذهب عنه الروع حكى لزوجته خديجة بنت خويلد ما حدث له فى معتزله بمغارة حراء ، وعبر لها عن خطر يهدد حياته . وكان رد خديجة الذى احتفظت بنصه مصادر التاريخ الاسلامى يكشف عن دور مثالى لقرينة رجل يواجه موقفا عصيبا :

« كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[1] .

وحين عقد النبى صلى الله عليه وسلم اتفاقية الهدنة مع قريش مكة ، التى تعرف بصلح الحديبية ، أحدثت ردود فعل حادة لدى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، لما كان يبدو أنها عقدت بشىء من التراجع ، ولما تتضمن من بنود تظهر لصالح أعداء الإسلام . وقد أثارت الاتفاقية تذمر الصحابة ونقمتهم إلى حد أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بعد عقد الهدنة بنحر الأضاحى التى

---

(١) ابن كثير ، **السيرة النبوية** ، ١ / ٣٨٦ .

ساقوها معهم ويحلق رؤوسهم ، لم يبادر أحد بالامتثال لأمره . فأعاده غير مرة ولكنهم التزموا بالصمت ، ولم يتحرك أحد من مكانه مما أدخل الكآبة فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم فغادر المكان ، ودخل خيمة زوجته أم سلمة التى استفسرته عن سبب اكتئابه وانزعاجه فذكر لها ما لقى من الناس . فقالت أم سلمة : « يا نبى الله أتحب ذلك ؟ أُخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك » . فخرج الرسول وقام بنحر أضحيته وطلب إلى من يحلق رأسه ، وذلك دون أن يقول لأحد شيئا . فلما رأى الصحابة بادروا بنحر أضاحيهم ، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما »[٢] .

إن إبداء السيدتين خديجة وأم سلمة رأيا سديدا بشأن ما واجهه الرسول صلى الله عليه وسلم من مواقف عصيبة ، إنما يرجع الفضل فيه إلى عدم انغماسهما فى القضية ، مما أتاح لهما وضعا محايدا للإعراب عن رأيهما بنزاهة . ومن المؤكد أن انغماسهما فى القضية مباشرة كان سيحول دون اتخاذهما مثل هذا الموقف المحايد .

المرأة مصدراً للمعرفة والعلم

« طلب العلم فريضة على كل مسلم »[١] حديث معروف ومتداول بين الناس . ورغم أن نص الحديث يتضمن فى ظاهره لفظة « المسلم » دون « المسلمة » ، إلا أنه قد تقرر أن التحصيل العلمى من واجبات المرأة المسلمة تماما كما هو من واجبات الرجل المسلم . فقد ذكر أئمة الحديث أن مدلول حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يشمل المرأة المسلمة هى الأخرى . ولذلك نجد أن كتب السير والتاريخ الإسلامى وموسوعات رواة الأحاديث تشيد بدور النساء فى مجال العلم كالرجال تماما ، مما يشير إلى النشاط النسائى الكبير فى صدر الإسلام

(١) المصدر السابق ٣ / ٣٣٤ - ٣٣٤ .

(٢) سنن ابن ماجة ، المقدمة ١٧ ، باب فضل العلماء وطلب العلم ، ١ / ٨١ .

فى مجال البحث والدراسة والتفقه فى الدين . وحين خرج الإمام البخارى لطلب العلم فى الرابعة عشرة من عمره كان قد اكتسب كفاءة تعليمية مكّنته من التزود بمزيد من العلم والمعرفة عن كبار العلماء فى عصره ، وذلك بفضل التوجيه والتعليم الذى تلقاه فى مقتبل عمره على أيدى والدته وشقيقته . ويذكر أن الإمام ابن الجوزى تلقى تعليمه الابتدائى على يدى عمته . وكانت شقيقة ابن أبى أصيبعة وابنته طبيبتين أى إخصائيتين فى أمراض النساء » حسب التعبير المعاصر . ويذكر اسم أكثر من سيدة بين الشيوخ الذين روى عنهم الإمام ابن عساكر .

لقد كان النشاط العلمى فى أول الإسلام يتركز بصفة خاصة على رواية أحاديث الرسول ، والآثار . ونجد إلى جانب الرجال عددا كبيرا من النساء ، من الصحابيات والتابعيات ، ممن ساهمن فى جمع الروايات ، وقمن بدور مماثل لدور السيدة عائشة فى نقل آثار السنة النبوية إلى الأجيال القادمة . فقد تلقت هذه السيدات المسلمات العلوم الدينية على أيدى آبائهن ، أو أقاربهن الذين كانوا قد استقوا معارفهم الدينية من نبع النبوة مباشرة ، أو عن طريق أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو التابعين .

طموح إسلامى

الخنساء (م . ٢٤هـ) شاعرة معروفة من المخضرمين ، وهى تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية ، واشتهرت بلقب الخنساء . وكان والدها زعيم بنى سليم من قبائل مضر . وقد قتل شقيقاها فى إحدى حروب الجاهلية مما أصابها بحزن بالغ فى قرارة نفسها ، وبينما لم تكن تقرض قبل مقتلهما إلا بضعة أبيات ، إذا بقريحتها الشعرية تتفجر رثاءً ، وعيناها تسيلان دموعا . لقد صورت مأساة أخويها ، خاصة مقتل صخر ، فى قصائد تثير الأسى وتحز فى النفوس . وظلت على حالها تقول الرثاء وتذرف الدموع حتى فقدت بصرها . ووفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها بنى سليم . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنشدها ويعجبه شعرها . فكانت تنشد وهو يقول : « هيه ياخنساء » .

والشاعرة الخنساء التى لم تستطع أن تتحمل صدمة مقتل أخويها وهى فى عمر الشباب ، زوّدها الإسلام ، وهى عجوز ، بالقدرة على التضحية ، والفداء بأبنائها فى سبيل الإسلام . لقد حملت أبناءها الأربعة ، وهم فى ريعان الشباب ، على المشاركة فى حرب القادسية حيث استشهدوا بعد خوضهم معاركها الضارية . وقد تلقت أنباء مقتل أبنائها بالهدوء ورباطة الجأش ، وليس بالندب ، والعويل ، والرثاء . وأعربت عن مشاعرها قائلة : « الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم »[1] .

صبراً آل ياسر

عمار هو ابن ياسر وسمية اللذان استشهدا بسبب ما لقياه من صنوف التعذيب الجسدى على أيدى أعداء الإسلام فى مكة . ويقال : إن الرسول صلى الله عليه وسلم مر بهما يوما وشاهد ما يلقونه من التعذيب الجسدى . فشخص ياسر ببصره إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله الدهر هكذا ؟ فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم : « صبرا آل ياسر موعدكم الجنة »[2] . وكانا أول من استشهد فى سبيل الله . وبالرغم مما شاهده عمار من مأساة أبويه لم يتوهن عزمه وتشبثه بالإسلام . وتذكر المصادر الإسلامية أن عمار بن ياسر كان أول من بنى مسجدا فى بيته بمكة من بين كافة المسلمين . وقد نزلت الآية التالية بشأنه[3] حسبما ورد فى الروايات التى تتحدث عن مناسبة نزولها :

﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . إنما يتذكر أولو الألباب ﴾[4]

المرأة فى ساحة العمل

ولدت أسماء بنت أبى بكر قبل الهجرة بسبع وعشرين عاما . وحين اعتنقت

---

(١) الزركلى ، **الأعلام** ، ط : ٤ (بيروت ١٩٧٩) ٢ / ٨٦ .

(٢) ابن كثير ، **السيرة النبوية** ، ١ / ٤٩٤ .

(٣) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** (بيروت ، ١٣٩٨ / ١٩٧٨) ٣ / ٢٥٠ .

(٤) الزمر : ٩ .

الإسلام بمكة لم يكن عدد المسلمين يزيد عن ١٧ شخصا . وكان أبو بكر قد أخذ معه مبلغ خمسة آلاف ، أو ستة آلاف درهم ، وهو كل ما كان يملكه لدى هجرته مع الرسول، صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وزار أبو قحافة ، والد أبي بكر ، حفيداته ذات يوم لطمأنتهن وقال : « والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه » . وتذكر أسماء أنها أكدت لجدها أن الوالد خلف وراءه « خيرا كثيرا » . وتقول : إنها ملأت كوة فى البيت بقطع الأحجار الصغيرة وغطتها بثوب . وحين تحسسها أبو قحافة - وكان كفيفا - ظن أنها دراهم . وقال : « لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن » . وتقول أسماء : إن والدها لم يكن قد خلّف لأجلهن شيئا . وقد تذرعت بهذا الأسلوب لتطمين جدها فقط[١] . وكانت أسماء قد تزوجت الزبير بن العوام . وتنقل رواية للبخارى على لسانها عن أوضاعهما المعيشية بعد الهجرة على الوجه التالى :

قالت تزوجنى الزبير وماله فى الأرض من مال ، ولا مملوك ولا شيء غير ناضح[٢] وغير فرسه . فكنت أعلف فرسه ، وأستقى الماء وأخرز غرَبه[٣] وأعجن ، . ولم أكن أحسن أخبز . وكان يخبز جارات لى من الأنصار . وكن نسوة صدق . وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسى وهى منّى على ثلثى فرسخ . فجئت يوما والنوى على رأسى ، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من الأنصار . فدعانى ثم قال : إخْ إخْ . ليحملنى خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرتُ الزبير وغيرته ، وكان أغير الناس . فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى قد استحييت فمضى .

---

(١) ابن كثير ، السيرة النبوية ، ٢ / ٢٣٦ .
(٢) الناضح هو الجمل الذى يسقى عليه الماء (المراجع) .
(٣) الغَرب هو الدلو (المراجع) .

فجئت الزبير فقلت لقينى رسول الله وعلى رأسى النوى ومعه نفر من أصحابه . فأناخ لأركب . فاستحييت منه وعرفت غيرتك . فقال والله لحملك النوى كان علىّ أشد من ركوبك معه . .[1]

تكشف أوضاع الحياة فى المدينة عن أن النساء كن يتولين الأعمال المنزلية إلى جانب الاهتمام بمواقع العمل فى الخارج فى أحيان كثيرة ، وذلك بسبب انصراف الرجال إلى الجهاد ، ونشر الدعوة الإسلامية ، وعدم توفر الوقت لديهم للاهتمام بشئون البيت ، مما حتّم على زوجاتهم إدارة المزارع والبساتين والقيام بتربية الحيوانات ورعايتها .

فضل المرأة المؤمنة

لما نزلت ﴿ **... والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾[2] قال النبى صلى الله عليه وسلم : « تبا للذهب ، تبا للفضة » فشق ذلك على أصحاب رسول الله وقالوا : فأى مال نتخذ ؟ وتطوع عمر بن الخطاب لاستفسار الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن القضية وقال : يا رسول الله أى المال نتخذ ؟ قال : قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة »[3] .

المرأة فى كل ميادين الحياة

كانت امرأة تمشط شعر أم المؤمنين أم سلمة وإذا بصوت النبى صلى الله عليه وسلم يتناهى إلى مسامعها وهو يستهل بخطبته أمام جموع المصلين قائلا : « أيها الناس » ، فقالت للمرأة الماشطة : اربطيه كما هو .. لا داعى للتضفير ، فتساءلت المرأة : وما الداعى للاستعجال ولم يكد الرسول يبدأ بخطبته ، فلم يقل إلا

---

(١) صحيح البخارى : كتاب النكاح ، باب الغيرة (**فتح البارى** ٩ / ٢٦٤ - ٢٦٥) .
(٢) التوبة : ٣٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ، ط . دار الفكر (بيروت ، ١٤٠٢ / ١٩٨٠) ٢ / ٣٥٢ .

« أيها الناس » ؟ فأجابتها : ألا تعتقدين أننا بين هؤلاء « الناس » الذين يوجه إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم خطابه ؟ ثم ربطت شعرها بيديها ونهضت لتقترب أكثر للاستماع إلى خطبة الرسول . ويذكر أن السيدة أم سلمة قامت برواية ٣٧٨ حديثا عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وكانت ترد على استفسارات الناس الدينية . ويقول ابن القيم: لو جمعت فتاواها لشكلت رسالة كاملة .

كانت السيدة عائشة رضى الله عنها أكثر زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم قدرة على الذاكرة . فقد روت (٢٢١٠) من الأحاديث النبوية . وقد روى عنها حوالى مائة من أصحاب الرسول والتابعين . ومن بين تلامذتها : عبد الله بن عباس ، وعروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعبد الله بن عامر ، ومسروق بن الأجدع ، وعكرمة ، وعلقمة . وتتميز السيدة عائشة بدقتها فى استنباط الأحكام الشرعية . وكانت توضح دواعى ، وعلل الأحكام لدى روايتها الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وفيما يقول أبو سعيد الخدرى وعبد الله بن عمر بمجرد الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوجوب الاستحمام يوم الجمعة[1] ، إذا بعائشة رضى الله عنها توضح عندما ما تروى الحديث المذكور الدافع وراء ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بضرورة الاستحمام يوم الجمعة ، وذلك حين قالت : كان الناس ينتابون يوم الجمعة من منازلهم والعوالى فيأتون فى الغبار ، يصيبهم الغبار والعرق ، فيخرج منهم العرق . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنسان منهم وهو عندى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لو أنكم تطهرتم ليومكم هذا »[2] .

وذكرت امرأة من بنى غفار أنها حضرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برفقة عدد من نساء قبيلتها وكان يعد عدته للخروج إلى خيبر لمواجهة اليهود فطلبت إذنه للخروج إلى خيبر لتضميد جراح المصابين فى الحرب ، ومداواة المريض وحراسة المتاع . فوافق الرسول على خروجها وقال : « أخرجى على بركة الله فإنك لك صواحب قد كلّمننى وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم .. »[3]

---

(١) ابن حجر العسقلانى ، **فتح البارى شرح البخارى** ٢ / ٢٨٤ - ٢٨٨ .

(٢) **صحيح البخارى** ،كتاب الجمعة ، باب من أين تؤتى الجمعة وعلى من تجب ؟ ٢/٣٠٧-٣٠٧ .

(٣) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، ٨ / ٢٩٢ .

وتقول أم عطية ، وهى امرأة من الأنصار : رافقت الرسول فى سبع غزوات : كنت أبقى فى مؤخرة الجيوش الإسلامية ، أهتم بمتاع المجاهدين ، وإعداد الطعام لهم ، ومعالجة المصابين ، ورعاية المنكوبين . ويذكر عن أسماء بنت يزيد بن سكن ، وهى بنت عم معاذ بن الجبل ، أنها قتلت تسعة من الجنود الروم باستخدام أوتاد الخيمة سلاحاً للمقاومة .

وقد حدث خلال الحرب بين يهود المدينة ، والمسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن أطفال ونساء المسلمين الذين خرجوا لمقاتلة اليهود وضُعوا بأحد الحصون وتولى حسان بن ثابت الحراسة . وتقول صفية بنت عبد المطلب ، التى كانت بين هؤلاء النسوة : « فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إذا أتانا آتٍ ، فقلت : يا حسان ، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شُغِل رسول الله وأصحابه فانزلْ اليه فاقتلْه . قال : يغفر الله لك يابنت عبد المطلب ، والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا قالت : فلما قال لى ذلك ولم أرعنده شيئا احتجزت ثم أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته . فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت : يا حسان انزلْ فاستلبه فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل قال : مالى بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب »[1] .

كلمة تنقذ النساء المسلمات . .

كانت اتفاقية الهدنة مع قريش التى تم توقيعها بالحديبية – شميسى حاليا – فى العام السادس للهجرة تتضمن عدة بنود منها » . . من أتى محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤ / ١٠٨ – ١٠٩ .

يردوه عليه . . »[1] وكان سهيل بن عمرو يمثل قريشا فى محادثات الهدنة . وفيما كان يجرى إعداد مسودة الاتفاقية إذا بأحد أبناء سهيل بن عمرو ، وهو أبو جندل ، يلجأ إلى معسكر المسلمين بالحديبية بعد فراره من معتقله فى مكة الذى زُج فيه بعد إشهاره الإسلام . وكان سهيل قد دخل المعسكر الإسلامى بعد أن قطع مسافة ١٣ ميلا وهو يرسف فى الحديد ، وكانت آثار التعذيب بادية على جسده . وتظلَّم سهيل إلى الرسول وناشده للعمل على إفراجه من أيدى الكفار . وكاد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينفجروا غضبا لما شاهدوه من معاناة أخيهم المؤمن . لكن سهيل بن عمرو بادر بقوله : « يا محمد قد لُجَّت [تمت] القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا » . وقبل الرسول صلى الله عليه وسلم بحجته ، وسلّم أباجندل إليه ، فعاد إلى مكة والدموع تسيل على خديه . وهكذا أعيد أبو بصير ومسلمون آخرون لجأوا إلى المدينة وذلك تنفيذا لهدنة الحديبية مع قريش »[2] .

ولكن خلافا لذلك لم يلتزم المسلمون بهذا النص فى صلح الحديبية فيما يتعلق بالنساء المسلمات اللواتى لجأن إلى المدينة بعد أن نزلت الآية القرآنية التالية : ﴿ يا **أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار** . . ﴾[3] .

وتشير المصادر إلى لجوء أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وما أعقبه من مطالبة أهل مكة بتسليمها إليهم عملا بشروط الاتفاقية المذكورة . وكان قد حضر إلى المدينة لأجل هذا الغرض اثنان من أشقاء أم كلثوم هما وليد بن عقبة وعمارة بن عقبة ، ولكن لم تتم إعادتها إلى مكة .[4] .

---

(١) ابن كثير ، **السيرة النبوية**، ٣ / ٣٢١ .
(٢) **المصدر السابق** ، ص٣٢١ - ٣٣٥ .
(٣) الممتحنة : ١٠ .
(٤) ابن حجر العسقلانى : **فتح البارى شرح البخارى** ٧ / ٣٦٦ .

وبدا الموقف كأنه انتهاك للاتفاقية ، وفرصة سانحة لقريش لنشر الدعاية المضادة للرسول صلى الله عليه وسلم لعدم التزامه ببنود الاتفاقية . ولكن قريشا تريثت رغم عدائها الشديد للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تقم بأى نوع من أنواع الاحتجاج . ما السبب وراء ذلك ؟ لا تقدم مصادر السيرة النبوية والتفاسير بصفة عامة تعليلا واضحا لموقف قريش هذا . ويذكر القاضى أبو بكر بن العربى أن التزام زعماء قريش بالصمت كان « معجزة » من الله ، فقد أخرسهم الله وأجبرهم على عدم الخوض فيه[1] . ولا جدال فى أنه كان نصرا من الله وإن لم يكن « معجزة » بمعناها الشائع .

ويمكن استجلاء الحقيقة بمراجعة نص الاتفاقية ، وذلك مع تباين الروايات بسبب تعدد الرواة :

- « من جاء منكم لم نرده عليكم ومن جاءكم منا رددتموه علينا »[2] .
- « من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم »[3] .
- « على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا »[4] .

والرواية الأخيرة هى أقوى سندا ، وقد تكون هى الأقرب إلى نص الإتفاقية . وكلمة « رجل » التى تتضمنها الرواية الأخيرة هى التى أتاحت للمسلمين فرصة استثناء النساء المسلمات القادمات من مكة من أحد شروط الهدنة .

ويذكر أن المسلمين لم يطلبوا إدخال الشرط المذكور فى الاتفاقية ، وإنما أضيف إليها بناءً على رغبة سهيل بن عمرو الذى كان يمثل أهل مكة فى مفاوضات الهدنة . ولعل سهيل بن عمرو كان ينوى أن يشمل هذا البند كلا من النساء والرجال ،

---

(١) **أحكام القرآن** ، تحقيق على محمد البجاوى (بيروت ١٤٠٧ / ١٩٨٧) ٤ / ١٧٨٦ .
(٢) ابن حجر العسقلانى : **فتح البارى شرح البخارى** ٥ / ٢٦٢ .
(٣) **المصدر السابق** .
(٤) **صحيح البخارى** ، كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة (**فتح البارى** ، ٥ / ٢٦٢) .

أى أنه كان يقصد كلمة « شخص » ، وكلمة « رجل » نطقها بزلة اللسان عند إملاء نص الاتفاقية . ولذلك نرى أنه بعد لجوء أم كلثوم بنت عقبة إلى المدينة جاء شقيقاها يطالبان الرسول بإعادتها إلى مكة فأجابهما – فيما رواه الامام الزهرى – « كان الشرط فى الرجال ولم يكن فى النساء »[1] .

ويبدو أن قريشا كانت تعتقد قبل هذا الحادث أن شرط الاتفاقية المذكور يشمل كافة المهاجرين ، رجالا كانوا أو نساءً ، ولكنها أدركت خطأ موقفها لدى لفت الرسول صلى الله عليه وسلم انتباهها إلى أن الاتفاقية تنص على « رجل » دون المرأة . وهكذا أنقذ الله النساء المسلمات بفضل كلمة وردت فى نص اتفاقية من أن يتعرضن للذل والاضطهاد .

المرأة تزاول النشاط الخارجى لدى الحاجة

يقول عبد الله بن مسعود : إنه لما نزلت الآية : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم** ﴾[2] قال أبو الدحداح الأنصارى : يارسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا أبا الدحداح » . ، قال أرنى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، قال : فإنى قد أقرضتُ ربى حائطى (أى بستانى) وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها . قال فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح ! قالت : لبيك ، قال : اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل . وفى رواية أنها قالت : ربح بيعك يا أبا الدحداح . . ونقلت منه متاعها وصبيانها . . »[3] .

وتظهر الرواية أن زوجة أبى الدحداح كانت تعمل بواحة للنخيل . والواقع أن المصادر الإسلامية تزخر بمواقف النساء المسلمات فى أول الإسلام توضح عدم

---

(١) ابن حجر العسقلانى ، فتح البارى شرح صحيح البخارى ، ٩ / ٣٤٥ .
(٢) الحديد : ١١ .
(٣) تفسير ابن كثير ، ٤ / ٣٠٨ .

إخلادهن للراحة ، أو الاستمتاع برغد العيش داخل البيوت ، وإنما الاهتمام بإنجاز الأعمال المطلوبة فى الخارج أيضا ، إلا أن هذا النشاط الخارجى لم يكن لأجل الترف ، بل بدافع من الحاجات الملحة ، ولتأسيس أسرة صالحة وليس للتلويح بالمساواة المصطنعة خارج البيوت .

مركز المرأة

يمكن اعتبار هاجر زوجة سيدنا إبراهيم مثالا ورمزا بارزا على المكانة المرموقة التى تحظى بها المرأة فى الإسلام . فالحج من أعظم العبادات الإسلامية ، ويجب على كل « من استطاع إليه سبيلا » أن يؤدى مناسك الحج فى مكة المكرمة مرة واحدة خلال حياته على أقل تقدير . ومن هذه المناسك السعى بين الصفا والمروة . ويجب على كل من يقوم بتأدية هذه المناسك ، مثقفا كان أم جاهلا ، ثريا أم فقيرا ، ملكا أم من عامة الشعب ، أن يجرى بين هذين الجبلين سبعةأشواط . وليس هذا السعى إلا محاكاة لعمل اضطرارى قامت به السيدة هاجر التى تنقلت بين هذين الجبلين سبع مرات بحثا عن الماء . وعلى كل مسلم يزور مكة للحج أو العمرة أن يسعى سبع مرات ما بين الصفا والمروة . وبذلك أمر الله تعالى كافة بنى البشر باقتفاء خطوات امرأة .

وكانت مكة غير مأهولة البتة قبل أربعة آلاف سنة فجاء سيدنا إبراهيم برفقة زوجته ، وطفلهما الرضيع إسماعيل إلى هذه المنطقة الجدباء ، حيث أسكنهما امتثالا لأمر الله ، لتتربى فى بيئة تسودها الحرية أُمةٌ حية ، تقرر لها أن تقوم فى وقت لاحق بدورها الثورى فى مناصرة خاتم الأنبياء ، ونشر الرسالة الخالدة .

وكان سيدنا إبراهيم قد عاد مخلفا وراءه هاجر ، والطفل الرضيع إسماعيل فى تلك الأرض القاحلة ، التى لم يكن يوجد بها ماء أوكلأ . وحين شعرت هاجر بحاجتها إلى الماء جرت مابين الصفا والمروة سبع مرات . وقد أصبح هذا العمل الاضطرارى من مناسك الحج ، إذ يسعى الحجاج سبعة أشواط ما بين الصفا

والمروة . وهو درس عملى للنشاط فى سبيل الله يتلقاه كافة الرجال والنساء باتباعهم عملا قامت به سيدة يوما ما . ولايوجد هناك مستوى أعلى للتكريم والتبجيل للمرأة من أن يطلب من سائر الرجال اقتفاء خطوات امرأة إلى الأبد .

من واقع التجربة الذاتية

ما تناولته فى الصفحات السابقة من وضعية المرأة فى الإسلام لم يكن مجرد آراء نظرية ، أو وقائع تاريخية فقط نقّبتُ عنها فى بطون أمهات الكتب ، وإنما تشكل – بالإضافة إليها – جانبا من تجربتى الذاتية أيضا . فالواقع هو أننى لم أطلع على توجيهات الإسلام بالنسبة إلى أوضاع المرأة بين دفتى الكتاب والسنة النبوية ، أو من خلال مدونات التاريخ الإسلامى وحدها ، بل عايشتها كذلك ، فى إطار أحداث حقيقية .

ومن الطبيعى أن تتصل تجربتى الذاتية بسيدات عائلتى ، فتعاليم الإسلام لا تتيح للرجل المسلم الاطلاع عن كثب إلا على أوضاع نساء أسرته . وبناءً على تجربتى الذاتية المتعلقة بالوسط العائلى يمكننى القول : بأنه بوسع النساء فى إطار التزامهن بتعاليم الإسلام إنجاز كافة الاعمال اللازمة أو التى قد تلزم لبناء الحياة .

وسأتناول هذه التجارب بالبسط والتفصيل فى سيرتى الذاتية بعون الله ، ولكن أود أن أكشف هنا عن جانب منها من خلال تناول بعض ملامح حياة والدتى الراحلة التى كانت تدعى زيب النساء بنت خُدا بَخْشْ . وقد ولدت فى أواخر القرن التاسع عشر فى قرية سنجر بور بمديرية أعظم كره بالهند ، وتوفيت بدلهى فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٨٥ ، عن عمر يناهز مائة عام تقريبا . ولم تكن ثقافتها تتعدى قدرتها على ترتيل آيات القرآن من المصحف ، ومطالعة بعض المطبوعات الأولية الأردية بصعوبة . ورغم ذلك كانت امرأة متمسكة بتعاليم الإسلام تواظب على الصلاة والصيام . وسافرت إلى الأراضى المقدسة لتأدية فريضة الحج بلهفة وشوق . ولم أعهد عنها قولا زورا ، أو عملا يناقض الآداب العامة . لقد التزمت

بالحجاب طوال حياتها . وكانت بتشبثها بالمبادىء والقيم الأخلاقية سيدة مسلمة مثالية بكل معنى الكلمة .

وكان والدى فريد الدين خان قد توفى فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٩ . كان من كبار ملاك الأراضى فى المنطقة . وذات يوم خرج كعادته للتفتيش على أراضيه فى قرية (نواده) المجاورة لقريتنا فداهمته نوبة شلل ، نقل على إثرها إلى البيت محمولا على سرير خشبى وهو فاقد الوعى ، وتوفى فى اليوم التالى دون أن يسترد وعيه ، أو قدرته على الكلام . وهكذا ترملت أمى فجأة . وكنا آنذاك خمسة من الإخوة والأخوات . أكبرهم عبد العزيز خان الذى كان يبلغ من العمر ثمانية أعوام ، بينما كنت فى الخامسة ، وأخى - عبد المحيط - رضيع لم يتجاوز سنة ، وشقيقتان فى مقتبل العمر توفيتا فى حياة الوالدة . ونحن الأشقاء الثلاثة مازلنا بحمد الله على قيد الحياة حتى كتابة هذه السطور[1] .

وكانت وفاة والدنا فى ذلك الوقت بالذات بمثابة صاعقة داهمتنا كما أطبقت علينا مصاعب خلقتها أيد بشرية ، ولم تكن تستند إلى عوامل حقيقية . وهى ظروف كانت تواجهها أغلب الفئات فى النظام العائلى المشترك الرائج آنذاك فى الهند ، والذى يعتمد لمصادر دخله على امتلاك واستثمار الأراضى الزراعية . ولم تعد أوضاع العائلة فى صالحنا بعد وفاة الوالد ، فقد تآمر علينا بعض أفرادها ، وتعرضنا لمعاملة قاسية حتى أصبحنا كالغرباء داخل منزل العائلة . وفيما كنا من كبار ملاك الأراضى بدا ، لبعض الوقت على الأقل ، كأننا لا نملك شيئا . ولم يعد لنا من نصيب فى أملاك العائلة وعقاراتها ، مما أوقعنا فى وضع معيشى متأزم ومهين فى آن واحد .

وكان لعائلتنا منزل فسيح واسع الأطراف ، ولكننا أجبرنا بعد وفاة الوالد على الالتجاء إلى بيت مهجور متهالك كان قد أقيم خصيصا لاستخدامه كاصطبل .

---

(١) توفى الشقيق الأكبر عبد العزيز خان فى ٧ يونيو ١٩٨٨ بعد نشر هذا الكتاب (المراجع) .

وإضافة إلى مشكلة السكن هذه ، كنا نعانى من نقص المواد الغذائية ، وعدم توفر أية نقود لشراء الحاجات الأساسية ، الأمر الذى حمل الناس على تقديم شتى أنواع المقترحات أمام الوالدة ، كزواجها برجل آخر أو العودة إلى منزل والدها فى مسقط رأسها ، أو رفع الدعوى القضائية لاسترداد نصيبها من أملاك العائلة ، إلا انها رفضت قبول كل هذه الاقتراحات . وقررت أن تواجه الأوضاع كسيدة مسلمة باسلة ، متخذة من تضرعها إلى الله ، واعتمادها على مجهودها الذاتى ، حافزين أساسيين وراء قرارها الجرىء .

وكان جدى لأمى من كبار ملاك الأراضى أيضا . وكان قد خصص لأمى قبل وفاته عشرين إيكرا[1] من أراضيه الزراعية . إلا أنها عاملتها بموقع من غنى النفس تماما ، ولم تطالب أهلها فى مسقط رأسها بتمليكها الأراضى ، ولا توسلت إليهم لإمدادها بأى نوع من أنواع المساعدات . لقد التزمت بموقف مثالى من الاستغناء والاعتماد على الله .

كنت أراها تستيقظ مبكرا ، فتؤدى صلاة الفجر ، وتظل منصرفة إلى أعمال البيت طوال النهار بدون كلل . وكانت تؤدى صلاة العشاء فى وقت متأخر لتخلد بعدها للنوم . ولكن ماهى الأعمال التى كانت تشغلها طيلة اليوم ، لقد أقامت داخل البيت مزرعة صغيرة للدواجن تضم الدجاج والماعز . وجعلت من عملها هذا موردا ماليا ثابتا لها . وقد أتاح لى اهتمام والدتى بتربية الماعز فرصة الاقتداء بسنة الأنبياء . فأنا الوحيد الذى حصل على شرف رعى الماعز فى طفولتى من بين سائر إخوتى .

وإلى جانب ذلك ، بدأت أمى تمارس أعمال الخياطة اليدوية ، لعدم توفر ماكينات الخياطة فى الأرياف بيسر آنذاك . فقد تطوعتْ لخياطة ملابس أهل القرية دون أن تحدد لعملها أجرا ، فما كان من أهل القرية إلا أن تطوعوا بدورهم بتزويدنا بكميات من الحبوب . وابتاعتْ الوالدة فيما بعد جاموسا . كما كانت

---

(١) « الإيكر » الواحد يساوى أربعة آلاف متر مربع (المراجع) .

تزرع فى فناء الدار أنواعا من الخضار وبعض أشجار الفواكة مما كان يفيض إنتاجها عن حاجتنا . وبتأثير من حياة أمى ، قرضت فى تلك الأيام بيتا من الشعر بالأردية ، ومعناه : « يكمن حل معاش المؤمن فى تربية الدواجن وزراعة الخضراوات والفواكه » .

ومازلت أتذكر انطباعات امرأة إزاء معاناة والدتى حيث قالت لها يوما : « وقع فى نصيبك رعاية الهريرات » . وكانت كلماتها تعبر بصدق عن واقع حالنا . فقد كنا كالهريرات تماما ، معرضين للضياع والتشرد كمواليد القطط إن لم يتوفر لنا عطف الأم ورعايتها ، فقدضحت من أجلنا بالكثير ، وواجهت أقسى الظروف وأصعبها .

وليس بوسعى أن أصف هنا الجهود الضخمة التى بذلتها الوالدة فى سبيل توجيهنا وتربيتنا على مدى تلك السنين الطوال . . لأن ما شاهدته بأم عينى لا تستوعبه إلا دفتا كتاب بذاته . ويمكن تقدير مدى تدهور أوضاعنا المعيشية فى ذلك الوقت بأننى أردت يوما أن أصنع لنفسى مقلاعا . والمطاط المستخدم فيه كان يباع بـ« بيسة » واحدة[1] وهو ما لم نملكه آنذاك . ولما علم أحد الجيران برغبتى الشديدة أعطانى المبلغ المطلوب لشراء مطاط المقلاع ، وذلك فى الوقت الذى كنت أنتمى إلى عائلة أحد كبار ملاك الأراضى فى المنطقة .

لقد دُفِع بنا بعد وفاة الوالد إلى درجة تقارب الصفر على المستوى المعيشى . ومن هنا يمكن تقدير مدى المعاناة والمصاعب التى تحملتها الوالدة . والواقع أنها تولت مهام الرجال رغم كونها امرأة ، وأثّرت فى الأوضاع الخارجية المحيطة بها رغم بقائها داخل أسوار البيت . لقد تحدت الأوضاع ، وأخضعتها بدلًا من أن تستسلم للظروف والأحوال القاسية التى كادت أن تسحقها ، وأنجزت فى إطار التزامها بتعاليم الإسلام كافة الأعمال التى ترفع لأجلها حاليا مطالب لا لزوم لها بأن تتخطى المرأة حدود الإسلام .

---

(١) « هناك مائة بيسة فى الروبية الهندية الواحدة التى تساوى نحو عشرة قروش مصرية ، و« البيسة » بالتالى تساوى نحو مليم مصرى (المراجع) .

والدافع وراء ما أنجزته أمى هو شعورها الإسلامى ، فقد اتخذت من الذات الإلهية معقدا لآمالها دون سائر بنى البشر . وحددت مسار تفكيرها بالسعى للفوز فى الآخرة بدل الاهتمام بالمكاسب الدنيوية . وانقادت ببساطة لعقليتها الدينية التقليدية من غير أن تعير أى اهتمام - لكونها غير متعلمة - بتحليل الجانب الفكرى من عملها . . وأجده اليوم - وقد قاربتُ الستين من عمرى - إنجازا عظيما . حتى أن إمكان خروجها من البيت ، وحصولها على الشهادات العليا ، واحتلالها منصبا هاما فى الدولة ، يبدو لى أقل بكثير مما أنجزتْه من أعمال رغم كونها شبه أمية .

والوالدة بتضحياتها هذه لم تتول رعايتنا فحسب ونحن صغار ، وإنما أهلها الاتجاه الإسلامى لمشاعرها لتقدم لنا هدية أغلى منها بكثير ، أى سر النجاح والتقدم فى عالم من صنع الله . ويتلخص هذا السر فى التمسك بالنهج الفكرى الإيجابى ، وروح التعامل بالواقعية اللذين ورثناهما نحن الإخوة الثلاثة معا عن والدتنا دون غيرها من بنى البشر .

ولا زلت أتذكر أن أحد أخوالنا وهو الشيخ عبد الغفور بدأ يزور أمى بعد وفاة أبى . وكان من المشغوفين بمرافعة الدعاوى أمام المحاكم . وألحّ على أمى بشدة بضرورة رفع الدعوى لأجل تملك العشرين إيكرا من الأراضى الزراعية التى خصصها لها والدها . وحاول إقناعها - ربما على مدى سنوات طويلة - بمجرد التوقيع على طلب المرافعة ليتولى هو بنفسه متابعة الإجراءات القضائية الأخرى . ولكن أمى لم تقبل برفع الدعوى على أهلها .

ومن ناحية أخرى فإن حرماننا من ملكية أملاك الوالد كان يشكل تحديا مستمرا ، وسببا يكفى لاستفزازنا وجرنا إلى المخاصمة لأجل استرداد حقوقنا فى الأراضى الزراعية . ومع أنه قد سلمت إلينا بعض تلك الأراضى فيما بعد نتيجة تدخل بعض أصحاب المساعى الحميدة إلا أنه خصصت لنا كافة تلك الأراضى التى كانت قاحلة وغير صالحة للزراعة . وكان هذا الوضع يستدعى نشوب نزاع

لا ينتهى مع الجانب الآخر ، إلا أن الوالدة التزمت بنهج الصبر دون أن تفكر فى اتباع أية أساليب أخرى . وكانت توصينا باستمرار بالتحلى بالصبر . وكانت تردد أمامنا بيتا لشاعر شعبى يقول : « الجنة هى من نصيب الصابرين دائما » .

كانت أوضاعنا العائلية آنذاك كفيلة بدفعنا نحو اتخاذ اتجاه سلبى تماما . ففى مثل ظروف كهذه يتورط أفراد عائلة ما فى سلسلة من المرافعات أمام المحاكم ضد بعضهم البعض ، وتنشب بين الأطراف المعنية نزاعات لا تنتهى ، تهلك فى سبيلها أرواح الأبرياء ، ويصبح آخرون معرضين لإجراءات تخريبية انتقامية بصفة دائمة . ولو كانت الوالدة انتهجت آنذاك أسلوب « رد الفعل » فما كان من أبنائها إلا أن يتربوا فى بيئة غير إيجابية ، فى ظل مشاعر غير بنّاءة ، ولتحولت نفوسنا إلى معامل لتوليد العناد والثأر باستمرار .

إلا أن مبادرة أمنا المرحومة بالتزام نهج الصبر من جانب واحد أدى إلى تحويل مسار حياتنا . وتشبعنا فى كنف رعايتها مبدأ عدم التورط فى صراعات مع الآخرين ، وأن نسعى لبناء أنفسنا بالمجهود الذاتى . لقد تغاضينا عما تعرضنا لاستلابه ، ليتركز جُلّ اهتمامنا على ما تبقّى لدينا من أغلى العطايا الإلهية : وجودنا البشرى .

إننى أدرك اليوم هذه الحقيقة على مستوى « الشعور » ، ولكننا تطبعنا بها آنذاك على مستوى « اللاشعور » نتيجة التوجيه الذى تلقيناه من الوالدة . فاتجهنا – نحن الإخوة الثلاثة – إلى الابتعاد عن مواقع الصراع ، والبحث عن مجالات عمل بعيدة عن النزاعات . وبالرغم من اختيار كل منها نهجا خاصا به ، إلا أنها كانت تقودنا فكرة مشتركة ، أى تجاوز الاضطهاد الداخلى ، والتحرك فى سعة العالم الخارجى لأجل العثور على طريق للعمل ، والتطلع إلى الله سبحانه وتعالى ، وعدم تعليق الآمال على الآخرين . فالشقيق الأكبر عبد العزيز خان وجّه نشاطه نحو التجارة والصناعة . فانتقل من القرية عام ١٩٤٤ إلى مدينة « أعظم كرة » ليبدأ أعماله التجارية هناك بدون رأسمال تقريبا . وواصل كفاحه وتفانيه فى العمل حتى أصبح

يمتلك مصنعا باسم « لايت آند كومبانى » لإنتاج الأجهزة ومد الخطوط الكهربائية ، ويرأس مجلس إدارته . وفيما كان يعتبر بعد وفاة الوالد أحقر شخص فى العائلة ، إذا به يعامل الآن كأكثر أفرادها احتراما . وقد طلب إعادة توزيع أملاك العائلة من جديد ، لينال نصيبه فيها مما حرم منه من قبل .

واتجه شقيقى الأصغر – عبد المحيط خان – إلى دراسة الهندسة وتخرج فى جامعة بناراس الهندوسية بتفوق ، وهو يتولى الان إدارة التعليم الفنى فى حكومة ولاية أوتار براديش بالهند . وهو يتميز فى مجال عمله كإدارى بارز بسبب جهده المتواصل ، واستقامته ، والتزامه بالمبادىء .

أما أنا فاتجهت إلى تحصيل العلوم الدينية فى إحدى المدارس الاسلامية أولا ، وانشغلت فيما بعد ، بتركيز واهتمام شديدين ، بدراسة اللغة الإنجليزية والعلوم الحديثة ، لأتفرغ فى الفترة اللاحقة لأعمال الدعوة ، والبحث ، والتأليف التى يعرفها قراء هذه السطور .

ومنذ إصدار مجلة **الرسالة** سنة ١٩٧٦ أركز بصفة خاصة على دعوة المسلمين إلى نبذ أسلوب الفكر السلبى والتزام نهج التفكير الإيجابى . وقد تحولت حركة **الرسالة** هذه بعون الله إلى إحدى أهم الحركات الفكرية فى العالم الإسلامى فى الوقت الراهن . ويعرب لى المثقفون والباحثون عن انطباعاتهم – شفويا أو خطيا – مما يوحى بأن حركة « الرسالة » فى طليعة الحركات الإسلامية المعاصرة التى تحاول انتشال المسلمين من السلوك السلبى ، ودفعهم نحو طريق البناء الإيجابى .

وإننى إذ أعرب عن امتنانى لهؤلاء جميعا ، أشهد بأن الفضل الأكبر فى هذا كله يرجع إلى سيدة مسلمة كانت تدعى « زيب النسا » . والواقع أنه لو بحثنا عن المؤسس الأول لحركة « الرسالة » الإيجابية فلن نعثر على شخص غير والدتى السيدة « زيب النساء » (التى كانت بمنأى عما تسمى بحركة تحرير المرأة ، فلم تعرف حتى اسمها) مع فارق بسيط أن هذا السلوك كان شيئا لا شعوريا بالنسبة

إليها بينما وفقّنى الله بالتوصل إليها عبر الاكتشاف الشعورى الواعى .

وأعرف أكثر من شخص بين أقاربى ممن حرموا من عطف ورعاية أمهم فى الطفولة ، مما عرّضهم للمآزق فى مراحل حياتهم اللاحقة . والواقع هو أن دور المرأة كأم أخطر أدوارها فى الحياة الإنسانية . فقد حملت السيدة أسماء بنت أبى بكر ابنَها على محاربة حاكم مسلم ، فما كان من ابنها عبد الله بن الزبير إلا أن عاد إلى القتال بعد أن كان قد قرر اعتزاله . وكانت السيدة مريم مكانى أم الإمبراطور المغولى « أكبر » قد منعت ابنها من اتخاذ اى إجراء ضد رئيس وزرائه الشيخ عبد النبى(١) .

ولو كنت حرمت من أمى فى الطفولة ، أو لو كانت أمى تحرضنى باستمرار على مواصلة المعارك ضد « الأعداء » لاتجهت حياتى وجهة مغايرة تماما . ولكننى أشكر الله أنه أنقذنى من مصير مفجع كهذا ، وجعلنى وسيلة لتبيان حقيقة من حقائقه . أما من مهد لى الطريق أولا فى عالم الأسباب هذا ، فهى سيدة اقتصر نشاطها داخل أسوار البيت وفق تعاليم الإسلام .



(١) الشيخ عبد النبى بن أحمد (م٩٩٠هـ /١٥٨٢) كان « صدر الصدور » أى رئيس الوزراء فى عهد الإمبراطور أكبر . وكان ممن وقفوا ضد الإمبراطور حين ابتدع دينا جديدا وأخذ يضطهد العلماء والصالحين الذين عارضوه . . نفاه الإمبراطور سنة ١٥٨٠ إلى الحجاز مع عالم آخر من أكبر علماء عصره هو « مخدوم الملك » عبد الله السلطانبورى (م١٥٨٢م) مع الأمر بألا يعودا إلى الهند بدون إذن الإمبراطور . ولكنهما عادا حين وصلتهما أخبار التمرد فى بعض أنحاء الهند . وتوفى « مخدوم الملك » خوفا وهلعا وهو لا يزال فى أحمد آباد بكوجرات ، اما الشيخ عبد النبى فاعتقل وجيء به إلى الإمبراطور أكبر فى عاصمته فتح بور سيكرى - بالقرب من مدينة آغرا - حيث وبّخه الإمبراطور وضربه على وجهه . وأودع الشيخ فى السجن تحت التعذيب حيث مات مخنوقا - انظر الزركلى ، **الأعلام** (بيروت ١٩٧٩) ٤ /١٧١ ومحمد إكرام ، **رود كوثر** (لاهور ١٩٧٩) ص٩٤ - ١٠٦ (المراجع) .

حقوق وواجبات الزوجين

يؤكد القرآن على أن النساء لباس للرجال وأن الرجال لباس للنساء : ﴿ **هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ** ﴾[1] وتحدد هذه الكلمات - بأسلوب الاستعارة - ما يشكل كلا من المرأة والرجل بالنسبة للآخر فى نظر القرآن . فكلاهما يعتبر كاللباس لبعضهما البعض . والجسد الإنسانى لا يكتمل بدون اللباس ، كما أن اللباس يفقد معنويته بدون الجسد الإنسانى . وهكذا شأن المرأة والرجل . فالعلاقة الحسية التى تربط بين اللباس والجسد هى العلاقة ذاتها التى تتوطد بين المرأة والرجل على مستوى نفسى أشمل .

وكم يبدو الطائر رائعا وجميلا مع ريشه . ويتشوه مظهره لو نتف هذا الريش . وأهمية اللباس بالنسبة للجسد الإنسانى هى كالريش للطائر . والإنسان بدون اللباس يشبه طائرا منتوف الريش .

ويمكن تقدير مدى أهمية كل من المرأة والرجل بالنسبة للآخر من خلال التوضيح الآنف الذكر للباس . فالواقع هو أن المرأة والرجل يعتبران غير مكتملين بدون الآخر . ويعد الواحد منهما أخلص زميل للآخر . وهما يرتبطان بعضهما مع بعض إلى أقصى حد . وكلاهما لازم وملزوم للآخر . ويعتبر كيان الرجل ناقصا بدون المرأة وكيان المرأة ناقصا من دون الرجل . كلاهما يساند بعضهما بعضا ويشكل ستراً لبعضهما البعض . على حد تعبير مفسر للقرآن باللغة الإنجليزية : « هما يلائمان أحدُهما الآخرَ تماما كما ينطبق اللباس على مقاييس الجسْم »[2] .

وقد أُودعت النزعة الجنسية فى المرأة والرجل لدى خلقهما . فالرجل يجذب المرأة كما أن المرأة تجذب الرجل . والقرآن يعبر عن هذه الظاهرة بما يلى :

---

(١) البقرة : ١٨٧ .

(٢) عبد الله يوسف على فى تفسيره للآية (البقرة : ١٨٧) .

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1] .

ويميل كل من المرأة والرجل نحو الآخر بناءً على هذه العلاقة الطبيعية بينهما . واختلاط النساء والرجال بحرية يشكل أسلوبا لتحقيق هذه النزعة ، إلا أن هذا الأسلوب يناقضْ الطبيعة البشرية . فالإنسان ينزع طبيعيا إلى الانفراد بالأشياء التى تخصه ، ولأجل ذلك لا توافق العلاقاتُ الجنسية الحرة الطبيعةَ الإنسانية .

وكثيرا ما يردَّد أن « الإنسان حيوان اجتماعى » . ولعل الصواب هو أن يقال : « إن الإنسان حيوان أخلاقى » . فبالرغم من تماثل الإنسان والحيوان على المستوى العضلى ، يختلف الإنسان تماما عن الحيوان من الناحية الأخلاقية . والحيوان لا يحمل أى وعى خلقى ، بينما الإنسان يتمتع بالوعى الخلقى الذى يتطلب - إلى جانب دواعٍ حضارية أخرى - عدم إنشاء علاقات جنسية حرة ما بين الرجل والمرأة ، بل إشباع هذه الرغبة فى إطار الالتزامات الأخلاقية . وقد تقرر أسلوب الزواج فى الشريعة الإسلامية استجابةً لهذه الدواعى . وأمر الرجل والمرأة بالعيش فى كنف الحياة العائلية بعد الارتباط برابطة الزواج ، مع حظر التزوج ببعض ذوى القربى . وقد جاء فى القرآن :

﴿ وأُحِلّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾[2] .

وتعود النزعة الجنسية بين المرأة والرجل إلى عوامل طبيعية ، وإخضاع هذه النزعة الجنسية للضوابط الأخلاقية هو ما يطلق عليه وصف « الزواج » . فالعوامل النفسية فى البشر ، والحقائق البيولوجية ، والدواعى الحضارية تتطلب مجتمعةً إنشاء العلاقات الجنسية بين المرأة ، والرجل بأسلوب منظَّم . ولا يوجد هناك أسلوب أفضل من الزواج لتنظيم هذه العلاقات . إن طريقة الزواج أسلوب إنسانى متحضر

---

(١) الروم : ٢١
(٢) النساء : ٢٤

وإقامة العلاقات الجنسية المتحررة أسلوب حيوانى وغير إنسانى .

شريكان مساهمان على مدى الحياة

المبدأ الأساسى الذى تتحدد به الحقوق والواجبات بالنسبة لكل من الرجل والمرأة (أو الزوج والزوجة) هو أنهما شريكان مساهمان لبعضهما البعض على مدى الحياة . ويستنبط هذا المبدأ الأساسى من الآية القرآنية التالية التى تصف الرجل والمرأة بأن كلا منهما يشكل جزءاً من الآخر :

﴿ ... أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ﴾[1] .

فهذا الوضع المشترك بين المرأة والرجل ، باعتبار أحدهما امتدادالحياة الآخر ، أو رفيق عمر للآخر ، يشكل المبدأ الأساسى الذى تتحدد به حقوق وواجبات كل منهما إزاء الآخر .

ومن هذا المنطلق يمكن لنا أن نوضح ، بإيجاز ، الفارق بين الحضارة الحديثة والشريعة الإسلامية . فالحضارة الحديثة تقرر أن كلا من المرأة والرجل يشكل « ندا » للآخر ، بينما الشريعة الإسلامية تعتبرهما « شريكين » مساهمين لبعضهما البعض على مدى الحياة . وهذا الفارق يحدد نوعية التباين فى نظمهما الاجتماعية أيضا .

دين الفطرة

الإسلام دين الفطرة ، تصدر تعاليمه عن مبادىء الطبيعة البسيطة . وهكذا شأن قضية العلاقات بين المرأة والرجل أيضا . فقد حدد الإسلام بصددها بعض المبادىء البسيطة ، وهى قابلة للتنفيذ من قبل كل شخص . ولو تم تبنيها بجدية لعمّ الانفراج ، ولسادت السكينه فى العلاقات العائلية ، ولغمرت السعادة كل بيت .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ .

لقد استنبط فقهاء الشريعة الإسلامية جزئيات كثيرة بشأن العلاقات بين المرأة والرجل . وسنتجاوزها هنا مركزين على المبادىء الأساسية التى حددها القرآن والسنة . لأن هذه المبادىء تشكل أساسا لأساليب الحياة الإسلامية . وعلى المهتمين بمعرفة التفاصيل الفقهية والأحكام الجزئية الاطلاع عليها من خلال المؤلفات الخاصة بالموضوع والمتواجدة بأغلب اللغات فى العالم .

وضعية الرجل إزاء المرأة

ارتباط المرأة والرجل برباط الزواج يؤدى بالضرورة إلى ظهور مؤسسة اجتماعية تدعى « العائلة » . وتحتاج هذه المؤسسة ، كسائر المؤسسات الاجتماعية ، إلى من يديرها ويشرف عليها . وقد وقع اختيار الإسلام على الرجل ؛ ليتولى إدارة شئون العائلة والإشراف عليها : « الرجال قوامون على النساء . . »[1] .

ولا يعنى تنصيب الرجل « قوّاماً » أنه أسمى مرتبةً من المرأة . بل قد جرى هذا التعيين لدواعٍ إدارية ، وليس على أساس سمو مكانة الرجل . والمعروف أن الأنظمة الديمقراطية تعتبر كافة المواطنين متساوين فى الدرجة . ومع ذلك يتولى شخص من بينهم السلطة لدى الحكومة ، وهكذا يتم تعيينه حاكما أى « قواماً » . وليس معناه أن هذا المسئول التنفيذى أولى وأسمى من الآخرين من مواطنى البلاد . فالنظام الديمقراطى يمنح رئيس الدولة أو الحكومة صوتا واحدا لدى الاقتراع كسائر أفراد الشعب ، ورغم ذلك يتم تفويض السلطات الإدارية إلى شخص ما لأجل تحقيق مصالح البلاد .

وباستثناء هذا التوزيع الإدارى يتمتع كل من الرجل والمرأة بوضعية متساوية فى الدرجة . فعلى سبيل المثال لو قتلت امرأة رجلًا فسيقتص منها بعد أن تثبت جريمتها . وكذلك لو قتل رجل امرأةً فسينفذ فيه حكم القصاص عملا بسنة

---

(١) النساء : ٣٤ .

الرسول صلى الله عليه وسلم والتى بنى عليها البخارى قوله : « يُقتَل الرجل بالمرأة »[1] .

والشريعة الإسلامية لا تفرق بين الرجل ، والمرأة . فكافة القوانين تنطبق على الرجل ، والمرأة سواء بسواء . ولا يوجد أى تمايز بينهما فى هذا الشأن .

قضية مهر الزواج

وأول مسئولية تقع على عاتق الرجل إزاء زوجته بعد الزواج هو أن يدفع لها المهر المحدد : ﴿ **وآتوا النساءَ صدقاتهن نحلة** . . ﴾[2] وهذا المهر لا يشكل « ثمنا » من قبل الرجل لحقوق الزوجية على المرأة ، لأن هذه الحقوق أغلى من أن تقايض بالمبالغ المدفوعة عادةً كالمهر . وقيمة المهر هذه فى حقيقة الأمر قيمة رمزية . فهى علامة مادية على قبول الرجل بمسئوليته إزاء زوجته حتى آخر لحظة من لحظات حياته .

وما هى هذه المسئولية ؟ هى أن الرجل سيظل متكفلا بشئون المرأة ، وعائلًا لها على مدى الحياة . فالشريعة الاسلامية تفوض المرأة أساسا – فى إطار التنظيم العائلى – مسئوليةَ إدارة شئون البيت ، والقيام برعاية وتوجيه الجيل القادم . وهو عمل لا يجلب الأرباح المادية ، ولأجل هذا أصبحت إعالة الزوجة من المسئوليات الملقاة على عاتق الزوج . ولو كلفت المرأة بالمسئوليتين فى آن واحد ، أى أن تتولى أعمال التدبير المنزلى إلى جانب السعى لأجل كسب العيش ، فهى لن تتمكن من إنجاز أى منهما بالأسلوب الأمثل . وقد كلف الرجل بإعالتها ضماناً لإدارة شئون البيت على الوجه الأكمل . والرجل يتعهد بالنهوض بهذه المسئولية حين يدفع – بصورة رمزية – مبلغا معينا من المال كمهر فى مستهل الحياة الزوجية .

---

(١) **صحيح البخارى** ،كتاب الديات ، باب القصاص بين الرجال والنساء (**فتح البارى** ، ١٢ / ١٨٠) .

(٢) النساء : ٤ .

نفقة الإعالة

ونفقة الإعالة هى التكليف المالى المحدد الذى يتعهد به الرجل بصورة رمزية عندما يدفع المهر . وبما أن لكل منصب مسئولياته – وكون الرجل « قواما » منصب – تتمثل مسئولية منصب « القوامية » فى نفقة الإعالة . وقد جاء فى القرآن : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾[1] .

وتم تنصيب الرجل « قواما » (أى رئيسا) على « دولة » البيت لأسبقيته التكوينية على المرأة . ولكنها ليست أسبقية مطلقة أو شاملة ، وإنما تعنى تلك الأسبقية أو الميزة التى تزكى « القوامية » للرجل . وتتضمن الآية القرآنية المذكورة « بعضهم على بعض . . » ومعناها أن كلا منهما يتمتعان بالأولوية على الآخر بأسلوب أو آخر . وقد تم تعيين الرجل « قواما » على البيت لامتلاكه الكفاءات المطلوبة للقوامية بنسبة أكبر . وفى مقابل هذا تتمتع المرأة – أكثر من الرجل – بالمواهب المطلوبة للتدبير المنزلى وتوجيه الأجيال الجديدة وتربيتها ، فتم تكليفها بشئون البيت الداخلية على أساس تلك الأسبقية .

وحق المرأة فى نفقة الإعالة يتوجب على الرجل قانونا ، وبإمكان المرأة اللجوء إلى المحكمة لاستيفاء حقها لو قصّر الرجل فى تسديد هذه النفقات . ويتم تحديد مقدارها حسب الوضع المالى للرجل ، إذ أنه يرتفع كلما تحسن دخل الرجل ، وينخفض بانخفاضه .

المعاملة الطيبة

والمطلوب من الرجل فى كل الأحوال أن يكون كريما فى تعامله مع زوجته . وقد جاء فى القرآن : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن**

---

(١) النساء : ٣٤ .

تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾[1] .

وتبين الآية الكريمة أن الدعوة إلى التعامل الأفضل مع المرأة لا تقتصر فى الأحوال التى تعجب زوجها . بل قد أُمِر الرجل بالتعامل الحسن معها حتى ولو لم تكن تعجبه فى ظاهر الأمر . فهو حكم مطلق يجب على الرجل امتثاله سواء أكانت زوجته توافق هواه ، أولا توافقه لأى سبب كان .

ويمكن تقدير مدى أهمية أمر التعامل الحسن مع المرأة بأنه اعتبر شرطاً لازما لاقتران الرجل بأكثر من امرأة . فقد سمح به لمن يتعهد بالتعامل مع زوجاته على قدم المساواة ، والتزام طريق العدل الشامل إزاء كل منهن . وحُظِر التزوج بأكثر من امرأة لدى انتفاء هذا الشرط . وقد ورد فى القرآن الكريم : ﴿ **فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة** ﴾[2] .

والأمر القرآنى : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾ [3] تعبير مثالى يتضمن كافة الأشياء التى تتطلبها الطبيعة البشرية ، وكل الأمور المطلوبة دينيا وعقليا لتحسين النظام العائلى . والإسلام يركز عليها بشدة إلى حد أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفها بقوله : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى »[4] .

مسئوليات المرأة كزوجة

كيف وبأى أسلوب ينبغى أن تعيش المرأة مع الرجل (أى الزوجة مع زوجها) ؟ لقد أودع ذلك مسبقا بالشفرة الطبيعية فى سجية المرأة . ولو كانت المرأة ملتزمة ، وجادة فى الواقع لاسترشدت بسجيتها فحسب فى هذا الشأن .

---

(١) النساء : ١٩ .
(٢) النساء : ٣
(٣) النساء : ١٩
(٤) سنن ابن ماجه كتاب النكاح ٥٠ ، باب حسن معاشرة النساء ١ /٦٣٦ .

وذلك ما تلمح إليه الآية القرآنية التالية : ﴿ **فالصالحات قانتات حافظات للغيب . .** ﴾[1] .

فواجبات المرأة إزاء الرجل التى تتضمنها آيات الكتاب والسنة النبوية تحددت فى الواقع على ضوء هذه السجية الأنثوية . ولو كانت المرأة تحتفظ بسجيتها على طبيعتها ، وترغب فى العيش بواقعية فهى لن تشعر بأية غربة إزاء توجيهات الإسلام هذه ، بل ستتجاوب معها باعتبارها صدىً لما يدور فى خاطرها وأعماقها . وفيما يلى نوجز بعض هذه المبادىء الإسلامية تحت عناوين فرعية .

الطاعة

جاء فى القرآن : « فالصالحات قانتات . . » وقد فسرها عبد الله بن عباس بـ« مطيعات لأزواجهن »[2] أى أن النساء الصالحات عند الله هن من يمتثلن لأوامر أزواجهن كاستجابة طبيعية لذلك التوزيع الفطرى الذى يقرر الرجلَ قوّاماً فى النظام العائلى . فالشخص الذى يتولى السلطة فى دولة ما بإمكانه تسيير دفة الحكم بالأسلوب الأمثل ، ما دام شعب تلك البلاد مقتنعا بضرورة طاعة الحاكم . أما لو لم يلتزم أفراد الشعب بالطاعة فلن يكون بوسع أفضل الحكام إدخال الإصلاحات المطلوبة فى نظام الدولة .

وهذا ينطبق على نظام البيت أيضا . ويعتبر البيت وحدة أولية للتنظيم الاجتماعى الشامل لأية أمة . وإصلاح الوحدات الصغيرة يؤدى بالضرورة إلى إصلاح التنظيم الاجتماعى الأشمل . ولأجل هذا ينبغى إيجاد مناخ الطاعة والقبول داخل البيت كاحد المطالب الملحة . ومن حق المرأة أن تناقش رأى زوجها وتشرح له وجهة نظرها . ولكن لو قرر الرجل أمرا ما فيجب على المرأة الالتزام بذلك القرار بكل إخلاص ووفاء .

---

(١) النساء : ٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ١ /٤٩٢ .

والرجل بحكم خبرته واحتكاكه بالعالم الخارجى يتناول القضايا بعقلية متفتحة نسبيا ، ويتميز أسلوب تفكيره بالواقعية ، بينما تفكير المرأة يتسم بضيق الأفق فى أغلب الأحيان ، وهى تستسلم بسهولة أمام العواطف . وهذا يرجع إلى أوضاعها التكوينية إلى حد ما ، وهو من مميزات الإطار المخصص لعملها . ويجدر بالمرأة أن تدرك واقع ما تفتقر إليه ، فبإمكانها أن تقدم مشورتها للرجل ، ولكن لا يصح لها أن تتشبث برأى ما بدون مرونة إزاء رأى زوجها .

يشبه النظام المعمول به فى البيت إلى حد ما نظامَ دولةٍ مصغرة . وكل دولة لها قائدها . وقد وقع اختيار الشريعة الإسلامية على الرجل ؛ ليتولى زعامة « دولة » البيت .

تكتم أسرار الزوج

ثانى واجبات المرأة يتحدد على ضوء الآية القرآنية التالية : « حافظات للغيب بما حفظ الله »[1] أى أن الصالحات من النساء يقمن بصيانة أسرار الرجل كما يصون الله أسرارهن .

والمرأة تشكل لباسا للرجل . وكما أن اللباس ألصق شيء بجسد الإنسان ، فكذلك المرأة تعتبر أقرب شخص إلى زوجها . والزوج والزوجة هما الزميلان الوحيدان المسموح لهما حتى بالكشف عن عورتيهما للآخر .

وهذه العلاقة الوثيقة المترابطة تتيح للمرأة الاطلاع على أدق أسرار الرجل ، والتوغل إلى أبعد جوانب حياته المتوارية عن أعين الناس . ويعد هذا موقفا دقيقا : فكل امرىء يملك من الأسرار ما لا يود أن يطلع عليها آخرون ، إلا أنه مضطر إلى عدم فرض ستار السرية على شئونه الخاصة أمام زوجته ، فليس بوسع أى رجل أن يخفى أسراره عن زوجته . فمثل هذا الإجراء غير مجدٍ ، ولا يمكن وضعه موضع التنفيذ بصورة عملية .

---

(١) النساء : ٣٤

وقد توصلت الشريعة الإسلامية إلى حل هذه المعضلة بإلزام المرأة بصفة خاصة بأن تصون أسرار الزوج ، وألّا تبوح بها للآخرين بأى حال من الأحوال . وينبغى لها أن تخشى الله بأن إفشاءها لأسرار زوجها يستدعى غضبَ الله عليها ، وقد يعاقبها الله بتعريضها للتشهير (فى الدنيا) والكشف عن خبايا أعمالها فى الآخرة . وعقاب الآخرة أقسى وأشد .

والواقع أن الخلافات ، وحالات التذمر تحدث بالضرورة من حين لآخر بين شخصين يعيشان معا . ولو أخذنا هذه الحقيقة فى الاعتبار فالمعنى الكامل للتوجيه المذكور هو أنه من واجب المرأة عدم البوح بأسرار زوجها حتى لو كانت تشتكى منه . وعليها ألا تكشف عن خفايا حياته للآخرين حتى لو لم تكن العلاقات بينهما على ما يرام .

والزوجة تعتبر مؤتمنة على أسرار زوجها ، وعليها المحافظة على هذه السرية حتى النهاية . ولا يجوز لها أن تبدأ بالكشف عن أسرار زوجها أمام شخص آخر بمجرد حدوث أى خلاف أو تذمر بينهما .

إدارة شئون البيت

يوجه القرآن خطابه إلى النساء بقوله : ﴿ **وقَرن فى بيوتكن** ﴾[1] ، وتوضيحه فى رأى أغلب المفسرين : « الزمن بيوتكن »[2] أو أنه « أمر بالقرار (الاستقرار) فى البيوت » ، أى بقاء النساء فى البيوت ، واتخاذها إطاراً لأعمالهن .

لقد تحولت المرأة فى العصر الحاضر إلى سلعة للعرض خارج البيت . والإطار البديل المطروح من قبل الإسلام إزاء هذا الوضع هو أن تبقى المرأة فى البيت

---

(١) الأحزاب : ٣٣

(٢) تفسير ابن كثير ، ٣ /٤٨٣ .

وتتولى المسئوليات الداخلية . فالاهتمام بترتيب وتوفير متطلبات أفراد الأسرة ، والقيام بأعمال التدبير المنزلى ، ورعاية ، وتوجيه الأولاد ، تدخل فى دائرة اختصاص المرأة ، وتشتمل على ما أمرهن القرآن بقوله : « وقرن فى بيوتكن » .

ويعتبر القيام بأعمال التدبير المنزلى بمثابة إدارة شئون دولة مصغرة ، وهو يستوجب التشريف والتكريم كأى منصب هام فى الدولة . وينبغى للمرأة أن تباشر إدارتها للشئون المنزلية من موقع المسئولية المشرفة ، وأن تسخر كافة مواهبها لتحويل أسرتها إلى أسرة مثالية ، وأن تهتم بالبيت كاهتمام البستانى ببستانه . وهو ما يهدف إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها . . »[1] .

والتفوق فى إدارة شئون البيت ، أو أعمال التدبير المنزلى هو أفضل ما تتحلى به المرأة من كفاءات . والمرأة المسلمة التى تتحلى بهذه الكفاءة هى التى تعتبر امرأة مثالية كاملة . والمرأة التى تفوز فى هذا الامتحان ستستحق النجاح فى الآخرة . والمرأة التى تقوم بترتيب أوضاع بيت ما فى الدنيا سيتم اختيارها للسكن فى أفخم منازل الجنة .

المرأة المثالية

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى النساء خير ؟ قال : « التى تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فى نفسها وما لها بما يكره»[2] .

ويوضح هذا الحديث ، بالأسلوب الأمثل ، سائر الواجبات المنوطة بالمرأة إزاء زوجها . فالرجل يعود الى داره آخر النهار بعد أن يكون قد واجه قسوة الأحداث فى الخارج . والمرأة المثالية تنفض عن زوجها غبار الهموم ، وتغمره بالسعادة

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الجمعة ، باب الجمعة فى القرى والمدن (فتح البارى ٢ /٣٠٤) .
(٢) سنن النسائى ، كتاب النكاح ، ٦ /٦٨ .

والحنان ، وتجعل من نفسها ركنا هادئا لأجل راحة زوجها . والزوج قد يكلف زوجته بإنجاز بعض الأعمال لدواع عديدة ولأجل تحقيق أهداف خاصة داخل البيت وخارجه ، مما يحتم على المرأة الانصراف إلى استجابة طلباته كزوجة مثالية ، لأجل استكمال مخططه بدون أن تثير أية مشكلة داخل البيت . كما أن وجود المرأة نفسها وسائر محتويات المنزل تعتبر أمانة أودعت من قبل الرجل لدى زوجته ، إذ ليس بوسعه مواصلة الإشراف عليها بسبب انشغاله بمصالحه خارج البيت . والمرأة المخلصة تصبح مؤتمنة لزوجها فى كافة شئونه ، وتصون نفسها لأجل زوجها فقط ، الى جانب سهرها على سائر أثاث البيت ومصالحه .

والمرأة إلى جانب تهيئتها أجواء الراحة النفسية للرجل ، تتمتع بوضع نائب الرجل داخل البيت . وأفضل النساء هى من تقدر هاتين المسئوليتين حق قدرهما ،وهى المرأة التى وصفت فى حديث للرسول صلى الله عليه وسلم بالمرأة المثالية : « . . ليس من متاع الدنيا شىء أفضل من المرأة الصالحة »[1] .

اهتمام أكثر بالسلوك

لقد جاء فى القرآن : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** ﴾[2] .

وقد عبر عنه فى حديث للرسول صلى الله عليه وسلم بأسلوب آخر : « لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن سخط منها خلقا رضى منها غيره »[3] .

ويعنى هذا التوجيه بعبارة أخرى عدم التبرم بما لا يلائم هوى النفس لأمور ظاهرية . فلم يخلق الله أحداً مجردا من سائر العيوب وإن كان أى رجل وامرأة يعانى من النقص فى ناحية فلا بد أن يكون متفوقا فى ناحية أخرى .

---

(١) **سنن ابن ماجه** ، كتاب النكاح ٥ باب أفضل النساء ١ /٥٩٦ .
(٢) النساء : ١٩ .
(٣) **صحيح مسلم** ، كتاب الرضاع ، باب الوصية بالنساء ٢ /١٠٩١ .

تزوج رجل بامرأة ظنها رشيقة فإذا هى قوية البنية ، بل هائلة كالرجال ، مما أدى به إلى عدم التوافق وعدم الانسجام معها . ولكن سرعان ما تغيرت الأوضاع إثر حادث وقع للزوج وأقعده عن العمل . وهنا قررت الزوجة أن تساند زوجها بكامل طاقاتها فى سبيل كسب العيش . وساعد دخلها فى عدم تدهور أوضاع الأسرة المعيشية بعد أن أصبح الزوج عاطلا عن العمل ، فاتضح له أن الزوجة التى كان يعتبرها مثيرة للاشمئزاز تحولت بالنسبة إليه ملاك الرحمة . فهى ، بالرغم من افتقارها إلى الرشاقة ، كانت تمتلك موهبة أغلى منها بكثير أهّلتها لتوفير الدعم الاقتصادى للأسرة عند إصابة الزوج بالتعويق الجسدى .

والقرآن يكشف عن واقع الحياة هذا بقوله : ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾[1] .

وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الوضع بأسلوب آخر :

« ثلاثة كلهم حق على الله عونه : الغازى فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد التعفف »[2] .

التوجيه المتوازن

إذا ارتبط طرفان بقضية فهناك أسلوبان للتعامل معها : الأول أن ينتبه كلاهما إلى نفسه ، والثانى أن يتطلع كل طرف نحو الطرف الآخر . بالأسلوب الأول يشعر المرء بمسئولياته ، وبالثانى يتمسك بحقوقه . الأسلوب الأول يؤدى إلى الإصلاح ، والثانى يقود إلى الفساد .

وإذا كان المرء يسعى لأجل أن ينال حقوقه فقط ، فسيركّز جل اهتمامه على الطرف الآخر المتورط فى القضية وسيلقى عليه تبعات كافة الأمور ، وهذا سيثير

---

(١) النور : ٣٢ .
(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب العتق ٣ باب المكاتب ، ٢ /٨٤٢ .

فى نفسه مشاعر العناد والانتقام والتملص من مسئولياته ، والرغبة فى تكليف الطرف الآخر دون أن يكلف هو نفسه بشىء .

وخلافا لهذا لو انتبه المرء إلى واجباته فيركز جلّ اهتمامه على نفسه ، ويبحث عما قصّر فيه من جانبه ، فسينتهى أمره إلى الالتزام بمواقف جادة ، والشعور بضرورة النقد الذاتى . وهو سيوجه قدراته نحو البناء دون التخريب . إن عمله هذا ، بتأدية المسئوليات من جانبه ، يدفع الطرف الاخر أيضا إلى اتخاذ موقف جاد ، والشعور بضرورة تأدية واجباته هو الآخر .

وهذا الأسلوب الاخير هو نهج الإسلام ، فهو يوصى الجانب الأضعف نسبيا فى قضية مّا بالتحلى بالصبر . ويطلب من الجانب الذى يتمتع بوضع أقوى ، لأى سبب كان ، ألا يحيد عن طريق العدل والصواب .

وتوجيهات الإسلام بالنسبة للعلاقات بين الزوجين تنبع فى بعض نواحيها من هذا المبدأ بالذات . وبما أن المرأة أضعف من حيث التكوين الجنسى ، والرجل هو الجانب الأقوى ، فقد روعى هذا التباين لدى صياغة توجيهات الإسلام ، لإيجاد مناخ أفضل من الانسجام والتوافق فيما بينهما ، ولتمكين بناء الأسرة بدون حدوث أية عقبات .

وفيما يتعلق بموقف النساء يؤكد الإسلام على ضرورة التطبع على الانقياد ، والامتثال لأوامر الأزواج .وقد ورد فى القرآن : « فالصالحات قانتات » . وفسرها عبد الله بن عباس بـ« مطيعات لأزواجهن » ، كما سبق ذكره[1] .

والإسلام يهدف فى الواقع – بالطلب إلى المرأة بالامتثال لأوامر زوجها – التركيز على تنمية الجانب الصالح الخيِّر فى سلوكها ، الذى يؤهلها للقيام بدور الزميلة المخلصة لزوجها ، لأجل إيجاد مناخ البناء ، والتعمير فى الأسرة ، والقضاء على النزاعات العائلية . فالمرأة المطيعة لزوجها تتحول إلى ربة بيت حقيقية بعد

---

(١) راجع ص١٩٤ أعلاه .

أن تغزو قلب زوجها ، وتتبوأ أرقى مكانة فى البيت . وخلافا لذلك فإن المرأة المتمردة على زوجها تواصل معه نزاعات لا لزوم لها ، . ولا نهاية لها ، لتنقلب حياتها إلى الجحيم بصفة دائمة .

ويهتم الإسلام من ناحية أخرى بتربية الرجل سلوكيا بما يضمن عدم انحرافه عن طريق العدل ، وألا يغيب عن باله لدى استخدام صلاحياته كقوّام على الأسرة ، إنه سيمثل فى الآخرة أمام أكبر قوام وأعظم حاكم ؛ حيث سيواجه إجراء أشد لو كان قد عامل مرءوسيه بالعسف والجور ، وسيعامل بالرفق فى الآخرة ، لو كان اتخذ معهم جانب الرفق . وقد روت عائشة رضى الله عنها عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى »[1]

وبناء على ما جاء فى هذا الحديث ، فإن المنزل لا يشكل مجالا لاستخدام سلطات الرجل ، وإنما يشكل موقعا من مواقع تربيته . والرجل الذى يؤدى دورا أمثل داخل نظام البيت سيقوم بدوره المثل على مستوى المجتمع والأمة أيضا . ومن أساء بعمله إلى نظام الأسرة فلا ينتظر منه إلا أن يسىء إلى المجتمع والأمة أيضا . والمرء فى الحالة الأولى يعتبر شخصا مثاليا يسعى إلى الرأفة بسائر بنى البشر ، بينما فى الحالة الثانية لا يستبعد منه أن يلحق الضرر بالعالم الإنسانى بأكمله .

فقضية الحقوق . والواجبات بالنسبة للمرأة ، والرجل لا ترتبط فى واقع الأمر بجداول الأحكام الفقهية ، بل هى قضية العشرة الحسنة . و« الجداول » الفقهية لا تشكل إلا معالم رمزية لتلك العشرة الحسنة ، وهى ليست قائمة متكاملة فى حد ذاتها وذلك لاستحالة إعداد جداول نهائية لأمور كهذه .

والذى يهدف إليه الإسلام هو أن يعترف الجانبان بالحقائق الطبيعية ، وأن يهتما بتأدية الواجبات المنوطة بهما أكثر من المطالبة بحقوقهما ، وان يركزا على تحقيق الأهداف المشتركة (استمرار النظام العائلى وتواصله) بدل التشبث بالمصالح

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب النكاح ، ٥٠ باب حسن معاشرة النساء ١ / ٦٣٦ .

الشخصية ، وأن يكونا على استعداد دائم للتضحية بمصالحهما الذاتية لأجل هذه الأهداف .

وتتكون أفضل البيوت من أفراد يتمتعون بحسن التصرف ، واللباقة ، ومراعاة مشاعر الآخرين . وتتأسس الأسرة المثالية بسواعد رجال ، ونساء سبق لهم أن قاموا ببناء شعورهم الذاتى . ويكمن سر الحياة الزوجية السعيدة فى إدراك هؤلاء الرجال ، والنساء « حقائق الحياة » أكثر من اطلاعهم على « جداول الأحكام الفقهية » . ومن يعرف حقائق الحياة لن يواجه الخيبة أبدا ، ومن يتناسى هذه الحقائق لن يحقق أى نجاح حتى فى حياته الدنيوية .



تعدد الزوجات

من الأحكام الواردة فى القرآن حول الحياة الاجتماعية حكم يخص تعدد الزوجات (الزواج بأربع من النساء كحد أقصى) . والنص القرآنى فى هذا الشأن يقول :

﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة . . ﴾[1] .

وكانت هذه الآية قد نزلت بعد غزوة أحد (فى شهر شوال ٣هـ) . ويذكر عن مناسبة نزولها أنه كان قد استشهد فى الحرب سبعون مسلما مما أدى إلى حرمان سبعين عائلة ، من عائلات مدينة الرسول ، من رجالها فجأة . وبالتالى أصبح عدد كبير من الأطفال يتامى والنساء أرامل . وهنا برز السؤال : كيف تحل هذه المشكلة الاجتماعية ؟ فنزلت الآية القرآنية الآنفة الذكر تدعو ذوى السعة من المسلمين إلى الزواج بالأرامل والتكفل برعاية اليتامى .

ويبدو هذا الحكم القرآنى بنصه وما ذكر عن سبب نزوله كأنه حكم مؤقت ، أى أنه يرتبط بوضع ناجم عن الحرب بزيادة عدد الإناث وانخفاض عدد الذكور فى مجتمع ما . إلا أن القرآن كتاب يتميز بصفة الدوام لأن أحكامه صالحة لكل العصور رغم نزوله فى فترة زمنية محددة . وأحد جوانب الإعجاز فى القرآن هو أنه يفصح عن حقائق أبدية من خلال وقائع ، وأحداث وقعت فى زمن معين . ويمثل الحكم الخاص بتعدد الزوجات هذا الوضع القرآنى المتميز .

ولا يتوقف أمر الزواج بأكثر من امرأة واحدة على مجرد رغبة الرجل فحسب ، بل يستلزم أساسا تواجد الفائض فى عدد النساء فى ذلك المجتمع ايضا . ولنفرض أن هناك ألف مليون شخص يعيشون على وجه الأرض - ٥٠٠ مليون رجل -

---

(١) النساء : ٣ .

فلن يكون بوسع الرجال فى هذه الحالة الزواج بأكثر من امرأة إلا قسرا . والمعروف أن الإسلام يحظر الزواج القسرى ، وتعتبر الشريعة الإسلامية موافقة المرأة شرطا أساسيا لإتمام الزواج على أية حال .

وهكذا فإنه لا يمكن تطبيق حكم القرآن الآنف الذكر من الناحية العملية إلا لو واجه المجتمع وضعا متميزا مماثلا لما حدث فى المدينة بعد غزوة أحد ، أى حدوث التفاوت العددى بين الرجال ، والنساء فى مجتمع ما . وسيصبح الحكم القرآنى غير قابل للتنفيذ فى الواقع العملى لدى انتفاء هذا الوضع . إلا أنه قد تبين ، بدراسة المجتمع والتاريخ البشرى ، أن ذلك الوضع فى مجتمع مدينة الرسول قديما لم يكن وضعا عارضا ، وإنما تواجهه المجتمعات البشرية على وجه البسيطة بصفة عامة . والوضع الطارىء الآنف الذكر هو الوضع السائد فى العالم . وهو يبرهن على أن الذات العلية القديرة التى أنزلت القرآن عالمة بالغيب . فقد أوردت فى كتابها حكما كان فى ظاهره طارئا (خاصا بزمن معين) ، إلا أنه أصبح خالدا لعالمنا على مر العصور .

التفاوت العددى بين الرجال والنساء

تشير الإحصاءات إلى أن عدد الرجال والنساء يكون متساويا تقريبا من ناحية معدل الولادة ، أى المواليد الذكور تماثل فى مجملها المواليد الإناث على وجه التقريب ، إلا أنه قد تبين بدراسة معدل الوفيات أنها تحدث بنسبة أكبر فى الرجال منهم دون النساء . وقد لوحظ هذا التفاوت فى معدل الوفيات بين الجنسين فى مختلف مراحل العمر من الطفولة حتى الشيخوخة . وعلى حد تعبير **دائرة المعارف البريطانية** :[1] « خطر الموت أقل للنساء بالنسبة إلى الرجال فى أية مرحلة من مراحل العمر ، بصفة عامة » .

هناك عوامل عديدة لزيادة عدد النساء ، وانخفاض عدد الرجال فى مجتمع ما .

---

(١) ٧ / ٣٧ .

وعلى سبيل المثال : لو وقعت الحرب يقتل فيها الرجال فى أغلب الأحيان . لقد قتل فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) أكثر من ثمانية ملايين جندى ما عدا ضحاياها من المدنيين الذين كانت غالبيتهم من الرجال . وقتل فى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) أو أصيب بعاهات جسدية ٦٥ مليون شخص أغلبهم من الرجال . وفى الحرب ما بين العراق وإيران (١٩٨٠ - ١٩٨٨) ترملت ٨٢٫٠٠٠ امرأة إيرانية ، بينما يصل عدد النساء العراقيات اللائى فقدن أزواجهن فى هذه الحرب حوالى مائة ألف امرأة .

وقد ينخفض عدد الرجال ، ويرتفع عدد النساء فى مجتمع ما بسبب عقوبات السجن والاعتقال أيضا . وبالرغم من أن الولايات المتحدة تعد فى مقدمة المجتمعات « المتحضرة » فى العصر الحاضر إلا أنه طبقا للإحصاءات تتعامل الأجهزة القضائية مع معدل مليون وثلاثمائة ألف شخص كل يوم فى الولايات المتحدة بسبب تورطهم فى الجرائم[1] . ويودع من بينهم عدد لا بأس به فى السجون لمدد طويلة . وهنا يشكل الرجال أيضا نسبة ٩٧ فى المائة بين هؤلاء المساجين .

وقد زاد النظام الصناعى الجديد من معدل الحوادث ايضا . وأصبحت الوفيات بسبب الإصابات فى الحوادث أمرا عاديا يحدث كل يوم كحوادث المرور ، والطائرات ، والمصانع إلى جانب حوادث أخرى تنجم عن استخدام الآلات الميكانيكية ، والتى باستمرار فى كل بلد . وقد أدى ارتفاع معدل هذه الحوادث فى النظام الصناعى الجديد إلى ظهور فرع خاص فى الهندسة يسمى بـ« هندسة الأمن الصناعى » . وطبقا لإحصاءات سنة ١٩٦٧ مات ١٧٥٫٠٠٠ شخص من جراء هذه الحوادث خلال تلك السنة فى خمسين دولة[2] ، وكان أغلبهم من الرجال .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، ١٤ / ١١٠٢ .
(٢) المصدر السابق ، ١٦ / ١٣٧ .

وبالرغم من إجراءات « الأمن الصناعى » فقد ارتفع معدل الوفيات بسبب الحوادث الصناعية بالمقارنة بما كان يحدث من قبل . وعلى سبيل المثال سجل عام ١٩٨٨ رقما قياسيا فى حوادث الطيران ، كما أن جميع الدول الصناعية تواصل تجاربها لتصنيع الأسلحة ويموت بسببها الناس باستمرار . ولم يكشف النقاب عن عدد ضحايا هذه التجارب بالمرة ، ولكن من المؤكد أن الرجال هم أغلب من يتعرضون للموت فى هذه الحوادث .

هكذا فإن الواقع العملى الناجم من جراء عوامل عديدة فى أغلب الأحيان هو زيادة عدد النساء ، وانخفاض عدد الرجال فى المجتمع نسبيا . ويعانى المجتمع الأمريكى - « المتقدم جدا » كما يزعم البعض - من هذا التفاوت العددى بشدة . وطبقا لإحصاءات عام ١٩٨٧ كان عدد النساء يزيد عن الرجال فى الولايات المتحدة بـ ٧ر٨ مليون امرأة . ويعنى ذلك لو تزوج كافة الرجال فى الولايات المتحدة فستبقى هناك سبعة ملايين وثمانمائة ألف امرأة ممن لن يعثرن على رجال غير متزوجين لأجل عقد الزواج .

وبوسعنا أن نلاحظ من خلال الجدول التالى[1] التفاوت فى النسبة المئوية بين أعداد الرجال والنساء فى بعض دول العالم :

اسم الدولة	ذكـر	أنثـى
النمسا	٤٧ر٠٧	٥٢ر٩٣
بورما	٤٨ر٨١	٥١ر١٩
المانيا	٤٨ر٠٢	٥١ر٩٨
فرنسا	٤٨ر٩٩	٥١ر٠١
إيطاليا	٤٨ر٨٩	٥١ر١١
بولندا	٤٨ر٦١	٥١ر٣٩

---

(١) هذه الأرقام مأخوذة من مقالات دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٨٤) عن الدول المذكورة (المراجع) .

اسم الدولة	ذكـر	أنثـى
اسبانيا	٤٨ر٩٤	٥١ر٠٦
سويسرا	٤٨ر٦٧	٥١ر٣٣
الاتحاد السوفييتى	٤٦ر٧	٥٣ر٣
الولايات المتحدة	٤٨ر٥٨	٥١ر٤٢

موافقة المرأة

ولا تبرر مجرد زيادة عدد النساء فى معدل السكان الزواج بأكثر من امرأة واحدة ، بل يجب إضافة إلى ذلك أن تعرب المرأة التى طُلِبت يدها عن كامل رضاها – وبكل حرية – عن مثل هذا الزواج ، وذلك لأن موافقة المرأة تعتبر – بدون جدال – شرطا أساسيا لإتمام الزواج فى نظر الإسلام . ولا يجوز الاقتران بامرأة ما قسرا . ولا يوجد فى التاريخ الإسلامى النموذجى مثال ما للسماح لأى رجل بالاقتران بامرأة ما قسرا .

وقد روى فى الصحيحين عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم : « . .ولا تنكح البكر حتى تُستأذن »[1] . وذكر عن ابن عباس رضى الله عنه قوله : « أن جارية بكرا أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباها زوّجها وهى كارهة فخيَّرها النبى صلى الله عليه وسلم »[2] .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس قال : كان زوج بريرة عبدا أسود يقال مغيث ، كأنى أنظر إليه يطوف خلفها يبكى ودموعه تسيل على لحيته . فقال النبى صلى الله عليه وسلم للعباس : يا عباس ألا تعجب من شدة حب مغيث بريرة ومن شدة بغض بريرة مغيثا ؟ فقال لها : لو راجعته . فقالت يا رسول الله :

---

(١) صحيح البخارى ، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها (نقلا عن فتح البارى ، ٩٠ / ١٥٧ .

(٢) سنن أبى داودكتاب النكاح ، باب فى البكر يزوجها أبوها ولايستأمرها ، ٢ /٢٣٢ .

أتأمرنى ؟ قال : « إنما أشفع » ، قالت : « لا حاجة لى فيه »[1] .

وفى عهد خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ترملت سيدة وهى أم أبان بنت عتبة فخطبها أربعة أشخاص كانوا كلهم متزوجين ، وهم : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، والزبير ، وطلحة . واستجابت أم أبان لطلب طلحة بالزواج ورفضت عروض الثلاثة الآخرين ، وهكذا تزوجت طلحة[2] .

وقد وقع ذلك فى مدينة الرسول التى كانت عاصمة الدولة الإسلامية آنذاك ، وكان طلب خليفة المسلمين من بين عروض الزواج التى قوبلت بالرفض ، إلا أنه لم يسبب أى نوع من الاستغراب أو الإنكار لدى أحد كما أنه لم يكن سببا لإثارة أية مشكلة فى المجتمع . والسبب فى ذلك هو أن الإسلام يفوض المرأة كامل حريتها ؛ لتقرر مصيرها بنفسها . ولا يمكن لأحد أن يسلب من المرأة حقها هذا ، حتى ولو كان ذلك الشخص يتمتع بأعلى سلطة تنفيذية فى الدولة .

وتبرهن هذه الأحكام والأحداث على أن الإسلام حين يسمح بتعدد الزوجات فليس معناه قيام الرجل باختطاف أربع من النساء وحجزهن فى منزله . بل يتوقف الأمر على موافقة الطرفين . ولا يمكن زواج امرأة برجل متزوج إلا إذا وافقت المرأة نفسها ، وبدون أى ضغط وإكراه على أن تكون زوجة ثانية ، أو ثالثة له . وما دام هذا الأمر يتم بموافقة المرأة كلية فما مبرر معارضته من قبل آخرين ؟ يحظى حق حرية الاختيار بأهمية كبيرة فى العصر الحاضر وهو مكفول به تماما فى الشريعة الاسلامية ، إلا أن أنصار « مساواة المرأة » يريدون أن يجعلوا « حرية الاختيار » مرادفةً لـ« تحديد الاختيار » .

---

(١) **سنن الدارمى** ، كتاب النكاح ، باب فى تخيير الأمة تكون تحت العبد فتعتق (ط دار الفكر ، القاهرة ١٣٩٨ /١٩٧٨) ٢ /١٧٠ .

(٢) لم نتمكن من تخريج هذه الرواية ، إلا أنه مما يذكره ابن كثير (**البداية والنهاية** ٧ / ١٥٣) أن أم أبان حين خطبها عمر قالت : « يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابسا ويخرج عابسا » (المراجع) .

حل لمشكلة . . وليس حكما شرعيا

ويتضح مما سبق أن العالم يواجه مشكلة التفاوت العددى بين النساء والرجال بصفة دائمة ، وفى ظروف الحرب والمسلم على حد سواء . والسؤال الآن : ما دام هناك تفاوت بين عدد الجنسين فما السبيل إلى حل مشكلة التفاوت هذه ؟ وكيف تتصرف النساء من أرامل وغير أرامل - ممن لا يعثرن على أزواج لهن نتيجة اقتصار الرجال على الزواج بامرأة واحدة - لإشباع غرائزهن الطبيعية والعيش بكرامة فى المجتمع ؟

هناك أسلوب نجده فى تقاليد الهند القديمة ، وهو يتمثل فى قيام الأرامل بإحراق أنفسهن مع جثمان الزوج عند وفاته ؛ ليتلاشى وجودهن وبالتالى مشكلاتهن ، أو أن يغادرن البيوت للتشرد ، واحتضان حياة البؤس . وقد نشرت مجلة **إنديا توداى** الهندية النصف شهرية تفاصيل وقائع حياة الأرملة الهندوسية حتى فى عصرنا هذا فى تحقيق صحفى مصور على امتداد ٨ صفحات تحت عنوان : « الأرامل : حطام البشرية »[1] .

ولا يحتاج هذا الحل - إحراق الأرملة - إلى مزيد من التعليق ، لأنه لا يوجد فيما أعتقد شخص فى كامل حواسه فى العصر الحاضر ممن يدافع ، أو يعتبره حلا للمشكلة الآنفة الذكر .

والأسلوب الآخر السائد فى « المجتمع المتحضر » فى الغرب هو عدم رضى المرأة بأن تكون زوجة ثانية لرجل واحد ، واستعدادها لتصبح خليلة لعدد من الرجال .

لقد شاركت دول أوروبية عديدة فى الحرب العالمية الثانية كألمانيا وفرنسا وإنجلترا . وقتل خلال هذه الحرب عدد كبير من الرجال مما أدى إلى زيادة كبيرة فى عدد النساء بالمقارنة مع الرجال ونتج عنها شيوع الانحلال الجنسى . وقد

---

(١) عدد ١٥ نوفمبر ١٩٨٧ .

شوهدت على واجهات منازل بعض النساء اللاتى فقدن أزواجهن خلال الحرب العالمية الثانية ، لافتات تقول : « مطلوب ضيف للمبيت » .

ومازال هذا الوضع قائما فى الغرب بعدة أساليب حتى بعد الحرب . ويعود السبب فى ذلك فى الوقت الحاضر إلى زيادة وفيات الرجال من جراء حوادث المصانع والآلات الميكانيكية بصورة عامة ، والتى ذكرنا تفاصيلها آنفا .

تعدد الزوجات غير الشرعى

تدفع الشعوب التى تعارض أسلوب تعدد الزوجات الشرعى الثمن غاليا بتفشى حالة أكثر خطورة فى مجتمعاتها . وهى انتشار ظاهرة اتخاذ « الخليلات » . ولم يكن بوسع هذه الشعوب الحد من ذلك العامل الطبيعى الذى يؤدى إلى ارتفاع عدد النساء بالنسبة إلى الرجال فى المجتمع . فهذا التفاوت العددى بين الجنسين فى المجتمع من ناحية ، والحظر على تعدد الزوجات من ناحية أخرى ، تسببّا – كمشكلة مزدوجة – فى تواجد ظاهرة « الخليلات » البغيضة (أو بعبارة أخرى ظاهرة تعدد الزوجات غير الشرعى) . ويصف قاموس ويبستر كلمة Mistress (الخليلة) بأنها « المرأة التى تقيم علاقات جنسية بدون الزواج مع رجل يقوم بإعالتها فى أغلب الأحيان لفترة قصيرة ، أو طويلة » .

وأسلوب اتخاذ الخليلة سائد فى كافة الدول ، ومن بينها الهند ، التى تحظر تعدد الزوجات قانونا ، أو تعتبره من المساوىء الاجتماعية . وفى وضع كهذا ليست القضية هنا تبنى أسلوب تعدد الزوجات ، أو رفضه ، وإنما لب المشكلة هو : هل يتم استيعاب العدد الفائض من النساء فى المجتمع بأسلوب تعدد الزوجات الشرعى المسئول أم بأسلوب تعدد الزوجات غير الشرعى اللامسئول ؟

الأسلوب الإسلامى

تأتى بعد هذا الطريقة المطروحة من قبل الشريعة الإسلامية لحل هذه المشكلة ، وهو السماح لبعض الرجال بالزواج من أكثر من امرأة وفق شروط معينة .

ويهدف مبدأ تعدد الزوجات الذى تبنتّه الشريعة الإسلامية فى الواقع إلى إنقاذ النساء من المصير المفجع الآنف الذكر . وبالرغم من عمومية هذا الحكم الشرعى فى ظاهر الأمرْ إلا أن الواقع العملى الجدير بالملاحظة هو أن أية امرأة لا تقبل بأن تكون زوجة ثانية ، أو ثالثة لرجل إلا فى ظروف طارئة وليس فى الحالات العادية ، مما يوضح أن هذا الحكم الشرعى لم يوضع فى حقيقة الأمر إلا لحل مشكلة اجتماعية ، وكإجراء وقائى لإنقاذ العدد الفائض من النساء فى المجتمع من الانحلال الجنسى ، ومساعدتهن على الانخراط فى سلك الحياة العائلية الطبيعية المستقرة . وبعبارة أخرى ليست القضية هنا تبنى أسلوب تعدد الزوجات بدلا من الاقتصار على زوجة ، وإنما هو الاختيار بين أحد الأمرين : الانحلال الجنسى وتعدد الزوجات . .

ويبدو حكم تعدد الزوجات فى بادىء الأمر وكأنه وضع لصالح الرجال ، إلا أنه يظهر فى صالح النساء أنفسهن عند النظر إليه فى إطار الوضع العملى للمجتمع . وهو ليس إلا اجراءً طبيعيا وحلا أكثر واقعية لقضية تخص المرأة .

ولم يسمح الإسلام بتعدد الزوجات لإشباع الرغبة الجنسية للرجال ، وإنما هو فى الواقع أسلوب عملى لحل مشكلة واقعة . فلن يكون بوسع الرجال الزواج بأكثر من امرأة إلا إذا كانت نسبة النساء فى المجتمع تزيد عن نسبة الرجال . ولا يمكن العمل بهذا الحكم إطلاقا لو كان عددهن لا يفوق عددَ الرجال . وهل يضع الإسلام مبدأً صعبَ التحقيق وغير قابل للتنفيذ لمجرد إشباع رغبة الرجل فحسب ؟

وقد أصابت **دائرة المعارف البريطانية**[1] حين كشفت عن أن الفائض فى عدد النساء فى معدل الجنسين هو أحد العوامل وراء تبنى أسلوب تعدد الزوجات ، ولأجل ذلك نرى أن الأغلبية الساحقة من الرجال حتى فى الشعوب التى تبيح ، أو تشجع على تعدد الزوجات تقتصر – من الناحية العملية – على

---

(١) ٧ / ٩٧ .

الاقتران بامرأة واحدة بسبب قلة العدد الفائض من النساء فى المجتمع .

وليس تعدد الزوجات المسموح به فى الإسلام هو الحل المثالى للمشكلة وإنما الدافع وراءه ضرورة عملية . فيحدث فى المجتمع فى أغلب الأحيان أن يزيد عدد النساء عن الرجال ، فوضع مبدأ تعدد الزوجات لإيجاد حل مشرف لهذا العدد الفائض من النساء . إنه حل عملى وليس فكرة مثالية .

وخلاصة القول ان معدل ولادة الذكور والإناث يكون متساويا تقريبا فى البداية إلا أنه كثيرا ما ينخفض عدد الرجال ويرتفع عدد النساء فى المجتمع بسبب عوامل عديدة فى الفترة اللاحقة . والسؤال هو كيف نحل هذه المشكلة ؟ وكيف يمكن إقامة علاقات صحيحة بين الجنسين فى الوضع الناجم عن التفاوت العددى بين الجنسين ، والذى لا مناص منه ؟

الاقتصار على الزواج بامرأة واحدة فقط يخلف مئات الألوف من النساء فى المجتمع ممن لن يعثرن على رجال لأجل إقامة علاقات الزواج ، والعيش معهم بكرامة . إن مبدأ الزواج بامرأة واحدة ربما يبدو فى ظاهره خلابا لبعض الفئات ، إلا أن الأحداث تبرهن على أنه ليس جديرا بأن يوضع موضع التنفيذ فى عالمنا الراهن . والواقع هو أن الخيار هنا ليس بين الأخذ بمبدأ الزواج بامرأة واحدة ، وتعدد الزوجات ، وإنما بين طريقين لتعدد الزوجات : فالطريق الأول هو أن يترك هذا العدد الفائض من النساء للانحلال الخلقى ، والدمار الاجتماعى . والثانى أن تقيم هؤلاء النسوة علاقات الزواج بمحض إرادتهن مع رجال يكونون على استعداد للعدل بين أكثر من امرأة .

لقد اختار الإسلام الطريق الثانى بين الطريقين الممكنين ، بينما اختار الآخرون الطريق الأول . وعلى المرء أن يقرر بنفسه أيًا من الطريقين أكثر شرفا ومعقولية .

★ ★ ★

قضية الطلاق

حين يرتبط رجل وامرأة برابطة الزواج يهدفان دائما إلى العيش معا طول عمرهما ، وأن يواجها معا أوضاع الحياة . وحين تستولد الطبيعة من بينهما مولودا فكأنه وثاق محكم ، ليضمن قوة ارتباط أحدهما بالآخر أكثر من ذى قبل .

وتذكر **دائرة المعارف البريطانية**[1] (١٩٨٤) استنادا إلى إحصائيات الدول الغربية : « أن الزوجين الأبترين ينزعان إلى الطلاق أكثر ممن يرزقون بالأولاد » .

ويصف قاض غربى لدى نطق حكمه فى إحدى القضايا هذه الحقيقة الطبيعية بقوله : « كل طفل جديد يولد لدى الزوجين يشكل ضمانا إضافيا على أن زواجهما لن ينتهى إلى الطلاق أمام أية محكمة » .

وبالرغم من كافة هذه الارتباطات الطبيعية والنفسية يحدث فى بعض الأحيان أن يضطر الرجل أو المرأة إلى اتخاذ قرار الانفصال . ولم تكن حوادث الطلاق تقع كثيرا فى العصور السابقة إلا أنه ازداد معدلها فى الوقت الراهن ، وخاصة فى المجتمعات الغربية .

والطلاق إحدى حقائق الحياة . إلا أن ارتفاعه بهذا الشكل المذهل حالة مستجدة نشأت بسبب عوامل عديدة فى الوقت الحاضر . ومن بينها توفير تسهيلات أكبر للنساء لكسب العيش . وعلى حد تعبير **دائرة المعارف البريطانية** :[2] « التصنيع جعل من السهل للمرأة أن تعول نفسها ، سواء أكانت عزبة ، أو متزوجة ، أو مطلقة ، أو أرملة . ومن الأهمية بمكان فى هذا الصدد أن نلاحظ أن الكساد العظيم فى الثلاثينيات فى هذا القرن حال دون ارتفاع نسبة الطلاق لبعض الوقت فى الولايات المتحدة » .

الحكم الإلهى بشأن الطلاق

قضية الزواج هى ركيزة الحياة الأساسية ، بينما مشكلة الطلاق حالة استثنائية .

---

(١) ٧ /١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) ٧ /١٦٣ .

وبما أن هذه الحالة الاستثنائية يتكرر وقوعها فقد وضعت تشريعات خاصة بها فى القانون الإلهى ، والقانون الوضعى على حد سواء .

والقرآن ، باعتباره أفضل وأشمل مصدر للشريعة الإلهية ، يتضمن أحكاما شاملة عن الطلاق . والسنّة تفسير موثوق به للنص القرآنى . وتتلخص احكام الطلاق الإسلامية كالآتى : **أولا** : ألا يتم الطلاق إلا فى حالات اضطرارية قصوى . وقد وصف الطلاق فى حديث للرسول صلى الله عليه وسلم بـ« أبغض الحلال . . . »[1] . **ثانيا** : « أن يتم التعامل بقضية الطلاق بحيث ينفصل الزوجان بكرامة واحترام متبادلين لا أن يورث الانفصالُ الحقدَ والضغينة ، فتعقبه محاولات الإساءة وإلحاق الضرر بالجانب الآخر .

ويركِّز القرآن على المعاملة الطيبة مع النساء فى قضية الطلاق بقوله : ﴿ . .وسرحوهن سراحا جميلا ﴾[2] .

حالتان للطلاق

هناك حالتان للطلاق من الناحية العلمية . أولا : الطلاق بدافع انفعالى فورى . ثانيا : الطلاق وفق قرار مدروس . والحالتان تختلفان شكلا ، وموضوعا .

والمعروف أن الحياة العائلية تواجه باستمرار مايعكِّر صفوها وينغِّصها . وهذه التعكيرات والمنغِّصات من مستلزمات الحياة الاجتماعية ، ولا يمكن أن تفصل عنها بأى حال من الأحوال . وعندما يتعرض المرء لأوضاع كهذه فالرجل الواعى يتصرف إزاءها بالحلم والصبر والتغاضى ، أو يلجأ إلى استخدام الكلمات القاسية ؛ لينفِّس عما يجيش فى صدره ، وذلك للحيلولة دون حدوث أية تعقيدات حقيقية فى الحياة العائلية .

إلا أن الرجال غير الواعين ، ومن يعانون من عقدة العظمة الزائفة ، لا يسعهم

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الطلاق ، باب فى كراهية الطلاق ، ٢ /٢٥٥ .
(٢) الأحزاب : ٤٩ .

الأخذ بجانب الحلم ، كما لا يرضى غرورهم بتقريع الجانب الآخر بالكلمات القاسية . بل يبادرون بقولهم : « طلقتكِ . . طلقتكِ . . طلقتكِ . . . » ، للإعراب عن فورة غضبهم الشامل ، وإنزال العقاب النهائى بالجانب الآخر . إن مثل هذا الطلاق يعبر عن أقصى حالات الغضب النقمة ، وهو يصدر عن أناس يفتقدون قدرة التحكم فى مشاعرهم . وحادث السيد قريشى[1] الذى تداولته الصحف الهندية مؤخرا أبلغ مثال على ذلك . فلو لم يكن قد طلّق زوجته فى نوبة غضب لما أعرب عن استعداده لإعادتها إلى بيت الطاعة مرة أخرى .

إن أسلوب الطلاق الذى تبناه الإسلام يعتبر إجراءً طبيعيا وناجحا للغاية لوضع الحد أمام هذه المساوىء الاجتماعية . ويتبين أسلوب هذا من خلال الآية القرآنية التالية :

﴿ **الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ﴾[2] .

وورد فى الحديث النبوى الشريف : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم إنى أسمع الله تعالى يقول : الطلاق مرتان فأين الثالثة ؟ قال : « إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان هى الثالثة »[3] .

ويستدل من الآية القرآنية وأثر الرسول أنه إن أراد رجل أن يطلق زوجته فلا ينبغى له أن يطلقها ثلاثا - مرة واحدة - لينفصل عنها نهائيا . بل الأسلوب الأمثل هو أن يستكمل إجراءات الطلاق خلال ثلاثة أشهر . وذلك بأن يطلقها مرتين على التوالى خلال فترتى « الطهر » أى لدى انتهاء عادتها الشهرية . وبإمكانه فى فترة « الطهر » الثالثة أن يرجع عن قراره ، أو أن يطلقها للمرة الثالثة ، والأخيرة ويودِّعها ، إن كان قرر الانفصال فعلا ولا يرغب فى إعادة النظر فى قراره .

---

(١) قد سبق الإشارة الى قضية زوجته نادرة على ص٥١ - ٥٢ أعلاه .

(٢) البقرة : ٢٢٩ .

(٣) **سنن الدارقطنى** ، كتاب الطلاق والخلع والإيلاء وغيره ، ط . دار المحاسن (القاهرة ب .ت) ٤/ ٤ .

وليس من الصواب أن يطلق الرجل زوجته وهى تقضى عادتها الشهرية ، بل يجب تأجيله إلى ما بعد الإنتهاء منها ، وعودتها إلى حالتها الطبيعية ، وهى ما تسمى بفترة « الطهر » . فبإمكان الرجل حينذاك أن يقول لزوجته مرة واحدة : « طلقتك » ، وهى ستواصل الإقامة معه تحت سقف واحد فى انتظار حلول العادة الشهرية ، والانتهاء منها . وفى الشهر التالى ، أى خلال فترة الطهر الثانى ، يقول الرجل لزوجته للمرة الثانية : « طلقتك » ويظل فى انتظار فترة « طهرها » للشهر الثالث على التوالى ، حين يصبح بإمكان الرجل أن يعيد النظر فى قراره ، أو أن يطلقها للمرة الثالثة ، ويودعها مع التكريم اللازم .

والطلاق فى حد ذاته إجراء مكروه للغاية فى نظر الإسلام . وقد نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »[1] . وتعد مبادرة الرجل بتطليق امرأته ثلاثا – مرة واحدة – أقصى حالات التمرد ، وتعتبره الشريعة عملا سيئا للغاية . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أتى برجل طلق امرأته ثلاثا « أوجع ظهره » (أى ضربه بالكرباج) .

ويجب اتباع الأسلوب الموضح أعلاه على من يرغب فى الالتزام بمبدأ الإسلام فى شأن الطلاق . والطلاق خلال فترات طهر ثلاثة يعتبر اجراءً مناسبا وطبيعيا للغاية . وباتباع هذا الأسلوب يمكن وضع الحد تلقائيا لكافة حالات الطلاق التى تنشأ بدوافع انفعالية طارئة ، وتحت ضغط التوترات العصبية . . لأن حالة الرجل المزمع على الطلاق بسبب ما انتابه من نوبة عصبية ، أو ما تولدت لديه من مشاعر النقمة ضد زوجته ستزول تلقائيا خلال شهر ، أو شهرين ، فيندم على قراره بمجرد عودته إلى وضعه الطبيعى ، ويستأنف العلاقات العادية مع زوجته .

أما لو كانت هناك أسباب وجيهة وراء الطلاق ، ويكون المرء قد قرر الانفصال بعد دراسة متأنية للموضوع من كافة جوانبه ، فإنه سيظل متمسكا بقراره حتى بعد مضى شهرين ، وسيعلن الانفصال كإجراء واقعى ، وليس بدافع فورى فيظل نادما على فعلته طوال حياته .

وقد ذكر لى محامٍ مسلم بدلهى أن رجلا مسلما طلب منه إعداد أوراق

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الطلاق ، باب فى كراهية الطلاق ، ٢ /٢٥٥ .

الطلاق ، وكان ينوى تطليق زوجته ثلاثا . وبما أن ذلك المحامى كان مطلعا على قوانين الأحوال الشخصية فى الإسلام ، فأخبره بأن الإسلام يدين بشدة تطليق الرجل امرأته ثلاثا مرة واحدة ، وإن كنت قد قررت طلاق زوجتك فينبغى اتباع الأسلوب الذى سنّه الإسلام ، وذلك باستكمال . إجراءات الطلاق خلال فترات طهر ثلاث.. فاقتنع الرجل بكلام المحامى ، وعاد إلى منزله ليطلق زوجته طلاقا واحدا فقط . إلا أنه لدى حلول الشهر الثانى كانت فورة غضبه قد هدأت فرجع عن قراره ، ورجع إلى الحالة الطبيعية فى علاقاته مع زوجته . وفى زيارته التالية أعرب للمحامى عن امتنانه قائلا : لقد أسديت إلى خيرا كثيرا . لو كنت طلقت زوجتى آنذاك طلاقا بائنا بدافع حالة الهياج والغضب لأدى ذلك إلى تفكيك وتشتيت أسرتى .

ما هو « المتاع » ؟

من أحكام الطلاق فى الإسلام ماعبر عنه القرآن بضرورة توفير « المتاع » للمطلقة . وقد ورد هذا الحكم فى مناسبتين فى سورة البقرة :

– ﴿ **لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتّعوهن ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقا على المحسنين** ﴾[1] .

– ﴿ **وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين** ﴾[2] .

وبصرف النظر عن التفاصيل الفقهية ، فإن الآية الأولى تهدف فى عمومها إلى أنه لو طلق رجل زوجته ، ولم يكن المهر قد تحدد لدى عقد الزواج ، كما أنه لم يمسها فيجب عليه تقديم ما بوسعه من المال ، أو « المتاع » لها ، ولن يكون مطالبا بدفع مبلغ المهر فى هذه الحالة .

---

(١) البقرة : ٢٣٦ .

(٢) البقرة : ٢٤١ .

والآية الثانية توضح هذا الحكم لسائر حالات الطلاق بصفة عامة ، أى أنه ينبغى للرجل الذى يطلق زوجته أن يقدم لها لدى الانفصال النهائى بعض الحوائج كالثياب ، أو أشياء أخرى ، وذلك كبادرة حسن نية . وتوفير « المتاع » للمطلقة فى الحالة الأولى واجب لدى بعض الفقهاء ، بينما هو مستحب فى الحالة الثانية .

مزاج الشريعة الإسلامية

توجد بين فقهاء الشريعة الإسلامية خلافات هامشية حول تفسير الآية الثانية (البقرة : ٢٤١) ، إلا أنهم قد أجمعوا على أنها وردت بشأن ما ينبغى التعامل به مع الزوجة السابقة بعد وقوع الطلاق مباشرة ، وهى لا تعنى مطلقا بأن يكلف الرجل بمواصلة إعالة مطلقته حتى بعد إتمام إجراءات الطلاق ووقوع الانفصال النهائى .

والواقع هو أن المفهوم الآخر هو نتاج الحضارة الحديثة تماما ، ولم تتضمنه الشريعة الإلهية يوما ما ، لا الإسلام ، ولا الشرائع السماوية قبل الإسلام . وبالرغم من بعض الخلافات الهامشية بين فقهاء الإسلام حول التطبيق العملى لمدلول الآية ، إلا أنه لم يذهب أى منهم إلى أنها تلزم الرجل بمواصلة دفع نفقات الإعالة الى زوجته السابقة حتى بعد استكمال إجراءات الطلاق المعهودة . وقد يعرب البعض مثل هذا الرأى بصفته الشخصية ، ولكن من دون أن يأتى بأى دليل ، أو برهان من القرآن ، والسنة كما لم يتبناه أى من فقهاء الإسلام .

ولأجل هذا يطلق على هذا « المتاع » فى الفقه الإسلامى بـ« متاع الطلاق » وليس بـ« المتاع » أو « نفقة الإعالة » Maintenance على مدى الحياة ، فهو لا يعنى إلا متاعا ، أو مبلغا من المال يقدم للمرأة لدى توديعها بعد إتمام الطلاق ، ووقوع الانفصال النهائى .

وبما أن القرآن يهدف إلى حل كافة القضايا بالأساليب الطبيعية ، فلأجل ذلك من المستبعد أن يطلب توفير نفقات الإعالة من نفس الرجل الذى أدى عدم

الانسجام معه إلى انفصال المرأة عنه . مثل هذا الوضع سيتسبب فى ظهور اتجاهات سلبية فى المجتمع . وقد ورد فى القرآن بصدد أحكام الزواج والطلاق :

﴿ وإن يتفرقا يُغْنِ الله كلًا من سعته ، وكان الله واسعا حكيما ﴾[1] .

وتعنى « السعة » المنسوبة إلى الله تعالى فى الآية ذلك النظام (المعيشى) الطبيعى الشامل الذى هيّأه الله تعالى لعباده فى هذا العالم . وتنشأ مشاعر التضامن مع المرأة بعد وقوع طلاقها لدى ذوى قرباها طبيعيا . فيتصدر هؤلاء لرعايتها ومساعدتها تلقائيا فى أغلب الأحيان . كما أن المرأة تبدأ من جديد ، وبعزم ، وإصرار ، بذلَ الجهود لحل قضاياها ، وكثيرا ما تقدم على إنجاز أعمال لم تكن تخطر على بالها من قبل .. فقد جعلتها التجارب السابقة أكثر وعيا ، وإدراكا لمصالحها ، وأجدر بأن تنسجم مع الزوج الجديد فيما لو قررت الزواج مرة أخرى .

كيف تواجه المرأة أوضاع ما بعد الطلاق ؟

من أين تقوم المرأة بتسيير أوضاعها المعيشية الملحة بعد وقوع الطلاق وانفصالها عن زوجها ؟ توجد الإجابة الجزئية على هذا السؤال فى تشريعات الإسلام الخاصة بالوراثة . ولو نفذت قوانين الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بتحديد نصيب النساء فى ممتلكات وعقارات العائلة فى الإرث لما واجهت المرأة المطلقة مصاعب معيشية إطلاقا . وذلك لأن تحديد نصيب معين للمرأة فى ممتلكات العائلة يعتبر فى حد ذاته إجراءً احتياطيا يمكّنها من إعالة نفسها فى الحالات الطارئة .

إلا أن حل الإسلام لمشكلة المرأة المطلقة الاقتصادية لا يقتصر على قوانين الوراثة فحسب ، بل الحقيقة هى أن قوانين الإعالة فى الإسلام توفر ترتيبات معيشية أفضل للمرأة المطلقة . وتوفير الإعالة للمرأة المطلقة أمر مسلم به ولكنه لا يرتبط بقوانين الطلاق ، بل بقوانين الإعالة التى ينبغى الرجوع اليها لمعرفة حكم الإسلام فى حالات كهذه .

---

(١) النساء : ١٣٠ .

وفيما يلى توضيح بعض جوانبها :

١ - لو كانت المرأة المطلقة لم ترزق بالأولاد ، أو أن أبناءها غير قادرين على كسب العيش فوالدها يتكفل بإعالتها وفق قوانين الشريعة الإسلامية ، أى أن المرأة بعد انفصالها عن زوجها تعود تلقائيا الى وضعها قبل الزواج . فالأب الذى كان يتكفل بابنته قبل زواجها سيتولى إعالتها مرة أخرى بعد الطلاق . وقد جاء فى **الفتح القدير** لابن الهمام :

> فالإناث عليه نفقتهن الى أن يتزوجن ، إذا لم يكن لهن مال ، وليس له أن يؤاجرهن فى عمل ولا خدمة ، وإن كان لهن قدرة . وإذا طلقت وانقضت عدتها عادت نفقتها على الأب[١] .

٢ - لو كانت المطلقة أما لأولاد ذوى دخول ثابتة وجب عليهم التكفل بكافة نفقاتها :

> إن جميع ما وجب للمرأة وجب للأب والأم على الولد من طعام أو شراب وكسوة وسكنى حتى الخادم[٢] .

٣ - ولو كان والد المطلَّقة قد توفى و لم يكن من أولادها من يقدر على إعالتها وجب على ذوى قرباها المحارم ، كالأعمام والأشقاء ، التكفل بنفقاتها .

وفى حالة عدم تواجد حتى هؤلاء ستقوم الدولة بالإنفاق عليها من بيت المال وفق قوانين الشريعة الإسلامية . والمرأة المطلقة تملك حقا شرعيا بمطالبة الدولة (الإسلامية) أن توفر لها هذه النفقات .

و لم يحدث على مدى التاريخ الإسلامى ، وإلى اليوم ، أن تبقى المرأة المسلمة المطلقة بدون سند ، أو عائل يقوم برعايتها ، وذلك بسبب ما اتخذته الشريعة الإسلامية من الترتيبات والإجراءات .

---

(١) ٢ /٣٨١ (ط . لكناؤ على الحجر ، ب .ت) .

(٢) ابن عابدين ، **حاشية رد المحتار على الدار المختار** ، ط . دار الفكر (بيروت ، ١٣٩٩ / ١٩٧٩) ٣ /٦٢٢ .

مشكلة الحضارة الحديثة

لقد خلقت الحضارة الغربية مشكلات عديدة فى العصر الحاضر ، وهى مشكلات مصطنعة أكثر من كونها حقيقية . وقد انتهجت الحضارة الغربية نهجا غير طبيعى لدى تناولها عددا من القضايا مما نجمت عنها مشكلات غير طبيعية . وتماديا فى نهجها الخاطىء ، حاولت هذه الحضارة حل هذه المشكلات بأسلوب غير طبيعى مما زادت إلى مشكلاتها مشكلات أخرى .

ومنها مشكلة الطلاق . وحركة تحرر المرأة التى قامت فى الغرب لم تكن مخطئة تماما من حيث دوافعها الأولية . إلا أن أنصار هذه الحركة لم يكونوا يعرفون الحدود التى يقفون عندها . فقد أدت محاولتهم لإيجاد مجتمع حر إلى إيجاد مجتمع إباحى . وبدأ الاختلاط بين الرجال والنساء بدون حدود ، أو قيود ، مما أصاب رابطة الزواج بالوهن . ولم يعد الرجال والنساء أزواجا وزوجاتٍ يعيشون فى كنف حياة عائلية مستمرة ، بل تحولوا إلى « ذواقين وذواقات »[١] كما جاء فى حديث للرسول صلى الله عليه وسلم . ومما زاد الطين بلة التسهيلات التى وفرها العصر الصناعى للمرأة لكسب عيشها بحرية . فلم يكن الفوز بمصدر دخل مستقل فى متناول المرأة فى يوم من الأيام كما هو الآن فى المجتمع الصناعى الجديد ، مما أضعف « قوّامية » الرجل . ولم تعد النساء تقتنع بالبقاء تحت نفوذ الرجال . وظهرت فى الحياة الاجتماعية كل تلك المشكلات التى زادت من معدل حالات الطلاق .

وقد توصل حكماء الغرب إلى تدبير أمر الحد من الطلاق بإلزام الرجل قانونا بإعالة المرأة حتى بعد وقوع الطلاق . وتحدد مبالغها طبقا للمستويات المعيشية

---

(١) الهيثمى ، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، كتاب الطلاق ، باب فيمن يكثر الطلاق ، ٤ /٣٣٥ . وقد شرح ابن منظور قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يحب الذواقين والذواقات » بأنه يعنى : « السريعى النكاح السريعى الطلاق ، . . وتفسيره أنه لا يطمئن ولا تطمئن ، كلما تزوج أو تزوجت كَرِهَا ومَدًّا أعينهما إلى غيرهما . والذواق : الملول . » **لسان العرب** ، مادة « ذوق » (المترجم) .

فى الغرب . ويعنى هذا فى أغلب الأحيان أن يتنازل الرجل عن جزء كبير من ثروته لمطلقته ، فضلا عن أن يقدم لها جزءا من دخله على مدى الحياة .

ومن أمثلة هذا الوضع غير الطبيعى ما حدث مع برتراندراسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠) الذى كان يعد من أبرز المفكرين البريطانيين . وكان يبحث عن امرأة بمستواه العقلى والفكرى لترافقه فى دروب الحياة . وأدرك راسل بعد أن خاض تجربة الزواج الأولى أن المرأة التى اقترن بها لم تكن توافق طموحاته . غير أنه لم يتعجل فى الانفصال عنها حتى بعد اتضاح عدم الانسجام بينهما . فحاول أن يتعايش معها حوالى عشر سنوات بالرغم مما كان يعانى من جرائه من العذاب النفسى ، إلى أن طلقها فى نهاية الأمر ليقترن بامرأة أخرى ، إلا أنه لم يسعد بزواجه الثانى أيضا ، مما حمله على الاقتران بامرأة ثالثة .

والجدير بالذكر أن طلاق برتراند راسل لزوجتيه السابقتين قد كلفه كثيرا . فالمبالغ التى كان يجب عليه أن يدفعها إليهما قانوناً أثّرت سلبيا على أوضاعه المعيشية . ومما يذكره راسل فى سيرته الذاتية :

> العبء المالى كان ثقيلًا ، بل ومقلقًا إلى حد كبير . وكنت أعطيت عشرة آلاف جنية لزوجتى الثالثة من جائزة نوبل التى حصلت عليها والتى زادت بعض الشىء أحد عشر ألف جنيه . وكنت أدفع النفقة لها ولزوجتى الثانية ، كما كنت أدفع لتعليم ابنى الأصغر وإجازاته وإلى جانب هذا كانت هناك نفقات باهظة لعلاج ابنى الأكبر ، وكذلك كان علىّ أن أدفع الضرائب على الدخل للسنوات التى تجاهلت فيها دفعها[١] .

لقد وضع الغرب قانونه هذا لإدخال الإصلاحات فى الحياة العائلية على ما يبدو . إلا أنه أحدث نتائج معاكسة فى المجتمعات الغربية . فقد واجه كثير من

---

(١) Bertrand Russell, Autobioraphy (London 1978) pp 563-4.

الناس من تجارب كما عاناها برتراند راسل . وأدركوا أن طلاق الزوجات يكلّفهم مبالغ كبيرة . واعتقدوا أن أسلوب الزواج هذا باهظ الثمن . وبدأت تراودهم أفكار مضادة للزواج ؛ مما نجم عنه أن الرجال والنساء أصبحوا يتعايشون تحت سقف واحد بدون حاجة إلى الزواج . والنتيجة هي ان حوالى خمسين فى المائة من شباب الجيل الجديد فى الغرب يعيشون مع « زوجات » بدون زواج .

العيش معا بدون زواج

وفيما يلى ملخص لما نشرته بعض الصحف الهندية مؤخرا عن أوضاع المرأة الغربية نقلا عن تقارير صحفية غربية :

> الزواج الفعلى ، وهو أن يعيش رجل وامرأة معا بدون زواج قانونى ، لا يتزايد فقط فى مدينة هامبورغ الالمانية بل اخذ هذا النوع من العيش المشترك طابعا المانيا متميزا بأن الزوجين يستعينان بالمحامين لإعداد عقود واضحة ومفصلة بين الزوجين غير المرتبطين بالزواج . وقد زاد عدد الأزواج الذين يعيشون معا بدون زواج أربعة أضعاف خلال السنوات العشر السابقة طبقا لإحصاء أجرته شركة « إيمنيد » Emnid . أما فى الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ – ٢٥ سنة زاد هذا النوع من الارتباط عشرة أضعاف عما كان عليه قبل عشر سنوات . وهذا يعنى أن مليون المانى ، ومليون المانية يستيقظان كل يوم معا بدون الارتباط بزواج قانونى[١] .

وقال تقرير آخر : إن علماء الاجتماع فى فرنسا متحيرون إزاء السبب الذى يدفع أعدادا متزايدة من الرجال والنساء ليعيشوا معا بدون زواج بدلا من الارتباط بالزواج القانونى . وقد شاع هذا التقليد بصورة كبيرة رغم أن القانون الفرنسى

---

(١٦) تايمز أوف إنديا ١٧ نوفمبر ١٩٨٥ .

لا يعترف بالأزواج الذين يعيشون بدون زواج . وهناك مشكلات تتعلق بحضانة الأولاد ، والوراثة . وتكشف إحصاءات رسمية نشرتها جريدة **لوموند** أن هناك أكثر من مليونى فرنسى وفرنسية يعيشون معا بدون زواج بالمقارنة مع ٢٤ مليون فرنسى وفرنسية متزوجين . وقد أخذت الزيجات التقليدية تتناقص إلى أن وصلت إلى أقل نسبة لها سنة ١٩٨٨ . وقد تساءل علماء الاجتماع : « ما هذا الذى يحدث لمؤسسة الزواج » ؟ ومن باب الغرابة أن الأزواج والزوجات الذين يعيشون بدون زواج يتمتعون بمنافع ضريبية أكثر بالمقارنة مع المتزوجين والمتزوجات بصورة قانونية . والذين يعيشون بدون زواج يحصلون على مزايا عندما يتقدم كل من الزوج والزوجة على حدة بالإقرار الضريبى . ويتم التعامل مع الإقرارَيْن على عكس المتزوجين بصورة قانونية فهم يتقدمون بإقرار ضريبى مشترك وبالتالى تنخفض مزاياهم الضريبية . وفى الوقت نفسه تعطى البلديات شهادات يعيشون معا بدون زواج فيحصلون على نفس المزايا والخدمات الاجتماعية وتسهيلات النقل العام التى تخصص للمتزوجين بصورة قانونية . ويعزو علماء الاجتماع ومنهم بيير إيلين أوديراك Pierrealain Audirac هذه الظاهرة إلى أربعة أسباب رئيسية أولها : انتشار وسائل منع الحمل التى جعلت الزواج غير ضرورى إلى أن يريد الزوجات إنجاب الأطفال . والثانى : إحجام الزوجين عن التزامات بعيدة المدى . والثالث : تمتع النساء العاملات باستقلال أكثر ، وتمكنهن من أن يعشن بدون زواج ، ويحصلن على الطلاق بسهولة . والرابع : تفشى البطالة .

ويقول المركز القومى لإحصاءات الصحة فى الولايات المتحدة : إن نسبة الزواج بين النساء الأمريكيات قد وصل أدنى معدل له . ويقول آخر الإحصاءات : إن نسبة الزواج بين النساء البالغات من العمر ١٥ – ٤٤ سنة قد انخفض عن مائة لكل ألف امرأة . وكان طبيعيا أن ينعكس هذا فى عدد الزيجات . وبينما عقدت ٢٫٥ مليون زيجة سنة ١٩٨٢ هبط عدد الزيجات فى السنة التالية الى ٢٫٤٤٥٫٦٠٤ زيجة .

ويرى علماء الاجتماع أنه بغض النظر عن أن يكون هذا الشىء محمودا ، أو

مذموما ، فإن المرأة الأمريكية وخصوصا التى تنتمى إلى الطبقتين المتوسطة والعليا ترى أن هناك تناقضا بين الزواج وحياتها المهنية . ورغم موجة العودة إلى التقاليد فإن المرأة الأمريكية لا تزال تتجاهل خيار الزواج . وذلك لأن هناك قبولا متزايدا فى المجتمع للرجال والنساء الذين يعيشون معا بدون زواج قانونى . وكذلك هبطت درجة الاستنكار لإنجاب نسوة غير متزوجات للأولاد[1] .

تجربة الهند

والتجربة الأخرى لتصعيب الحصول على الطلاق هى ما خاضته الهند القديمة . وكان المصلحون الدينيون الأوائل قد حظروا الطلاقَ للدفاع عن حقوق المرأة - على ما يبدو - فضلا عن سد كافة الطرق أمام الزواج الثانى للمرأة لاستئصال أية نزعة لديها إلى الحصول على الطلاق . والتشريعات التى وضعت فى هذا الشأن قضت بأنه لا يحق للرجل أن يطلق امرأته بعد استكمال إجراءات الزواج ، كما لا يمكن للمرأة أن تتزوج مرة ثانية فى حالة انفصالها عن زوجها الأول .

إلا أن أسلوب الإصلاح هذا لم يكن يطابق الطبيعة ، مما أدى بالمجتمع الهندوسى إلى أن يدفع ثمنه باهظا . فانعدام الانسجام والتوافق بين امرأة ورجل هندوسيين بعد الزواج كان يعنى تحول حياتهما إلى الجحيم بصفة دائمة . فلم يكن بوسع الرجل أن يطلق زوجته ولا بوسع المرأة أن تتزوج مرة أخرى بعد انفصالها عن زوجها . وكان السبيل الوحيد المتاح للمرأة الهندوسية أن تعيش فى عذاب دائم مع زوج غير مرغوب فيه ، وأن تسلم نفسها إلى نار المحرقة لو توفى زوجها أثناء حياتها .

وقد اتخذت هذه المشكلة وضعا جديدا فى الوقت الحاضر . فبالرغم من أن القانون الهندى يبيح الآن للمرأة الهندوسية أن تنفصل عن زوجها ، وتتزوج مرة أخرى ، إلا أن المجتمع الهندوسى مازال متشبثا من الناحية العملية بالتقاليد الموروثة

---

(١) المصدر السابق ، ١٧ مايو ١٩٨٦ .

منذ آلاف السنين . ومن نتائجها المروعة ارتفاع عدد النساء اللائى يقبلن على الانتحار لعدم الانسجام وعدم التوافق مع أزواجهن[1] . والدافع وراء هذه الظاهرة هو الوضع المشار إليه آنفا ، أى إدراك هؤلاء النسوة مدى صعوبة الانفصال عن أزواجهن أولا ، ولو تم الانفصال بأية طريقة فالزواج الثانى سيكون أصعب منالا .

* * *

---

(١) وإلى جانب قضايا الانتحار يعمد الأزواج ، للتخلص من زوجات غير مرغوب فيهن ، الى حرقهن ثم الادعاء بأنهن قد انتحرن ! ويتم هذا الحرق بسببين : قلة الجهاز الذى تأتى به العروس الى زوجها ورغبة الزوج فى التخلص منها لعدم انسجامه معها . وحوادث الحرق هذه تحدث بكثرة فى أنحاء الهند . والغالبية العظمى من هذه الحوادث تحدث بين الهندوس إلا أن طوائف آخرى لم تسلم من هذه الجرائم (المراجع) .

جهاز العروس والمهر

جهاز العروس

لقد انتشر التقليد الخاص بتقديم الجهاز (« الدوطة ») للعروس من قبل أهلها بمناسبة الزواج على نطاق واسع بين المسلمين فى شبه القارة الهندية . وهذا التقليد لا يمتّ إلى الإسلام بأية صلة ، فضلا عن عدم وجوده فى دول إسلامية أخرى . ومن البديهى أن هذا التقليد وجد طريقه إلى مسلمى شبه القارة الهندية عبر المجتمع الهندوسى . والمعروف أنه طبقا لقوانين الأحوال الشخصية الهندوسية البائدة لاحق للإناث فى وراثة أملاك العائلة . ولهذا جرى التقليد عند الهندوس بتقديم أكبر كمية من الجهاز إلى البنت بمناسبة زواجها تعويضا لحرمانها من وراثة أملاك العائلة . فيحاول رب العائلة الهندوسية تخصيص جزء من ثروته لبناته فى شكل هذا الجهاز .

وقد أخذ مسلمو الهند يحاكون هذا الأسلوب الهندوسى . وبالرغم من أن الإسلام يحدد النصيب المعهود للإناث فى إرث العائلة ، إلا أن مسلمى الهند قد حرموا الإناثَ من حقهن الشرعى هذا ، وانتهجوا أساليب الهندوس لتعويض حرمان بناتهم ، وإرضائهن بتقديم أكبر قدر من الجهاز إليهن بمناسبة الزواج . والواقع أن « الجهاز » محاولة للتملص من تنفيذ التشريعات الإسلامية الخاصة بالإرث . وقد تبنى المسلمون هذا التقليد عن طريق مواطنيهم الهندوس .

ويزعم بعض المسلمين أن « الجهاز » سنة مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ أنه لدى تزويج ابنته فاطمة بعلى قدم لها جهازا . والواقع أن ترديد كلام كهذا يعتبر تماديا فى الغىِّ ، لأن ما قدم لها الرسول صلى الله عليه وسلم لن يعد « جهازا » بأى حال من الاحوال . ولو اعتبرناه « جهازا » فلن نعثر على مسلم واحد على وجه الأرض يكون راضيا بتقديم مثل هذا « الجهاز النبوى » إلى ابنته .

جهاز فاطمة

ما هو « الجهاز » الذى قدمه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ابنته فاطمة ؟ لقد تناولته الروايات بالتفصيل ، وهى تبين أنه لم يكن « جهازا » بالمعنى المعهود ، وإنما كان يشتمل على بعض الحاجات الأساسية البسيطة . وفيما يلى بعض ما جاء فى هذه الروايات :

• روى عن على أنه قال : « جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فى خميل وقربة ووسادة حشوها إذخر »[1] .

• عن عبد الله بن عمرو قال : « لما جهّز رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة إلى على بعث معها بخميل - قال عطاء : ما الخميل ؟ قال : قطيفة - ووسادة من إدم حشوها ليف وإذخر ، وقربة . كانا يفترشان الخميل ويلتحفان بنصفه »[2] .

• عن أسماء بنت عميس قالت : « لما أهديت فاطمة إلى على بن أبى طالب لم نجد فى بيته إلا رملا مبسوطا ، ووسادة حشوها ليف ، وجرة وكوزا »[3] .

أدوات منزلية أساسية

ويجدر بالذكر أن لفظة « جَهَّزَ » فى الروايتين الأوليين لم تستخدم بالمعنى المعهود عن جهاز العروس فى الوقت الحالى . لأن « التجهيز » يعنى - ببساطة - إعداد - العدة . وبهذا المعنى وردت فى القرآن الكريم : « فلما جهّزهم بجهازهم »[4] . وقد استخدمت فى الروايتين لفظة « جهز » للتعبير عن أن الرسول صلى الله عليه وسلم تناول بعض الأدوات المنزلية الأساسية وبعث بها مع

---

(١) **سنن النسائى** ، كتاب النكاح ، جهاز الرجل ابنته ، ٥ /١٣٥ .

(٢) الهيثمى ، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، كتاب المناقب ، باب مناقب فاطمة رضى الله عنها ، ٩ /٢١٠ .

(٣) **المصدر السابق** ص٢٠٩

(٤) يوسف : ٧٠

فاطمة حين ودّعها بعد زواجها بعلى . والروايات الآنفة الذكر تتضمن قائمة بتلك الحاجات الضرورية .

والرأى السائد فى الوقت الحالى فى أوساط مسلمى شبه القارة هو أنه ينبغى للرجل تقديم أكبر قدر من الجهاز لدى زواج ابنته لتتمكن من تأسيس بيتها الجديد بسهولة ويسر ، إلا أنها فكرة غير إسلامية لا تمتّ بأية صلة بمفهوم الزواج فى الإسلام . لانه لو كان ذلك تقليدا إسلاميا لعثرنا على نماذجه فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى لم يبعث هذا العالم إلا ليقدم أسوةً يحتذى بها لامتثال أوامر الله تعالى فى كل شأن من شئون الحياة .

الهدية الحقيقية

وهناك تقليد آخر تبناه بعض المسلمين فى شبه القارة بإقامتهم حفل زواج بسيطا لبناتهم ، وعدم تقديم أى « جهاز » يذكر بهذه المناسبة ، إلا أنهم يقدمون إليهن فيما بعد أضعافا مضاعفة من هذا « الجهاز » الذى يعرضه البعض أمام الناس فى حفل الزواج لأجل المباهاة . ولكن هذا الأسلوب هو الآخر لا يطابق السنة النبوية . لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب ابنته فاطمة كثيرا ، ومع ذلك لم يقدم لها كميات كبيرة من الأثاث ، والأدوات المنزلية لتأسيس بيتها الجديد . كما لم يحدث أنه صلى الله عليه وسلم أقام حفل زواج بسيطاً أول الأمر ليزود كريمته فيما بعد سرا بكافة المستلزمات والأدوات . حتى أنه لدى مطالبة السيدة فاطمة إياه بخادم لم يقدم لها سوى بعض التوجيهات الدينية .

وتتضمن مصادر السنة النبوية رواية عن السيدة فاطمة تبين أنها كانت تواجه المشاق فى القيام بأعباء الأعمال المنزلية بنفسها . وذات مرة جيء ببعض الأسرى إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فأعرب على رغبته لفاطمة فى أن تطلب من النبى صلى الله عليه وسلم تزويدها بخادم يغنيها عن عناء الأعمال المنزلية .

فقدِمَت فاطمة إلى النبى الكريم صلى الله عليه وسلم الذى سألها عن سبب

زيارتها فقالت : جئت لأجل السلام عليك . وحال حياؤها دون أن تفصح عن رغبتها أمامه . وانصرفت بعد أن سلمت عليه . ثم زارها الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيتها . وفيما يلى نص الحوار الذى جرى بينهما بتلك المناسبة :

« قالت : يارسول الله : والله لقد مجلت يداى من الرحى ، أطحن مرة وأعجن مرة . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يرزقك الله شيئا يأتيك . وسأدلك على خير من ذلك . إذا لزمت مضجعك فسبّحى الله ثلاثا وثلاثين ، وكبّرى ثلاثا وثلاثين ، واحمدى أربعا وثلاثين ، فذلك مائة ، خير لك من الخادم »[1] .

فهل فى وسع الذى يتذرع بجهاز فاطمة – لتقديم أكبر قدر من الجهاز إلى ابنته بمناسبة زواجها – أن يوصيها بالتسبيح والذكر لو أبانت له عن كفيها المتورمتين من كثرة الأعمال المنزلية ، وأن يطلب منها الابتهال إلى الله لو أخبرته بما تواجهها من مصاعب ؟ . .

« الجهاز » ليس سنة مأثورة عن الرسول

وكانت للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ثلاث بنات أخريات إلى جانب السيدة فاطمة . وعقدت مراسم زواجهن فى مواعيدها إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقدم حتى « الجهاز » الآنف الذكر إلا إلى السيدة فاطمة دون سائر بناته . ولو كان « الجهاز » سنته المأثورة لقدمها إلى بناته الأخريات أيضا . إلا أننا لا نعثر على أى أثر بهذا الشأن فى أى من مصادر السيرة النبوية ، أو مدونات التاريخ الإسلامى .

وهذا التباين فى موقف الرسول صلى الله عليه وسلم يوضح أن تقديم « الجهاز » المذكور – إن أمكن وصفه بالجهاز – جاء لدواعى الحاجة ، ولم يكن تقليداً اجتماعيا بالمعنى السائد الآن . والواقع هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) الهيثمى ، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** . كتاب الأذكار ، باب ما يقول إذا آوى إلى فراشه ، ١٠/ ١٢٢ .

كان قد طلب عليا بن أبى طالب ؛ ليتربى فى رعايته . وقام بإعالته وهو مازال فى مقتبل العمر . ولم يكن على مجرد ابن عم الرسول وانما كان بمثابة ابنه أيضا ، يتكفل بكافة مصاريفه منذ نعومة أظفاره . ومن الطبيعى أن يقدم إليه كولى أمره بعض الحاجات الأساسية لتأسيس البيت الجديد بعد زواجه .

ولو ادعى شخص أن الإسلام دين ناقص لا يتضمن توجيهات شاملة لكافة شئون الحياة لاستفز المسلمين . إلا أن ممارسات المسلمين فى حياتهم العملية تبين للعالم أن هناك جوانب نقص فى الإسلام ، أو أنهم - على أقل تقدير - يفضلون طرق الديانات الأخرى وأساليبها على توجيهات الإسلام ، ويعتبرونها أجدر بالاتباع .

لقد تأثر المسلمون فى شبه القارة الهندية الباكستانية بالتقاليد الهندوسية فى قضية « جهاز العروس » ، كما أن كثيرا من تقاليد الزواج الشائعة هنا أقرب إلى تقاليد ، وعادات شعوب غير إسلامية منه إلى تعاليم الإسلام . ولو اعتقد المسلمون أن المباهاة بكون الإسلام دينا « كاملا » تكفى وحدها (دون العمل به) للفوز بمرضاة الله فهو اعتقاد خاطىء بدون شك ؛ لأن اليهود ظلوا يتباهون بشريعة موسى ومع ذلك لعنهم الله . .

مهر الزواج أو الصداق

أقام الإسلام توزيعا عادلا بين الرجل ، والمرأة فى الحياة الاجتماعية . وتم هذا التوزيع فى إطار العمل أى أن الإسلام يأخذ فى اعتباره توزيعا محددا للأعمال بين الجنسين وتتحمل المرأة أساسا مسئولية إدارة الشئون المنزلية ، بينما يتولى الرجل مبدئيا مسئولية التمويل اللازم . ويستخلص مبدأ توزيع العمل هذا من نصوص متعددة من بينها الآية التالية :

﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾[1]

---

(١) النساء : ٣٤

وكل بيت بمثابة دويلة ، إحدى قضيتيها الرئيسيتين إدارة شئونها الداخلية ، والأخرى ميزانيتها المالية (أو بعبارة أخرى توفير مقومات الحياة الخارجية) . وتعتبر المرأة من ناحية تكوينها أنسب لإنجاز المهمة الأولى ، بينما الرجل يتمتع حسب تكوينه بمواهب أكثر لإنجاز المهمة الثانية . ولأجل هذا تقرر فى التوزيع الاجتماعى والإدارى للاسلام تكليف المرأة بمسئوليات البيت الداخلية أساسا ، وتكليف الرجل من ناحية المبدأ بمهام البيت الخارجية ، والعمل على توفير الأموال اللازمة .

ومبلغ المال الذى يسلمه الرجل إلى زوجته فى صورة « المهر » ، أو الصداق لدى عقد الزواج يرمز إلى هذا الجانب الهام . إذ أن الإسلام يعتبر الرجل مسئولا عن توفير مصروفات المرأة ، والبيت . وهو يتولى مسئولية التكفل بسائر نفقات المرأة اللازمة لدى الزواج بها . وهو بدفعه مبلغا رمزيا من المال كمهر إلى زوجته يقر على المستوى العملى أنه قد باشر التكفل باحتياجات زوجته المالية . وهذه هى الوضعية الحقيقية للمهر .

المهر المعجل

المهر فى المصطلح الفقهى هو ذلك المبلغ من المال (أو الشىء المحدد) الذى يدفعه الرجل إلى زوجته لدى عقد الزواج . والمهر المعجل هو ما يتم تسديده إلى المرأة بعد الزواج مباشرة .

وكان المهر المعجل هو العرف السائد فى عهد الرسول صلى الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . ولم تكن مبالغ هذه المهور مرتفعة ، وكان يتم تسديدها بيسر عند الزواج . وتذكر الروايات التى تتضمنها المصادر الإسلامية عن مهر فاطمة وتفاصيل زواجها ، الحوار التالى بين الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب بعد الاتفاق على زواجه من فاطمة :

قال : وهل عندك من شىء تستحلها به ؟ فقلت : لا والله

يا رسول الله ، فقال : « وما فعلت درع سلّحتكها » ؟ فوالذى نفسى على بيده إنها لحطمية ، ما قيمتها أربعة دراهم ، فقلت : عندى : فقال : « قد زوجتكها ، فابعثْ إليها بها فاستحلها بها »[1] .

ويقول ربيعة الأسلمى : إنه كان خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الرسول ذات يوم : لماذا لا تتزوج ياربيعة ؟ فأجابه أنه لا يملك شيئا . وقد جرى هذا الحوار بينهما أكثر من مرة إلى أن بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بعض قبائل الأنصار ؛ ليزوجوه بإحدى نسائها . ولكن مما حزَّ فى نفس ربيعة الأسلمى هو عدم قدرته على دفع المهر إلى زوجته ، فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك بعد زواجه بالمرأة الأنصارية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بريدة : الأسلمى إجمعوا له وزن نواة من ذهب . قال فجمعوا لى وزن نواة من ذهب . فأخذت ما جمعوا فأتيت به النبى صلى الله عليه وسلم . قال اذهب بهذا اليهم فقل لهم هذا صداقها ، فرضوه وقبلوه وقالوا كثير طيب »[2] .

المهر المؤجّل

والأسلوب الآخر لدفع المهر هو أن يتعهد الرجل بتسديده خلال فترة محددة . وهو ما يوصف فى المصطلح الفقهى بالمهر المؤجّل . ويجب تحديد مدته الزمنية عند الزواج لو اتفق الجانبان على تأجيل دفعه إلى ما بعد الزواج . ونرى أحد نماذجه فى زواج موسى عليه الصلاة والسلام . فيذكر القرآن أنه لما وصل إلى مدين من مصر تزوج من ابنة النبى شعيب (قيل : إن اسمها كان « صفورة ») مقابل « المهر المؤجل » . وتم الاتفاق بين الجانبين على أن يقوم سيدنا موسى برعى أغنام النبى شعيب لمدة تتراوح بين ثمانى سنوات إلى عشر سنوات . وبعد استكمال

---

(١) ابن كثير ، السيرة النبوية ٢ /٥٤٤

(٢) مسند أحمد بن حنبل ، كتاب العلم ، ط . المكتب الإسلامى (بيروت ، ١٣٩٨ /١٩٧٨) ٤ /٥٨ .

هذه المدة فقط أمكن لموسى أن يرحل برفقة زوجته من مدين عائدا إلى مصر .

﴿ قال إنّى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىَّ هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل . فلما قضى موسى الأجلَ وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ﴾[1] .

والمهر المؤجل لا يعنى أن يؤجَّل إلى مالا نهاية ، بل يجب – طبقا للشريعة الإسلامية – تحديد موعده ، ويسدد بالكامل عند حلول ذلك الموعد .

وجهات نظر فقهاء الإسلام

والطريقة التى سنّتها الشريعة الإسلامية بشأن المهر هى أن يُدفَع بعد عقد الزواج مباشرة . وقد اتبعها أغلب أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . فكأن المهر معجلا فى حقيقته ودفعه الفورى هو الأصل ، أما المهر المؤجل فليست طريقة ثانية عادية لدفع المهر بل هى رخصة . وقد سمح بتأجيل تسديد المهر تقديرا لظروف الرجل ؛ ليقوم بدفعه خلال مدة محددة بعد الزواج .

وتتضمن مصادر الفقة الإسلامى مباحث مفصلة عن المهر ، تناولها عبد الرحمن الجزيرى فى كتابه **الفقة على المذاهب الأربعة** فى حوالى ٨٥ صفحة . وناقش آراء الفقهاء حول « تأجيل الصداق وتعجيله » على امتداد أربع صفحات . ورغم ما ذكره من بعض الخلافات بين الفقهاء فى هذا الشأن ، إلا أنها مجرد خلافات هامشية . وفيما يلى ملخص لآراء الفقهاء :

« الأحناف : يجوز تأجيل الصداق وتعجيله كله ، أو بعضه . ولكن يشترط ألا يكون الأجل مجهولا .

---

(١) القصص : ٢٧ – ٢٩ .

المالكية : إذا كان الصداق غير معين فإنه يجوز كله ، أو بعضه ، بشرط ألا يكون الأجل مجهولا .

الحنابلة : يجوز أن يؤجل الصداق كله ، أو بعضه ، بشرط ألا يكون الأجل مجهولا .

الشافعية : يجوز تأجيل الصداق بشرط ألا يكون الأجل مجهولا سواءً كان المؤجل كل الصداق ، أو بعضه »[1] .

عدم المغالاة فى المهور

بالإمكان دفع المهر فى صورة مبلغ من المال ، أو شىء عينى . والأسلوب الأمثل هو أن يتم تحديده حسب الوضع المالى للرجل ، وبالقدر الذى يستطيع تسديده بدون صعوبة لدى عقد الزواج . وقد اختلف الفقهاء حول تحديد الحد الأدنى للمهر ، إلا أنهم أجمعوا على أنه ما يكفى لابتياع حاجة ما : « كل ما صح ثمنا صح صداقا »[2] .

ولن نعثر على أى حديث للرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى المبالغة فى المهور ، بل هناك ماروى عنه من أحاديث توصى بعدم المغالاة فيها . وأسلوب الإسلام فى أمور كهذه هو أنه يتناولها فى شكل توصية وليس بالحظر ، أو تحريم . ومع أنه لم تمنع الزيادة فى المهور منعا باتا ، إلا أن كافة ماورد من أحاديث فى هذا الشأن يدعو الى عدم المبالغة فيها . وفيما يلى بعض منها :

– عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيرهن أيسرهن صداقا »[3] .

– عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن من يُمْنِ المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها »[4] .

---

(١) عبد الرحمن الجزيرى ، **الفقه على المذاهب الأربعة** (القاهرة ١٩٦٩) ٤ /١٥٣ – ١٥٦ .

(٢) **المصدر السابق** ص١٠٧ .

(٣) الهيثمى ، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، كتاب النكاح ، باب الصداق ، ٤ /٢٨١ .

(٤) **كنز العمال** ، كتاب النكاح ، ١٦ /٣٢٢ .

– « إن من أعظم النساء بركة أيسرهن صداقا »[1] .

– عن ابى سلمة قال : سألت عائشة : كم كان صداق النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : كان صداقه لأزواجه اثنتى عشرة أوقية ونش . قالت : أتدرى ما النش ؟ قلت : لا . قالت : نصف أوقية . تلك خمسمائة درهم . فهذا صداق رسول الله لأزواجه .[2] لكن أم حبيبة أصدقها النجاشى عن النبى صلى الله عليه وسلم أربعة الآف درهم[3] .

طريقة غير محمودة

قال الحافظ أبو يعلى عن الشعبى عن مسروق قال : ركب عمر بن الخطاب منبر الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال : أيها الناس ما إكثاركم فى صداق النساء ؟ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصدقات (المهور) فيما بينهم أربعمائة درهم ، فما دون ذلك . ولو كان الإكثار فى ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها . . وبعد أن واجه معارضة من قبل امرأة لموقفه قال عمر : « إنى قد نهيتكم أن تزيدوا فى النساء صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب »[4] .

وبهذا يتبين أن الزيادة فى المهور إن لم تكن محظورة على مستوى التشريع ، إلا أنه لم يكن إجراءً محمودا فى الوقت نفسه . ولأجل هذا نجد أن المهور التى دفعها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه كانت منخفضة ، ولم ينسب إلى أى منهم تحديد مهور مرتفعة لزوجاتهم ، أو بناتهم .

زواج الصحابة

لم يكن الزواج فى أول الإسلام مناسبة يُبالغ فى الاحتفال بها ، وإنما كان أمراً

---

(١) البيهقى ، **السنن الكبرى** ، كتاب الصداق ، ٧ /٢٣٥ .
(٢) **سنن الدرامى** ، كتاب النكاح ، ٢ /١٤١ .
(٣) **سنن أبى داؤد** ، كتاب النكاح ، باب الصداق ، ٢ /٢٣٥ .
(٤) **تفسير ابن كثير** ١ /٤٦٨ .

مألوفا يتم إنجازه بطريقة عادية . وكانت التقاليد المتبعة والمصاريف من الضآلة بمكان حيث لم تكن تشكل عبئا على أى من الجانبين . فكانت مناسبات الزواج فى عهد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم تخلو من مظاهر البذخ والترف . وقد ورد فى حديث للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة »[1] . ومن المؤكد أن مناسبات الزواج المنجزة بالوسائل المتاحة بيسر هى أقلها كلفة ؛ وليست تلك التى تخرج عن نطاق القدرة المالية للعريس أو أهل العروس .

أراد أحد الصحابة أن يتزوج امرأة . فسأله الرسول عما لديه من المال ليدفع لها المهر ، فأجاب أنه لا يملك شيئا . فلم يطلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقترض من أى شخص آخر مبلغا من المال لاستكمال إجراءات زواجه ، بل قال له : هل معك شىء من القرآن ؟ (أى هل تحفظ جزءا من القرآن) فأجاب بنعم . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « قد زوّجتكها بما معك من القرآن »[2] .

وقد تزوج الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف فى المدينة ، وبها الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يجد أى داعٍ لتوجيه الدعوة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة للاحتفال بهذه المناسبة . وفيما يلى ما رواه أبو داود فى هذا الصدد :

عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عبد الرحمن بن عوف وعليه ردع زعفران[3] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَهْيَمْ ؟ فقال : يارسول الله تزوجتُ امرأةً . قال ما أصدقتها ؟ قال وزن نواة من ذهب[4] .

تقاليد باطلة

لقد تلاشى تقريبا المفهوم الإسلامى الحقيقى للزواج فى الوقت الراهن .

---

(١) الهيثمى ، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، كتاب النكاح ، باب اليمن فى المرأة ، ٤ /٢٥٥ .

(٢) **سنن أبى داود** ، كتاب النكاح ، باب قلة المهر ، ٢ /٣٣٦ .

(٣) أى أثر الصفرة (المراجع) .

(٤) **المصدر السابق** .

وأساليب الزواج التى يتبناها المسلمون حاليا بصفة عامة هى تقاليد اجتماعية متوارثة أكثر من كونها مناسبات زواج إسلامية . ونرى إحدى صورها فى مغالاة المهور من قبل أهل العروس الذين يزعمون أنها ضرورية لضمان مصالح المرأة إزاء الرجل . ويصف **المعجم الإسلامى** تفشى هذه الظاهرة بقوله :

> التقليد الخاص بالمطالبة بالمهور المرتفعة ، التى تخرج عن نطاق قدرة الرجل المالية عموما ، وخاصة فى الهند ، يستهدف ، فيما يبدو ، منع الرجل من إساءة التعامل مع زوجته ، وفوق ذلك لتثبيطه عن الزواج الثانى وكذلك لمنعه من طلاق امرأته بطريقة ظالمة ، أو بدون سبب ، لأنه من حق المرأة المطالبة بمبلغ المهر الكامل عند الطلاق[1] .

وتحديد المبالغ المرتفعة للمهور لتحقيق الهدف الآنف الذكر إنما يأتى على أساس الافتراض القائم بعدم دفع المهر مهما حدد له من مبالغ طائلة بمناسبة الزواج ، لأنه بدفعه بعد الزواج مباشرة يفقد وضعه ككابح للطلاق .

ولكن هذا الافتراض يناقض تعاليم الإسلام تماما . فهناك طريقتان صالحتان لا غير لدفع المهر : « المهر المعجل » ، وهو ما يتم دفعه بعد عقد الزواج مباشرة ، و« المهر المؤجل » الذى يتم تأجيله ؛ ليسدد فيما بعد ، مع تحديد الموعد اللازم على أن يقوم الرجل خلال هذه المدة بدفع المهر إلى زوجته فعلا . والطريقة السائدة الآن هى عدم تحديد المدة الزمنية لتسديد المهر لدى الزواج ، وهى طريقة باطلة . ومن البديهى أن ما يعقبها من خطوات ستكون باطلة هى الأخرى .

والجدير بالملاحظة أنه ما دام الأسلوب الإسلامى للمهر هو أن يجرى دفعه لدى عقد الزواج ، أو أن تحدد المدة الزمنية اللازمة لتسديده ، وأن يتم تسديد المهر خلالها إلى الزوجة فعلا ، فإن المغالاة فى المهور بهدف منع وقوع الطلاق إجراء لا معنى له فى الإسلام . . لأن المهر الذى يشكل كابحا للطلاق هو ما لا تحدَّد لأجل تسديده مدة زمنية ، بل يصبح دفعه مطلوبا عند الطلاق فقط ، وهو أمر لا يطابق أحكام الإسلام .

---

(١) Thomas Patrick Hughes, The Dictionary Of Islam (Delhi 1979) p. 91.

ما هو الحجاب ؟

الحجاب الإسلامى

نوجز فيما يلى ما جاء فى كتاب الباحث والمحدث المعروف الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى **حجاب المرأة المسلمة فى الكتاب والسنّة**.[1] وقد قمت بنشر تلخيص له باللغة الأردية فى مجلة : **إسلام أور عصر جديد** (الإسلام والعصر الحديث) الصادرة بدلهى الجديدة (عدد يناير ١٩٧٣) .

ويناقش المؤلف فى هذا الكتاب ، على حد تعبيره ، قضية الحجاب على ضوء الكتاب والسنة . وهو يرى أن وجه المرأة ليس بعورة ، وإن كان يعترف بأن الستر هو الأفضل وهو لا يشارك الباحثين الإسلاميين الذين يعترفون بأن الوجه ليس بعورة ، ولكن يقررون بضرورة ستره طواعية « سدا للذريعة » وللقضاء على أحد عوامل الفساد الخلقى فى المجتمع . ويدعم المؤلف رأيه بعدد من الروايات ومنها التالية :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كن النساء المؤمنات يشهدن مع النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر ملتفعات بمروطهن ، ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة ، لا يُعْرَفْن من الغلس »[2] .

وبهذا يتبين أن النساء فى أول الإسلام كن يكشفن عن وجوههن ، لأنه لا يمكن التعرف على الوجه المستور . ولن يستقيم معنى : « لا يعرفن من الغلس » - كما ورد فى الرواية - إلا إذا اعتبرنا أن النساء المسلمات كن يكشفن عن الوجوه آنذاك ، وهى التى تتحدد بها هوية الأشخاص .

وساق المؤلف للدلالة على أن يد المرأة ليست بعورة رواية عن عبد الله بن عباس تقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم خطب فى النساء وحثّهن على التبرع

---

(١) المكتب الإسلامى ، ط : ٣ (بيروت ١٣٨٩ هـ) ١٢٢ص .

(٢) يراجع لتخريج هذا الحديث والأحاديث التالية كتاب الألبانى المذكور (المراجع) .

وهو ما وصف فى القرآن بـ« التبرج » :

﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[1] .

و« التبرج » أن تبدى المرأة من زينتها ومحاسنها ومما يجب عليها ستره مما تُستدعى به شهوة الرجل . ويقول المؤلف : « المقصود من الأمر بالجلباب إنما ستر زينة المرأة ، فلا يعقل حينئذ أن يكون الجلباب نفسه زينة » (ص٥٥) . ويشير المؤلف إلى تركيز الإسلام على عدم التبرج حيث ورد ذكره مع كبائر الذنوب كالشرك ، والزنا ، والسرقة . وقد أورد المؤلف عددا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن .

والشرط الثالث للحجاب حسب تحديد المؤلف هو : « أن يكون صفيقا لا يشفّ » فلأن الستر لا يتحقق إلا به ، وأما الشفاف فإنه يزيد المرأة فتنة وزينة (ص٥٦) . وقد ذكر المؤلف فى هذا الصدد عدة أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم منها : « سيكون فى آخر أمتى نساء كاسيات عاريات . . »

والشرط الرابع فى رأى المؤلف للحجاب هو « أن يكون فضفاضا غير ضيق » . وعرض المؤلف أكثر من حديث لدعم رأيه ، ومنه وصية السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم بألاّ تكفن بعد وفاتها فى ثوب يبين أنها جنازة امرأة . ويقول المؤلف معلقا : « فانظر إلى فاطمة بضعة النبى صلى الله عليه وسلم كيف استقبحت أن يصف الثوبُ المرأةَ وهى ميتة فلا شك أن وصفه إياها وهى حية أقبح وأقبح » (ص٦٣) .

والشرط الخامس للحجاب هو « أن لا يكون مبخَّرا مطيبا » . فهناك عدة روايات عن الرسول صلى الله عليه وسلم تحظر على المرأة استخدام العطور عند

---

(١) الأحزاب : ٣٣

خروجها من البيت . ويقول المؤلف بعد ما أورد أربعة أحاديث عن الرسول فى هذا الشأن : قال ابن دقيق العيد : « وفيه حرمة التطيب على مريدة الخروج إلى المسجد لما فيه من تحريك داعية الشهوة لدى الرجال » . قلت فإذا كان ذلك حراما على مريدة المسجد فماذا يكون الحكم على مريدة السوق والأزقة والشوارع ؟ لا شك أنه أشد حرمة ، وأكبر إثما . وقد ذكر الهيثمى فى **الزواجر** « أن خروج المرأة من بيتها متعطرة متزينة من الكبائر ، ولو أذن لها زوجها » (ص٦٥) .

والشرط السادس للحجاب هو « أن لا يشبه لباسَ الرجل » . ومن الأحاديث التى ذكرها المؤلف فى هذا الصدد : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال (ص٦٧) . ويعتقد المؤلف « أن اللباس إذا كان غالبه لبس الرجال نُهيت عنه المرأة وإن كان ساترا . . » (ص٧٧) .

والشرط السابع للحجاب هو « أن لا يشبه لباس الكافرات » ، لأن عدم التشبه بالكفار من أهم المبادىء الإسلامية سواء أكان ذلك فى العبادات ، أو الأعياد ، أو الأزياء (ص٧٨) . وتتضمن السنّة تفصيلا لمجمل ما جاء فى القرآن فى هذا الشأن . ومن الآيات التى استدل بها المؤلف :

﴿ . . ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتابَ من قبل . . ﴾[1] .

واختار المؤلف فى تفسير هذه الآية ما ذهب اليه ابن تيمية وابن كثير من أنها تتضمن النهى عن التشبه بالكفار (ص٨٠) . وقد ذكر المؤلف من الروايات ما يبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن التشبه بالكفار مهما كان فى العبادات كالصلاة ، والجنازة ، والصوم والحج ، والذبائح ، والأطعمة ، والملابس ، والتقاليد ، والعادات ، وآداب السلوك العامة ، وأشياء أخرى غيرها .

---

(١) الحديد : ١٦ .

والشرط الثامن للحجاب هو « أن لا يكون لباس شهرة » . والحديث الذى أورده المؤلف فى هذا الصدد يقول : « من لبس ثوب الشهرة فى الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة . . »(ص١١٠) .

تعقيب

السؤال المطروح بصدد تفسير الآية الأولى (النور : ٣١) هو ماذا يقصد القرآن استثناءه حين يقول : « ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها » ؟ أى ما هى الأعضاء المسموح للمرأة بالكشف عنها ؟ . لقد أعرب الفقهاء والمفسرون بشأنها عن رأيين متباينين ، على أساس أن هناك نوعين للزينة : خلقية (طبيعية) ومكتسبة . ويتضمن حكم الآية القرآنية لدى فريق من العلماء ، والمفسرين النوعين معا ، بينما أعرب فريق آخر منهم عن اعتقاده بأنها تعنى الزينة التى تتخذها المرأة . واختار ابن مسعود وحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وإبراهيم النخعى وآخرون هذا الرأى الأخير أى الزينة التى تقتنيها المرأة كالأردية والعباءات وتضعها فوق ملابسها لدى خروجها من البيت . فهؤلاء يعتقدون أنه يجب على المرأة إذا خرجت من البيت ألاّ تعمد إلى إبراز زينتها . وقد يستثنى منها ما ينكشف من تلقاء نفسه كالرداء الخارجى إذا انزاح بفعل الريح ، وكشف عن بعض محاسن المرأة بدون قصد .

وتبنى الرأى الثانى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعشاء والضحاك . فهم يرون أن الآية الكريمة استثنت الوجه ، والكفين مما يجب ستره من أعضاء جسد المرأة . وتدعم هذا الرأى رواية ذكرها أبو داود فى سننه :

عن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا

وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفه »[1] .

انقسم فقهاء الاسلام بشأن القضية إلى فئتين : فعند فقهاء الأحناف والمالكية الوجه والكفان ليستا بعورة . فقد استثنت الآية (٣١ من سورة النور) ما ظهر منها أى مادعتِ الحاجة إلى كشفه ، وإظهاره وهو الوجه والكفان . أما الشافعية والحنابلة فيرون أن الوجه ، والكفين من العورة لاعتقادهم بأنه يجب على المرأة إخفاء الزينتين الطبيعية والمكتسبة وأنه محرم عليها الكشف عنهما . والآية : « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » تستثنى ما ينكشف من جسد المرأة بدون قصد . وقد علق محمد على الصابونى على هذا قائلا : « إن المراد ما ظهر بدون قصد ولا عمد مثل أن يكشف الريح عن نحرها أو ساقها أو شيء من جسدها . ولا يبدين زينتهن أبدا . وهن مؤاخذات على إبداء زينتهن إلا ما ظهر منها بنفسه وانكشف بغير قصد ولا عمد فلسن مؤاخذات عليه فيكون الوجه والكف من الزينة التى يحرم إبداؤها »[2] .

وقد أعرب الشيخ شبير أحمد العثمانى لدى تفسيره للآية ٣١ من سورة النور عن رأيه فى « الزينة » قائلا :

> كلمة الزينة تشمل كل أنواع الزينة سواء كانت طبيعية أو مكتسبة . سواء أكانت تتعلق بأشكال الجسد أو بالملابس والتجميل الخارجى . وخلاصة القول إنه لا يجوز للمرأة إظهار أى نوع من الزينة المكتسبة أو الطبيعية إلا أمام محارمها . أما ما لا مناص من ظهوره من الزينة وما لا يمكن للمرأة أن تمنع ظهوره من الزينة لعدم قدرتها أو للضرورة فلا بأس من ظهوره اضطرارا ، أو للضرورة .
>
> وقد ثبت من الأحاديث والآثار أن الوجه والكفين يدخلان فى « إلا ما ظهر منها . . » وذلك لأن ضرورات دينية ودنيوية كثيرة

---

(١) **سنن أبى داود** ، كتاب اللباس ، باب فيما تبدى المرأة من زينتها ، ٤ /٦٢ .

(٢) محمد على الصابونى ، **روائع البيان** (بيروت ١٤٠٠ / ١٩٨٠) ٢ /١٥٥ .

تحتم ظهورهما ولو كان الحكم مطلقا لسترهما لكان تضييقا وصعوبة على المرأة فى ممارسة أشغالها . وقاس الفقهاء المتقدمون قدمَىْ المرأة على مقياس الوجه والكفين . وليكن واضحا أنه لا يجوز للمرأة إظهار الوجه والكفين إلا للضرورة فى ضوء قوله تعالى : « إلا ما ظهر منها » فلا يجوز لغير المحارم من الرجال أن ينظروا إلى هذين العضوين . ولعله لهذا السبب سبق حكم « غض البصر » (الآية ٣٠) قبل ذكر هذه الرخصة فى الآية ٣١ . فليكن معلوما أن الرخصة بكشف عضو من الأعضاء لا تعنى بالضرورة أن النظر إليه جائز بالنسبة للآخرين[١] .

شهادة التجربة

تحتل مشكلة الطلاق رأس قائمة المشكلات الاجتماعية التى تعانى منها الدول المتقدمة الحديثة . فأغلب الزيجات فى هذه البلدان تنتهى إلى الطلاق . وقد تسبب شيوع الطلاق فى تفكيك ، وتشتيت النظام العائلى تماما . ويحرم الأطفال من أية رعاية حقيقية رغم كون أبويهم على قيد الحياة . وهم يتربون كالنباتات التى تنشأ من تلقاء نفسها ؛ لينتهى بهم المطاف إلى الانضمام إلى عصابات الإجرام . ويعتقد على وجه العموم أن حالة الفوضى السائدة فى فئات الشباب فى الوقت الراهن إنما هى نتائج هذه « العائلات المشتتة » .

ولم تكن هناك مشكلة شيوع الطلاق فيما مضى من الزمن ، فما الذى أدى إلى تفاقمها على هذا النحو فى العصر الحاضر ؟ إن من أكبر أسبابها هو ما يوصف بلغة العصر بالمجتمع « المُخْتَلِط » – القائم على الاختلاط الحرّ بين الجنسين – أو المجتمع غير الملتزم بالحجاب وفق التعبيرات الدينية . وقد أصبح بالإمكان بسبب انعدام القيود الاجتماعية الآن أن يعيش الرجال ، والنساء فيما بينهم كأسماك البحار

---

(١) التفسير العثمانى على حاشية ترجمة الشيخ محمود حسن (بجنور ، ١٣٦٩ / ١٩٥٠) ص٤٥٨ .

بدون ضوابط ، أو قيود . والنتيجة الحتمية لهذا الأسلوب من الحياة انعدام الوفاء ، وعدم استقرار العلاقات الجنسية ، والبحث باستمرار عن شركاء جدد . والمرء فى المجتمع الملتزم بحجاب المرأة لا يشاهد عموما إلا زوجته ، ومحارمه مما يعصمه من فتنة الانفلات الخلقى ، وانعدام الوفاء . وخلافا لذلك ، تتكرر فى المجتمعات التى لا تلتزم بحجاب المرأة مشاهدة واستعراض الوجوه الواحدة تلو الأخرى ، مما يحمل الشخص على الاعتقاد بأن الوجه الجديد أفضل من السابق . وهذا الاستعراض المقارن يفتن الشخص المعنى فيتلهف إلى قرين جديد بعد أن يكون قد سئم من قرينه السابق . وكثيرا ما تتحدث وقائع المجتمع الغربى عن أن رجلا وامرأة اقترنا ، وعاشا معا فترة من الزمان إلى أن وجد أحدهما وجها آخر استهواه ، فأنشأ علاقته الجديدة بفصم عرى العلاقة السابقة .

وتعترف **دائرة المعارف البريطانية**[1] عند تناولها مشكلة الارتفاع فى معدل الطلاق فى الدول الغربية بهذا الواقع بقولها :

> الممثلون والكتاب ، ومن ينتمون إلى تلك الفئات من الناس الذين يتميزون بزيادة الارتباطات مع الجنس المضاد ينزعون أكثر نحو الطلاق .

وقد لوحظ فى هذا التقرير الغربى أن زيادة الطلاق تتصل بزيادة الارتباطات ، والعلاقات الاجتماعية . وهو كلام ذو مغزى يوضح أن المجتمع المختلط ، أو المجتمع غير الملتزم بحجاب المرأة يرتبط ارتباطا وثيقا بظاهرة شيوع عدم الاستقرار فى الحياة الزوجية . فمناخ المجتمع الملتزم بحجاب المرأة يؤدى إلى الاستقرار فى الحياة الزوجية . وخلافا لذلك تؤدى أوضاع المجتمع غير الملتزم بحجاب المرأة إلى عدم الاستقرار فى الحياة الزوجية ، وبالتالى تشجع على الطلاق .

هذا المصير المفجع للمجتمع غير الملتزم بحجاب المرأة يقدم شهادة تجريبية بأن

---

(١) ٧ /١٦٣ .

المجتمع الملتزم بحجاب المرأة قد تبنى جادة الصواب ، وأن وجود مجتمع الحجاب يشكل رادعا ضد وقوع الطلاق . وبعبارة أخرى : إن المجتمع غير الملتزم بحجاب المرأة ينخر فى أسس النظام العائلى ، ويجلب مساوىء اجتماعية بمختلف أنواعها . وفى مقابل هذا فإن المجتمع الملتزم بحجاب المرأة يشكل دعامة للنظام العائلى ، ويضمن أفضل المصالح للأجيال البشرية .

* * *

سر السعادة الزوجية

قال عبد الله بن جعفر وهو يوصى ابنته لدى زواجها : « يا بنية إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق . وإياك والمعاتبة فإنها تورث الضغينة » .

وهى أفضل نصيحة يمكن أن تتلقاها فتاة من والدها بمناسبة زواجها . فبعد الزواج تدخل الفتاة بيت شخص غريب ، بينما كانت تعيش إلى الآن بين ذوى قرباها ممن تربطهم بها صلة دم . وقد أقبلت الآن ؛ لتنزل وسط أناس لا توجد بينها وبينهم أية قرابة دم سابقة . أما أهلها من ذوى الأرحام كالأبوين ، والإخوة ، والأخوات فكانوا يتغاضون عما كانت تصدر عنها من هفوات . ولم تكن تفقد ودهم نحوها مهما تبجحت ، ولا كانوا يتبرمون منها مهما استاءات منهم . إلا أن الأمر مع أهل الزوج يختلف عن هذا تماما .

فأهل زوجها[1] لا يحملون مشاعر الرأفة بها كالتى يكّن لها أهلها منذ نعومة أظفارها . ومن الطبيعى أن تكون هناك ردود فعل لكل ما تقوم به العروس من أعمال فى بيتها الجديد . وبينما كان يجرى التغاضى عن مواقفها المتعنتة من قبل أهلها ، إذا بأهل زوجها لا يقبلون منها بأى نوع من أنواع العناد . وكان أهلها يتسامحون معها فى حالات غضبها ، إلا أن أيا من أهل زوجها لن يكون على استعداد ليتجاوز عن مواقفها المتعنتة .

وفى وضع كهذا فإن السبيل الوحيد للتعايش مع أهل الزوج هو أن تتكيف الفتاة مع الأوضاع الجديدة . فينبغى لها أن تتجنب كافة الأعمال التى تحدث ردود فعل غير ملائمة ، وعليها أن تتحمل مالا يعجبها من أمور ، وأن تتجاهل كل ما تواجهها من « إساءات » ، وأن تتغاضى عما تتعرض لها من تصرفات « غير مقبولة » . ومن هذا المنطلق فقط يمكن لفتاة أن تعيش بسلام ، ووئام مع أهل

---

(١) كلام المؤلف هنا يقع فى سياق الأوضاع الرائجة فى الهند حيث لا تزال الأسر تعيش عموما فى بيت عائلى مشترك بدلا من استقلال الابن ببيت جديد عند زواجه (المراجع) .

زوجها . وليس هناك حل آخر للمشكلات التى تواجهها العروس فى تعاملها مع أهل زوجها .

والأبوان غير الواعيين هما اللذان يوصيان ابنتهما بالتعنت فى التعامل مع أهل الزوج « كى لا تُمارَس ضدها أية ضغوط » . وخلافا لذلك فإن الأبوين الواعيين يوصيان ابنتهما بالتعامل بالمرونة ؛ لتفادى أية مواقف من قبل أهل الزوج . وهذه الكلمات ترسم الخط الفاصل بين الحياة الزوجية السعيدة . . والتعيسة .

قصة سيدتين

أعرف حكاية فتاتين : إحداهما كانت مدللَّة لوالديها ، ولم تكن تهتم بأى من الأعمال المنزلية لأهلها . وكانت تمكث فى البيت طوال النهار كأنها لا عمل لها فى البيت . وحين دخلت منزل أهل زوجها بعد الزواج بقيت بمعزل عن الأعمال المنزلية كعهدها فى بيت والديها . ولكن موقفها هذا لم يكن مقبولا فى الأوضاع الجديدة . فنشبت الخلافات مع أهل الزوج . وتحولت حياتها الرغيدة إلى سلسلة لا نهاية لها من متاعب .

والفتاة المذكورة لم تراجع موقفها ، بل ظلت تُدِين أهلَ زوجها ، حتى عادت ذات يوم إلى بيت والديها بعد أن تفاقمت الخلافات بين الجانبين . وهنا كشفت عن جانب واحد فقط من حكايتها ، أى أنها لم تُخبر أهلَها عن أسلوب تعاملها مع أهل الزوج ، وظلت تردد كيف عاملها الآخرون ، مع أن كل ما واجهتها من مصاعب وقعت بسبب عدم اكتراثها المستمر بالأعمال المطلوبة فى بيت أهل الزوج ، وعدم اعتبارها هذا البيت بمثابة بيتها الحقيقى . ومع أن منزل أهل زوجها كان قد أصبح مستقرها الحقيقى فقد ظلت تؤمن وتؤكد على أن بيتها الحقيقى هو بيت والديها . وهى لم تخبرهما عن واقع حالها ، بل أدانت موقف أهل الزوج إزاءها ، الذى كان رد فعل بدلا من أن يكون إجراءً من طرف واحد فقط .

وارتكب والداها ذات الخطأ ، الذى يرتكبه أغلب أهل العروس فى مثل هذه

المواقف عادة ، أى تصديقهما لرواية الفتاة بحذافيرها ، واتهامهما لأهل الصهر بالتعامل بالتعسف . والجور مع الفتاة ، لتنشب على إثرها نزاعات لا تنتهى بين العائلتين . إلى أن وقعت الفتاة فريسة لمرض السل بسبب حالتها النفسية المتأزمة باستمرار . وظلت تتجرع كأس المرارة حتى رحليها من هذا العالم بعد طول معاناة .

وكانت هناك سيدة أخرى واعية وعاقلة ، لم تكد تصل منزل أهل زوجها بعد الزواج حتى تعرضت للانتقاص من شأنها من قبل نساء العائلة الجديدة لكونها « دميمة » . وكانت الهمسات تدور حول عدم تمتعها بأية مسحة من الجمال بين هؤلاء النسوة فى أول الأمر من وراء ظهرها ، إلى أن تطورت إلى تعليقات جارحة ، موجهة إليها مباشرة حول « دمامتها » حتى تحولت العروس إلى شخص تافه لا يعتد به بين أفراد العائلة الجديدة .

وهكذا وجدت هذه المرأة نفسها فى موقف حرج ، إلا أنها قررت ألا تبوح بحالها لوالديها ، كما قررت فى صمت أن تتغاضى عما تتداوله نساء العائلة بشأنها ، وأن تخدم أهل زوجها بكل إخلاص . فتطوعت للقيام بسائر الأعمال المنزلية ، وبدأت برعاية متطلبات كافة أفراد الأسرة ، وسخّرت نفسها لأجل توفير الراحة لكل شخص فى البيت ، بدلا من أن تؤذى أيا منهم .

وكان ذلك مخططا مرهِقاً طويل الأجل ، استنفد سنوات ، وليس شهورا ، لأجل أن يحقق غايته . وبدأت الأوضاع تنفرج لصالحها تدريجيا ، حتى نالت تقدير العائلة . وأصبح كل فرد فيها يعاملها بالودّ والاحترام . فحصلت على وضع « سيدة البيت » ، بينما كان ينظر إليها كخادمة فى أول الأمر .

يكمن سر الحياة الزوجية السعيدة فى الإخلاص والوفاء . وكون الفتاة مخلصة ووفية فى منزل أهلها ، وبين والديها ، وإخونها . وأخواتها واقعًا لا يقبل الجدل منذ نعومة أظفارها . فهذا الإخلاص والوفاء شيء يعترف به الجميع لها مسبقا ، لأن قرابة الدم تضمن لها هذا الوضع الذى لا يزول بأى حال من الأحوال .

إلا أن أمر أهل زوجها يختلف عنه تماما . فلا توجد هناك أية خلفية لوفائها ، وإخلاصها ، بل يحتاج إلى التأسيس والإنشاء من جديد . وحل المعضلات التى تواجهها المرأة بعد زواجها هو أن تحول وجهة وفائها ، وإخلاصها بمجرد انتقالها من بيت إلى آخر ، وأن تجعل من مشاعر الوفاء والمحبة التى تحملها لا شعوريا منذ نعومة أظفارها ليغلبها طابع الإدراك والوعى . فيجب عليها أن تعتبر منزل أهل زوجها بمثابة « بيتها » ، وأن تركز جل اهتمامها على عائلة زوجها ، وألاّ تعلق آمالها فى والديها ، بل ينبغى عليها إعطاء الأولوية لأهل زوجها بكل مناسبة ، ومعاملتهم بالود والإخلاص . فهذا الموقف أقرب إلى الصواب والواقع ، وهنا أيضا يكمن سر الحياة الزوجية السعيدة .

الحل الأكيد

والواقع أن قضية الحياة الزوجية السعيدة ترتكز بالدرجة الأولى على الإدراك والوعى . فالإدراك والوعى يوفران لسيدة ما حياة زوجية سعيدة ، بينما عدم الإدراك وحالة اللاوعى يقلبان حياتها الزوجية إلى جحيم ويقودانها إلى الضياع .

ولو أمعنّا النظر لتبين لنا أن ما يوصف بـ« نزاع الأقرباء والأصهار » ، مشكلة مصطنعة ، ووهمية أكثر من كونها واقعية . ومن سوء حظنا أن مجتمعنا المعاصر يعيش فى حالة اللاوعى ؛ ليدفع ثمنها غاليا فى مواقع مختلفة ، من بينها ما يطلق عليه « نزاع الأقرباء والأصهار » .

وبناءً على عوامل تاريخية عديدة يعيش أغلب أفراد هذه المجتمعات فى عالم الأوهام والأحلام ، متناسين حقائق الحياة ، ويقومون بدفع الثمن باهظا فى كافة المجالات بسبب انعدام الوعى . وتظلم المرأة ضد أهل زوجها ، والنزاعات العائلية الأخرى يمثلان إحدى هذه الحالات .

والفارق بين بيت الأهل وبيت أهل الزوج هو أن الفتاة تتبوأ مكانتها بين أهلها بسبب عطف وحنان والديها ، بينما هى تسمو فى نظر أهل زوجها بالأعمال التى

تقوم بها فى بيتها الجديد ، الأمر الذى يوضح واقع موقف العروس إزاء أهلها وأهل زوجها .

والبنت تمثل فلذة كبد والديها ، يغمرانها بالحب والحنان مهما كانت تتصرف ، باللباقة أم بدونها ، سواء أكانت تهتم بالشئون المنزلية أم كانت كسولة لا تقوم بأى عمل . فوالداها يعاملانها بالود ، والمحبة سواء أكانت توفر لهما الراحة ، أم تسبب لهما العناء والشقاء .

غير أن الوضع فى منزل أهل الزوج يكون على طرفى النقيض تماما . فحين تقدم الفتاة إلى أهل زوجها فإنها تنزل وسط أصهار لا تربطهم بها قرابة دم . وبينما هى كانت تعيش بين ذوى الأرحام فى مناخ يسوده « الود لأجل الود فقط » ، فهى مقبلة الآن لتقيم مع أناس غرباء وعليها أن تخطب ودهم من خلال إخلاصها ، ووفائها . هى تفوز بالعطف والحنان بدون مقابل فى الحالة الأولى ، بينما القضية تتعلق بالعلاقات الودية المتبادلة فى الحالة الثانية .

وحين تتزوج فتاة فهى كأنما تواجه أصعب اختيار فى حياتها . والزواج بالنسبة إلى فتاة ما تمثل حالة السمكة التى يقذف بها خارج الماء لتكيف نفسها للعيش فى اليابسة . ولو كانت الفتاة تحظى بأبوين يدركان حقائق الحياة وشرحاها لها مسبقا ، عندئذ هى تكون على استعداد لمواجهة أوضاع الحياة الجديدة نفسيا وعقليا . كما أن كون الفتاة واعية فى حد ذاتها يسهِّل لها استيعابَ الأوضاع الجديدة ، وتكييف نفسها وفق الظروف المستجدة .

ولو سعدت فتاة ما بأى من هذين الوضعين – الإرشاد الأبوى والوعى الذاتى – فهى لن تواجه بعد الزواج مشكلة على الإطلاق . ودخولها مرحلة الزواج سيكون بمثابة تغيير أحدنا من نوعية ملابسه بحلول فصل جديد . ومثل هذه الفتاة ستحصل على المكانة المرموقة فى منزل أهل زوجها – من خلال حسن التصرف ، واللباقة فى التعامل معهم – تماما كالمكانة التى كانت تتمتع بها من قبل فى بيت والديها بسبب حنانهما لها .

ولكن إذا كان والدا الفتاة لا يدركان هذا الواقع الحياتى ، ولم تتمتع الفتاة بالوعى اللازم ؛ لتتكيف مع الأوضاع الجديدة فأمرها سينتهى إلى ما يوصف بـ« نزاع الأقرباء والأصهار » . وعدم اعتبار الفتاة أهلَ زوجها كأنهم هم « أهلُها يؤدى إلى عدم تبنيهم إياها هى الأخرى كفرد من أفراد « العائلة » . وتدفع الفتاة ثمن هذا الموقف خلال إقامتها مع أهل زوجها بسلسلة من المتاعب والمعاناة التى لا لزوم لها . وهى تعيش فى عذاب نفسى دائم لأسباب غير حقيقية . ولا ينشب النزاع بين الفتاة ، وأهل زوجها إلا بسبب نقص الوعى لديها بينما هى تلقى باللائمة على أهل زوجها .

وتتقدم الفتيات غير الواعيات خطوةً أخرى على طريق الآلام بالتظلم إلى والديهن من سلوك أهل الزوج . وهى تظلمات لا تكون إلا مختلقة فى واقع الأمر . وطبقا للمقولة الشائعة « بأن كل أب يتصرف بالبلاهة إزاء أولاده » فإن الأبوين غير الواعيين يصدِّقان التظلمات المغلوطة الكاذبة من قبل ابنتهما ؛ ليخوضا مع أهل زوجها صراعا لا ينتهى . والطريف أن هذا الصراع المفتعل يعود بأضراره الجسيمة على من قد تسبَّب فى نشوئه ، أى الفتاة نفسها ، بالإضافة إلى والديها . والسبب فى ذلك ببساطة هو أن الفتاة تشكل الجانب الأضعف نسبيا . ومن الحقائق الثابتة أن الجانب الأضعف هو الذى يتحمل الخسائر دائما فى الصراع بين الأقوياء والضعفاء .

لماذا تكون تظلمات الفتيات ضد أهل أزواجهن مضللة أو كاذبة ؟ الحقيقة هى أن حالات التذمر والاستياء بفعل تصرفات من الجانبين دائما ، بينما الفتيات يحاولن تحميل تبعاتها على جانب واحد فقط . وهو سبب يكفى لاعتبار مواقفهن مضللة . فتقديم مشكلة ما على أنها نشأت بسبب طرف واحد – بينما تورط فيها طرفان – يثير الشكوك حول حقيقتها . فما الداعى إلى تذمر المشترى من عدم تسلم البضاعة ما لم يسدد ثمنها ؟ ولو كان بوسع الفتاة أن تراجع موقفها ، بتجرد ونزاهة ، لتبين لها أن المشكلة برمتها تتلخص فى أنها لم تقدم إلى أهل زوجها ما كانوا يطالبونها به ، وبالتالى هى لم تحصل منهم على ما كانت ترغب فيه ، وكان بوسعها أن تفوز به حتما .

والواقع ان منزل أهل الزوج يمثل دور المعلم بالنسبة إلى الفتاة . فهى بنزولها بين أهل زوجها كأنما تدخل مدرسة ؛ لتتعلم فيها حقائق الحياة من جديد . وتتكشف لها مكامن الأمور التى لم تكن لتطلع عليها فى البيئة المصطنعة بمنزل والديها . وكان منزل أبيها يمثل عالما زائفا بالنسبة إليها ، بينما منزل أهل زوجها يشكّل مثابتها الحقيقية . والفتاة التى يغيب عنها هذا الواقع تواجه الفشل فى حياتها الزوجية دوما . بينما الفتاة التى توصلت إلى إدراك هذا السر يستقبلها النجاح فى كافة مراحل حياتها ، ولن تقف فى طريقها أية عقبات .

النظام العائلى غير المشترك

تعتبر فتيات العصر النظامَ العائلى المشترك مثيرا للمشكلات والمتاعب بالنسبة إليهن . وقد وجدن حلها فى العيش مع الزوج على انفراد . فتحاول أغلب الفتيات المثقفات منذ أول وهلة بعد الزواج إقناع أزواجهن على اعتزال منازل آبائهم والاستقرار مع الزوجة فى منزل منفصل .

وتبدو الفكرة فى ظاهرها رائعة . ولكن لا تمضى فترة قصيرة إلا وتتحول الحياة فى الأوضاع الجديدة إلى مصاعب أكثر مما كانت تعانى منها المرأة فى النظام العائلى المشترك . وقد شاهدتُ عن كثب عددا من الفتيات ممن قادهن حماسهن الزائد عن اللزوم فى أول الأمر إلى عزل أزواجهن عن آبائهم والانفراد بسكن مستقل وكأنهن حققن بذلك « انتصارا » . وفى نهاية الأمر يكاد كيانهن أن ينسحق تحت وطأة أوضاع الحياة . ويتطلب النظام العائلى المشترك من المرأة المتزوجة التضحية ببعض طموحاتها النفسية ، إلا أنها تضحى بكامل كيانها خلال عيشها على انفراد مع زوجها . وهو وضع أشد قسوة من السابق بدون شك .

وقد اعترف به المؤرخ البريطانى آرنولد توينبى لدى تناوله أوضاع الحياة الغربية بالتحليل حيث يقول :

حصلت فتاة الطبقة المتوسطة على تعليمها وعلى فرصة ممارسة

العمل ، ولكنها وفى الوقت نفسه قد فقدت خدمَ المنزل (من جراء النظام الصناعى الجديد) ، وحرمت بسبب الانفراد بالحياة العائلية مع الزوج من المساعدات التى كانت تتلقاها على أيدى ذوى قرباها بدون مقابل فى النظام العائلى الموسع على الطراز القديم . وهكذا لم يبق أمامها إلا خياران : إما أن تتحول إلى خادمة البيت تكدح طوال النهار ، أو أن تتحمل أعباء لا تطاق للقيام بوظيفتين فى وقت واحد[١] .

والفتيات ينزعن نحو الاستقلال بالحياة الأسرية بعد مواجهتهن بعض المصاعب فى النظام العائلى المشترك ، فيتوصلن بسرعة إلى اتخاذ قرار الاستقلال بدافع الحماس فى أغلب الأحيان . وبإمكان هؤلاء الفتيات المتزوجات العيش بسلام ، ووئام داخل النظام العائلى المشترك لو بذلن نصف ما يلزمهن من الجهد ، والتضحية للاهتمام بأعمال التدبير المنزلى خلال عيشهن مع أزواجهن على انفراد .

والواقع أن الحياة لا تخلو من المشكلات ، والمتاعب وبوسعنا أن نخفف من وطأة هذه المتاعب لو تصرفنا بالوعى ، والحكمة . إن عيشنا مع الأقارب الآخرين وسط بيت كبير يسبب لنا بعض المتاعب بدون شك ، إلا أنها أقل حتما مما نعانى منها لدى الاستقلال والعيش على انفراد . ويجب على سائر الرجال والنساء الواعين أن يفضلوا وضعا ذا متاعب أقل على وضع ذى مشكلات أكثر .

مشكلات وهمية

من المشكلات العائلية ما يتعلق بأولاد الزوجة السابقة . فمن المعتاد أنه كلما دخلت امرأة – كزوجة ثانية لرجل – منزلا يضم أولاد الزوجة السابقة أن تنشأ أزمات حادة داخل البيت ، تسبب فى بعض الأحيان فى إلحاق أضرار جسيمة بالعائلة .

---

(١) مجلة تايم ، عدد ٢٠ مارس ١٩٧٢ .

وكل امرأة تعطف على أولادها طبيعيا . ونقطة الضعف هذه فى شخصيتها تبقى متوارية إلى أن ترزق هى الأخرى بالأولاد . وهى بمجرد إنجابها للأطفال تركز جل اهتمامها حولهم ، وتغمر اولادها بالعطف ، والحنان الزائدين عن الحد مع إهمال أولاد الزوجة السابقة . فيبدأ مسلسل المتاعب بشعور هؤلاء الأولاد بالغبن ، وما يواجهونه من مضايقات داخل البيت ، مما يؤدى إلى نشوب صراع بين الجانبين لا يعتبر فى صالح أى منهما بأى حال من الأحوال .

وحل هذه المعضلة من السهولة بمكان ، وهو ما يمكن أن يعبر عنه باختصار بـ« حسن التصرف » . وكلما واجهت الأسرة وضعا كهذا ينبغى للمرأة أن تخفى مشاعرها الحقيقية بالتصرف باللباقة ؛ لتحول دون حدوث أية تعقيدات بإذن الله .

ويجب على الزوجة الثانية أن تدرك أنها لو قصرت بعض الشىء فى العطف والرعاية لأولادها لما نشأت هناك مشكلة بسببه ؛ لأن الحظ قد أسعدهم بتواجد الأم بجانبهم كأغلى ما فى الوجود بينما أولاد الزوجة السابقة يعانون من الحرمان بسبب وفاة أمهم أو غيابها . وأى تصرف غير ودى إزاءهم ، ولو كان بدون قصد ، يحملهم على الإحساس بالمهانة . والمعروف أن شعور أى شخص بالمهانة فى الحياة الاجتماعية يؤدى إلى الفساد دائما .

وأقدم هنا من واقع المجتمع الإسلامى فى شبه القارة الهندية الباكستانية . تزوج العلامة الشيخ السيد سليمان الندوى[1] سنة ١٩٢٣ بالسيدة سليمة خاتون (١٩٠٥ – ١٩٨٧) بعد وفاة زوجته الأولى التى كان رزق منها بابن يدعى سهيل . وكانت السيدة سليمة كلما حررت رسالة أنهتها بتوقيع « أم أبى سهيل » حسب التقاليد المتبعة لدى السيدات المسلمات فى شبه القارة الهندية آنذاك بالاكتفاء بالتوقيع بالكنى .

---

(١) من مآثره استكمال كتاب سيرة النبى فى خمسة أجزاء عقب وفاة العلامة شلبى النعمانى بعد إكمال الجزأين الأولين فقط . وقد توفى سنة ١٩٥٣ (المراجع) .

وكانت السيدة سليمة قد رزقت فيما بعد بابن وأربع بنات إلا أنها لم تتخل عن عادتها ، وظلت توقع بـ« أم أبى سهيل » بصفة دائمة . وبالرغم من أن ابنها (الدكتور سلمان الندوى)[1] شخصية مرموقة فى الأوساط الجامعية وعلى الصعيد الاجتماعى إلا أن السيدة سليمة لم توقع بـ« أم سلمان » يوما ما . وكانت سيدة مسلمة مثالية عاشت بعد وفاة زوجها الشيخ سليمان الندوى حوالى ٣٤ سنة . وظلت على حالها من حسن التصرف - واللباقة فى تعاملها مع أفراد عائلتها . ومن الطبيعى أن تشعر - كسائر الأمهات - بحنان ، وعطف أكثر نحو أولادها ، إلا أن مشاعرها الحقيقية لم تكن تؤثر فى تعاملها مع السيد أبى سهيل ، مما نتج عنه أنه عاش بين إخوته غير الأشقاء كأحد الأشقاء تماما . ولم تواجه العائلة أية أزمة حقيقية فى تاريخها الطويل .

والواقع أن تسعة وتسعين فى المائة من كافة الأوضاع التى يمكن أن توصف بأنها مشكلات عائلية ، تنشأ عن حالات نفسية متوترة ، يمكن تفاديها ، وإنهاؤها باستخدام حالة نفسية أخرى ، أى بتهدئة المشاعر المتوترة . وسيتبين أنها أقرب إلى الوهم منه للواقع . لو أن أم الزوج عند تذمرها من تصرفات كنتها اعتبرتها وكأنها صادرة عن ابنتها ، وكذلك الكنة لو اعتبرت أى إجراء قاسٍ فى الظاهر من قبل حماتها وكأن أمها هى التى قامت به : لما نشأ هناك أى خلاف حقيقى بين الجانبين . .

إن تناول كافة المشكلات من قبل الكنة والحماة بهذا الأسلوب يهدم هذه المشكلات من أساسها . والواقع أن مثل هذه المشكلات تصدر عن أوضاع نفسية متوترة ، ويمكن إنهاؤها بسهولة بتهدئة تلك الأوضاع . وهى مشكلات وهمية أكثر من كونها حقيقية فى أغلب الأحيان .

* * *

---

(١) هو الآن أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة دربن بجنوب إفريقيا وصاحب مؤلفات عديدة (المراجع) .

كلمة أخيرة

تواصل فئة من المثقفين المعاصرين إلحاحها على إدخال تعديلات فى قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية . وعدم رضوخ فئة المتمسكين بتعاليم الإسلام أمام مطالب هؤلاء يؤدى إلى اتهامهم للإسلام بعدم مسايرته لمتغيرات الحياة المعاصرة بحجة أنه يرفض قبول أى تعديل فى قوانينه . ونشير هنا إلى ماذكره السيد موهان غورو سوامى فى مقال نشرته صحيفة **هندوستان تايمز**[1] اليومية :

> يبدو أن الإسلام ، بدلا من أن يكون ديانةً منفتحة لتقبل الرأى العام هو ديانة لها قوانين لا تقبل التغير . والنزاع الأخير حول دفع نفقة الإعالة والموقف المتحجر الذى اتخذه معظم الزعماء المسلمين فى هذه البلاد مثال آخر لعدم قبول التغير .

وقد توصلت – بعد دراسة متأنية لآراء كهذه يتم تداولها الآن – إلى قناعة بأنها تصدر عن ضحالة فكرية . وأهم ما يمكن أن يثار بشأنها من سؤال هو : ما هى الحجة التى تبرر إدخال التعديلات على قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية ؟

والحجة لا تعدو عن كونها شيئين : حقائق علمية ثابته أو تجارب حقيقية . والمواد التى جمعت بين دفتى هذا الكتاب بشىء من التفصيل توضح بطريقة لا لبس فيها أن الادعاء الآنف الذكر لا يستند فى واقع الأمر لا إلى علم ولا إلى تجربة بشرية يعتد بها . وعلى العكس من هذا تماما تقوم كافة فروع العلم المتعلقة بتصديق القوانين الإسلامية نظريا ، كما أن النتائج التى تمخضت عن التجربة الاجتماعية فى العصر الحاضر توضح من غير جدال أن المفاهيم الشرعية للإسلام هى عين الصواب . وفى مقابل هذا تشكل الأفكار التى راجت فى العصر الحاضر

---

(١) عدد ٦ أبريل ١٩٨٧ (والإشارة إلى موقف سواد المسلمين من قضية المطلقة شاه بانو التى سبق تناولها – المراجع) .

كارثة من حيث نتائجها العملية . وفى هذه الحالة ينبغى أن يُطالَب الجانب الآخر بإحداث التعديلات ، وليس الإسلام .

توعية المرأة هى لب المشكلة

لاعتبرنا من البلاهة لو قيل لكاتب ما : إن نزوله إلى حلبة الملاكمة ، بدل التزام مكتبه بهدف الدراسة والبحث ، أجدى وأنفع للبشرية . . وذلك لأننا كلنا ندرك أن الإنسان كيان واعٍ . وتقدمه يتوقف على مدى سعيه للتزود بوعى أكثر ، وليس تفوقه الجسدى .

وهذا الكلام ينسحب بصدق على وضع الرجل ، كما ينسحب على وضع المرأة أيضا . فهناك عدة دول إفريقية ذات أغلبية إسلامية يتحكم المسيحيون عمليا . فى أوضاعها السياسية والاقتصادية والسبب وراء ذلك بكل بساطة هو تفوق المسيحيين فى التعليم والثقافة ، بينما ما زال المسلمون يعانون من التخلف فى مجال التعليم .

السر الحقيقى وراء تقدم المرأة لا يكمن فى إحلالها بكافة مواقع الحياة بل فى تثقيف المرأة ، وتوجيهها ، وتوعيتها . وكلما كانت المرأة أكثر وعيا وإدراكا قامت بإنجاز أكبر الأعمال فى هذا العالم . إن كون المرأة واعية بمعنى الكلمة يوسع لها المجال لإنجاز أعظم الأعمال رغم التزامها البيت بينما بقاؤها بدون وعى لن يؤهلها لتقوم بأى عمل يذكر ، حتى لو تقلدت أهم المناصب العالية .

وتزخر المصادر التاريخية بمواقف لنساء مارسن نفوذا أقوى على الصعيد الخارجى رغم بقائهن عمليا داخل أسوار البيت . ومنهن نورجَهَان زوجة الملك الهندى المغولى المسلم جهانغير ، الذى اقترن بها عام ١٦١١م بعد ترملها . وكانت نورجهان تمكث داخل القصر الملكى وفق التقاليد القديمة ، إلا أن كافة المؤرخين الذين تناولوا حقبة حكم المغول المسلمين على الهند أكدوا على أنها أثرت بقوة على مجريات الأمور عن طريق جهانغير .

لقد ارتكبت نورجهان أخطاءً عديدة ، أفدحها محاولتها تنصيب صهرها — زوج ابنتها — الأمير شهريار وليا للعهد . وكان الأمير خُرّم (الملقب فيما بعد بشاه جهان) أكثر أبناء جهانغير الثلاثة قدرةً ونبوغا ، فقرر جهانغير أن يخلّفه

على عرشه . ولكن نورجهان تآمرت ليتولى شهريار – أى صهرها – مقاليد الحكم بعد جهانغير ، مما أدى إلى نشوب صراع مسلح بين مختلف فصائل الجيش المغولى ، وأسفر عن نتائج وخيمة .

وبغض النظر عن هذا الفصل من حياتها فإن نموذج نورجهان يعد دليلا على ما للمرأة النابغة من قدرة التأثير على مجريات الأمور فى الخارج . فمن الثابت أن نورجهان كانت « قعيدة البيت » ، ورغم ذلك قامت بإنجازاتها على الصعيد الخارجى ، وتشيد بها دائرة المعارف البريطانية – إلى جانب مصادر تاريخية أخرى – على النحو التالى :

> وكانت نورجهان تتمتع بنفوذ وسلطة عظيمين وأصبحت قوة وراء العرش . ومارست نورجهان نفوذا قويا على زوجها . وقامت برعايته بعناية وتفانٍ لا مثيل لهما . وقلّل جهانغير من إكثاره من شرب الخمر بسبب نفوذها . لقد أعفته من كثير من مشاق الروتين الإدارى والقلق . وزادت من عظمة البلاط المغولى وآزرت زوجها بكفاءة فى رعاية التعليم والفن ، وتوزيع الأموال على الفقراء[1] .

إنجاز تاريخى عظيم

ينفى تاريخ الإسلام بشدة الاتهام القائل بأنه ليس بوسع النساء إنجاز أعظم الأعمال نتيجة بقائهن داخل البيوت . ومع أن عمل المرأة داخل البيت يعد إنجازا عظيما فى حد ذاته ، إلا أنه من المؤكد أن بوسع النساء أيضا القيام بما يوصف عادة بالإنجازات العظيمة على الصعيد الخارجى ، وذلك بدون أن ينطلقن إلى خارج البيت كالرجال . ويزخر تاريخ الإسلام بوقائع كثيرة فى هذا الشأن . ومنها ما ذكره المؤرخ البريطانى ت .د . آرنولد .

---

(١) ٩ /٣٨٣ .

إن غارة التتار على الدولة الإسلامية فى مستهل القرن الثالث عشر ، وما أشاعوا فيها من خراب ودمار على نطاق واسع حدث تاريخى معروف . ولكن وقع بعد ذلك ما يمكن أن يوصف بـ« المعجزة التاريخية » . فقد تحول ألد أعداء الإسلام بعد اعتناقهم للإسلام الى حماته .

ويصف باحث **دائرة المعارف البريطانية**[1] هذا الواقع قائلا :

> تمكن غازان خان (الذى حكم بين سنوات ١٢٩٥ - ١٣٠٤ من اعتناق الإسلام . وحازت عملية الاعتناق هذه الرضا العام لجيشه . وكان كل أخلافه مسلمين ، فخلال أربعين سنة من غزو هولاكو المروِّع كان أخلافه قد أصبحوا رعاة الثقافة الإسلامية .

ويعلق الأستاذ آرنولد على هذه الظاهرة قائلا : « جماعات التتار ، والقبائل الهمجية التى جاءت فى أعقابها أذعنت لديانة نفس تلك الشعوب الإسلامية التى كانت قد سحقتها تحت أقدامها »[2] .

وقد ناقش الأستاذ آرنولد العوامل الكامنة وراء هذا التحول بالتفصيل ، وهو يقول :

> من المثير للاهتمام أن نلاحظ هنا أن الدعوة إلى الإسلام لم تكن من أعمال الرجال وحدهم ، بل النساء المسلمات أيضا شاركن فى هذا الواجب الدينى . فإسلام عدد من أمراء التتار يرجع إلى تأثير زوجاتهم المسلمات ولعل نفس الشيء ينطبق على عدد من الوثنيين الأتراك حين دخلوا البلاد الإسلامية مغيرين[3] .

لقد قامت النساء المسلمات بدورهن البارز لإنجاز ذلك الحدث التاريخى

---

(١) ٩ / ٩٢٣ .

(٢) T.W. Arnold, **The Preaching Of Islam**, (Lahore 1979) p. 229.

(٣) المصدر السابق ، ص٤١٥ .

العظيم . وحين حطم التتارُ الخلافةَ الإسلامية ، وتفننوا فى أعمال التقتيل والتشريد لشعوبها على نطاق واسع ، أسروا أعداداً كبيرة من النساء واتخذوهن زوجات لهم . وخلال الفترة التى أعقبت غارة التتار كانت بيوت الجنود وقائدى الجيوش تضم نساءً مسلمات يعمر قلوبهن الإيمان بالله والحماس للدفاع عن الإسلام ، فبدأن العمل بصمت لدعوة أزواجهن التتار إلى الإسلام ، ووجدن لديهم آذانا صاغية ، مما مهّد أمامهم الطريق للدخول فى الإسلام ، إما بفعل الدعوة داخل بيوتهم ، أو نتيجة تعاملهم مع المسلمين فى الخارج فكانوا يشهرون إسلامهم بالقليل من الإقناع لما سبق من بذر الإسلام فى قلوبهم .

وقد حدث هذا مع أغلب التتار . وكان (بركة خان) أول من اعتنق الإسلام بين الحكام التتار . وتمتد فترة حكمه من ١٢٥٦م الى ١٢٦٧م ، ولعله كان قد ولد من بطن امرأة مسلمة ربّته كمسلم منذ نعومة أظفاره . والتقى بركة خان بتاجر مسلم بعد توليه الحكم ، ودخل معه فى نقاش طويل حول الإسلام ، وأشهر إسلامه فيما بعد . وخلف (الجايتو) على العرش سنة ١٣٠٤ بعد وفاة شقيقه غازان خان . وكانت زوجته مسلمة . ويقال : إنها حملته على اعتناق الإسلام . وصادفت مثل هذه الأوضاع أغلب القادة التتار وجنودهم ، فكانت زوجاتهم ، أو أمهاتهم ينتمين إلى أسر إسلامية ، وعزّزن فى قلوبهم مكانة الإسلام المرموقة مما أدى إلى تحويلهم إلى الإسلام بمرور الزمان .

المرأة مستشارة الرجل

تقضى المرأة بحكم مبدأ توزيع العمل معظم أوقاتها – بجسدها – داخل البيت ، ولكنها تساهم وتقف – بعقلها ومشاعرها – بجانب الرجل الذى ينطلق خارج البيت ؛ ليمارس الأعمال الخارجية . وترتبط المرأة بالرجل ارتباطا عميقا ، فهى تزامله ، وتؤدى دور المستشار بالنسبة إليه ، وتواسيه ؛ لتشاركه دائما الأعمال الموكلة اليه . ولو كانت المرأة تقوم بالإشراف على الأعمال المنزلية مباشرة فهى تشرف على مجريات الأمور فى الخارج بواسطة التأثير فى زوجها بالرأى ، والمشورة السديدة .

وتعتبر المرأة على صلة وثيقة بكافة الأعمال فى العالم ، وبجميع الأنشطة فى مختلف أوجه الحياة ، أى أنها ترتبط مباشرة بخمسين فى المائة من أمور الحياة ، بينما ترتبط عن طريق غير مباشر بالخمسين فى المائة الباقية منها . ويساوى وضع دورها فى الحياة دورَ الرجل تماما . وفاعلية هذا الدور لا يتوقف على أين تم إحلالها جسديا ، وإنما على مدى وعيها وإدراكها . والواقع أن تباين المرأة عن الرجل يتقرر حسب موقع العمل وليس بسبب العمل نفسه .

وتعتبر المرأة جنسا أضعف فى شخصها ، إلا أنها تشكل قوة الجنس الأقوى . وفى وضعها هذا يكمن سر قوتها .

خطأ المقياس

يبدو الرجل والمرأة متساويين لو بحثت قضيتهما على أساس « توزيع العمل » . وخلافا لذلك لو نوقشت هذه القضية من منظور « التماثل فى العمل » فسيبدو الرجل متفوقا ، والمرأة أدنى منه مرتبة ، لاستحالة تماثلهما على المستوى البيولوجى .

وحين تكشف لأنصار المساواة بين الرجل والمرأة فى العصر الحاضر تباين المرأة عن الرجل من الناحية البيولوجية ، وبالتالى عدم تمكن المرأة من الوصول إلى القياس المطلوب للتماثل فى العمل ، فلم يعد هؤلاء النظر فيما تبنوه من « مقياس » ، بل انصرفوا إلى تأويل فشلهم بأسباب زائفة ، وذلك لأن إعادة النظر فى مقياسهم كان سيعرض فقط هذا المقياس المصطنع للخطر . ولكن المرأة نفسها تعرضت للخطر بسبب عدم إعادتهم النظر فى مقياسهم المزيف . فعلى سبيل المثال : هناك فئة من المثقفين تئول وضع المرأة هذا على ضوء نظرية النشوء والارتقاء لداروين فتقول : « بقيت المرأة فى مرحلة أكثر بدائية فى عملية الارتقاء . وعلى حد تعبير دارون : لقد ساد الرجل على المرأة فى نهاية الأمر »[1] .

---

(١) مجلة تايم ، ٢ مارس ١٩٨٧ ، ص٤٢ .

وكان تباين المرأة إزاء الرجل قد تمخض عن ترتيبات طبيعية ، أبدعها الله تعالى لمصلحة البشرية ، إلا أن التأويل السابق يعتبره بمثابة تخلف المرأة « الطبيعى » ، مما أصاب المرأة بمركب نقص دائم . هذه النهاية للنظرية « النسائية الجديدة » برهان قاطع على زيفها .



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ١٩٢٧ / ١٩٩٤ م

I . S . B . N : 977 - 255 - 084 - 9

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

هذا الكتاب .. الموسوعة

ه يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين والمستغربين على حد سواء أن الإسلام ينتقص من قيمة المرأة ... وأن الحضارة الغربية هى التى « حررت » المرأة من قيودها وتبعيتها للرجل !!

ه وهذا الزعم ينقضه الحق والواقع والتاريخ .. على كلا الجانبين .. !!

ه ويقول المفكر الإسلامى الكبير الأستاذ وحيد الدين خان ـ وهو يناقش قضايا المرأة ومكانتها فى ظل كل من الإسلام والحضارة الغربية ـ إن زعما كهذا ناتج عن ضحالة فكرية وتزوير إعلامى كبير .. وهو ينتهى ـ بعد استعراض موسوعى طويل لوضع المرأة فى ظل كل من المجتمع الغربى والإسلام ـ إلى أن الإسلام وحده هو الذى يراعى خصائص المرأة ، وهو وحده الذى يكفل حقوقها وكرامتها بتحديد إطار عمل يناسب طبيعتها البيولوجية ، ويراعتى أنوثتها المتميزة ..

ه ويقدم المؤلف ـ أثناء مسيرته الرائعة فى هذا البحث ـ أدلة العلوم والتاريخ على صدق هذه الحقيقة المجردة !!

هه ويسرنا أن نقدم لكل قارئ موضوعى ـ مسلما كان أو غير مسلم ـ هذا الكتاب (الموسوعة) ...

الناشران



دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ القاهرة

الإدارة : ٧ ش السراى ـ أول المنيل ت . فاكس : ٩٨٧٩٢٤

الفرع : حدائق حلوان ـ بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ـ ش . م . م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٣٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004